

أشهر الخطب

ومشاهير الخطباء

تأليف

سلامه موسى

حقوق الطبع والنشر

محفوظة لمجلة الهلال

مطبعة النهضة

١٩٢٤

أبهر الخطب

ومنا هير الخطباء

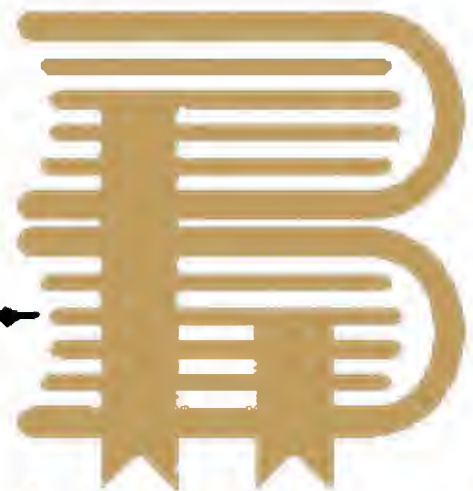
تأليف

سلامه موسى

حقوق الطبع والنشر

محفوظة لمجلة الهلال

شبكة كتب الشيعة



مطبعة الهدى

١٩٢٤

shiabooks.net

رابط بديل < mktba.net

المقدمة

ربما كانت الخطابة أقدم الفنون الادبية . فالهجم والمتمدنيون سواء في الحاجة الى الخطيب يناشد فيهم حميتهم ووطنيتهم لذود العدو الجائح أو للغاارة على جار مستضعف أو لاسترداد حق مسلوب أو اغتصاب ملك جديد

والخطيب الملهم يخاطب العواطف وقل أن يأبه للعقل . لأن الناس اذا اجتمعوا شملهم ادراك آخر غير ادراكهم الشخصي . فهم يفكرون أو بالاحرى يحسون جماعة . فيزلون عندئذ من سماء العقل والمنطق الى حضيض العواطف والشعور فتحركهم اللفظة المبهرجة وتستفزهم المعاني التافهة المنمقة . وهذا هو السبب في ان الاقدمين لا يقولون عنا شأواً في الخطابة وفي ان أحسن الخطب عند الاستماع وسط الحشد يفقد شيئاً كبيراً من تأثيره وفعله في النفس اذا قرأه قارئ على انفراد . وذلك لما أشرنا اليه من ان الناس اذا اجتمعوا تغلبت عواطفهم على عقولهم وشمل نفوسهم شيء من التفزز يستثير فيهم الحزن أو السرور أو الحماسة لثئون لا يتحرك منها العقل . ولعل هذا هو السبب الذي جعل المؤرخ الانجليزي فرود يسمي الخطابة بغير الفنون

لهذا كانت عيون الخطب التي حفظها التاريخ قليلة معدودة . لأن الخطبة ينطق بها الخطيب أمام الحشد ويعيرها فيضاً من

شخصيته من حيث انطلاق اللسان ورشاقة الحركة وجهارة الصوت
تفقد هذه الميزات اذا عرض لها المؤرخ وهو منفرد جالس في هدوء
مكتبته . لأنه وهو في هذه الحال يسلط عقله على انشاء لم يقصد به
مواجهة العقل فيرى بهرجاً ما كان يظنه المجتسمون وهم في نشوة
عواطفهم جوهرأ خالصاً

وقد جمعنا في هذا المجلد غرر الخطب وعيونها التي رضىها
المؤرخون واحتملت تمحيصهم فدونوها وأبقوا عليها . وقد قسمناه
جزأين : الاول يحتوي على خطب العرب والثاني يحتوي على
خطب الاوربيين قديمهم وحديثهم . ومهدنا لكل خطبة بترجمة
مختصرة عن الخطيب الذي فاه بها

ولا بدلنا من الاشارة الى اننا اوردنا هذه الخطب بنصوصها
الاصلية ونحن نعرف ما في بعضها من المخالفة لروح العصر الحاضر
وانما اثبتناها لقيمتها التاريخية

سلام موسى

الجزء الاول

عيون الخطب العربية

نبذة

في تاريخ الخطابة العربية

ليس يؤثر عن العرب في الجاهلية سوى خطب الكهان . ولا شك أن الخطابة كانت فناً معروفاً في ذلك الوقت يمارسها الرؤساء وذوو الرأي في القبائل للاستنفار والمناشدة . ولكن آداب الجاهلية من شعر وخطابة عفى آثارها الاسلام لما كانت تحويه من اشارات وثنية ونخوة جاهلية . والاسلام يكره الاثنتين لتعصبه للتوحيد ولرغبته في المساواة بين المسلمين . ثم كان الاسلام يخطب النبي كما خطب الخلفاء الراشدون وصارت « خطبة الجمعة » سنة وركناً من اركان الدين . وكانت الخطب في هذا الدور دينية محضة الا ما كان ينطق به القواد امثال خالد بن الوليد في ميادين القتال للحض على منازلة الاعداء

ثم جاءت الدولة الاموية فظهرت الخطب السياسية وصار للخطابة شأن وفن يمارس . ولعل القارىء يدرك خطر الخطابة في ذلك الوقت من اهتمام جميع المؤرخين بما فعله الوليد بن عبد الملك اذ كان يخطب وهو قاعد

أما في الدولة العباسية - وهي في اعتقادنا سبب انحطاط شأن العرب لنزوع الخلفاء نزعة دينية محضة - فإن الخطابة فقدت في عصرها صفة الأرتجال وملاءمة الخطبة للظرف المحيط بالخطيب .

وصارت الخطب نسخ نسخاً وتحفظ حفظاً. فيفيض رجعها غشاة ويشبه أولها آخرها في قلة المعنى واتساق الفهامة
 ثم اجتاحت المغول الدول العربية ومحوها من الوجود الا صورة
 أبقوها في الخلافة العباسية وما كان أغناهم عن ذلك لأن الخلفاء
 العباسيين كانوا انفسهم من حيث الدم مغولاً في ذلك الوقت
 وحكم المغول من كرد وترك وأفغان وسائر الاسيويين الذين
 تسلطوا على البلاد العربية لم يتخلص ظله في الواقع الا منذ نحو
 مائة سنة حين نهض العرب في مصر وسوريا . وكانت مصري
 البنادثة المتبوعة فظهر فيها خطباء . وكان أول ظهورهم في
 الثورة العربية

رأى الرب عربي في الخطابة

كان ابراهيم بن جبلة يعلم فتیان العرب الخطابة فربه بشر بن
 المعتمد فوقف يستمع . فظن ابراهيم انه انما وقف ليستفيد . فقال
 بشر : « اضربوا عما قال صفحاً . واطووا عنه كشفاً » ثم دفع
 اليهم صحيفة من تنميقة وتجبيره يصح أن نعتبر ما جاء فيها أساساً
 لما جرى عليه بعض العرب في تأليف الخطب
 قال بشر في هذه الصحيفة : « خذ من نفسك ساعة نشاطك
 وفراغ بالك واجابتها اياك . فأَنْ نفسك تلك الساعة اكرم جوهرأ
 وأشرف حسباً وأحسن في الاستماع وأحلى في الصدور وأسلم من
 فاحش الخطأ . وأجلب لكل عين من لفظ شريف ومعنى بديع .
 واعلم ان ذلك اجدى عليك مما يعطيك يومك الاطول بالك
 والمطاوله . والمجاهدة بالتكليف والمعاودة ومهما اخطاك لم يخطئك

ان يكون مقبولا قصدا . وخفيفاً على اللسان سهلاً . كما خرج من
 ينبوعه ونجم من معدنه . واياك والتوعر فأنت التوعر يسلمك الى التعقيد
 والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ويشين الفاظك . ومن أذاع
 معنى كريماً فليتمس له لفظاً كريماً . فأنت حق المعنى الشريف
 اللفظ الشريف . ومن حقهما أن تصونها عما يفسدهما ويهجنهما
 وعما تعود من اجله الى أن تكون أسوأ حالا منك قبل ان تلتبس
 اظهارها وترهن نفسك بملابستها وقضاء حقهما . فكن في
 ثلاثة منازل :

« فاول ذلك ان يكون لفظك رشيقياً عذبا أو فخماً سهلاً .
 ويكون معناه ظاهراً مكشوفاً وقریباً معروفاً . أما عند الخاصة
 ان كنت للخاصة قصدت واما عند العامة ان كنت للعامة اردت .
 والمعنى ليس يتضح ان يكون من معاني العامة . وإنما مدار الامر
 على الشرف مع الصواب واحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب
 لكل مقام من المقال . وكذلك اللفظ العامي والخاصي . فان امكنتك
 ان تبلغ من بيان لسانك و بلاغة لفظك ولطف مداخلك وقدرتك
 في نفسك على ان تفهم العامة معاني الخاصة وتسكوها الالفاظ
 المتوسطة التي لا تلتطف على الدهماء ولا تجفو عن الاكفاء فانت
 البليغ التام »

وقد عاش بشر في ايام الرشيد وكانت وفاته في سنة ١٨٣ هـ
 (٨٠٠ م) وكان معتزلي المذهب وانفرد بمسائل فصار رئيس طائفة
 يقال لها البشرية

خطبة لقس بن ساعدة

كان قس خطيباً في جاهلية العرب وأدركه النبي فقال فيه : « يرحم الله قسا
أني لأرجو يوم القيامة أن يبعث أمة وحده » وينسب إليه أنه أول من قال :
« أما بعد » . خطب في سوق عكاظ فقال :

أيها الناس اسمعوا وعوا . من عاش مات ومن مات فات . وكل
ما هو آت آت . ليل داج ونهار ساج وسماء ذات أبراج . ونجوم
تزهر : وبحار تزخر . وجبال مرساة . وارض مدحاة . وانهار بحراة .
ان في السماء خبيرا . وان في الارض لعبرا . ما بال الناس يذهبون ولا
يرجعون . أرضوا فأقاموا ام تركو فناموا . يقسم قس بالله قسما لا
أثم فيه . ان لله ديناً هو ارضى لكم وافضل من دينكم الذي اثم
عليه . انكم لتأتون من الامر منكرا

في الذاهبين الاولين من القرون لنا بصائر
لما رايت موارد للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها تمضي الاكابر والاصاغر
لا يرجع الماضي الى ي ولا من الباقين غار
أيقنت اني لا محالة حيث صار القوم صائر

خطبة للنبي

قال الاسكندر ي : « كان رسول الله ليس بالطويل ولا بالقصير . ضخم
الرأس كث اللحية . عظيم الكفين والقدمين ومفاصل العظام . ابيض مشربا
بحمرة . ادعج العينين سبط الشعر . سهل الخدين اقنى الانف اشبه . في
مقدم لحيته ومفرق رأسه شعرات بيض . وكان أرجح الناس عقلا وافضلهم
 رأيا . قليل الزواج واللغو . مطيل الصمت دائم البشر متفقداً لاصحابه متواضعا .
يخضع نعله ويرقع ثوبه . وخرج من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير زهداً
فيها » . قال في خطبة :

أيها الناس ان لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم . وان لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم . ان المؤمن بين مخافتين : بين عاجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه . وبين آجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه . فليأخذ العبد من نفسه لنفسه . ومن دنياه لآخرته . ومن الشبية قبل الكبر . ومن الحياة قبل الموت . فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب

خطبة لابي بكر

كان ابو بكر اول الخلفاء الراشدين وقد ولى الخلافة من سنة ٦٣٢ الى سنة ٦٣٤ م وعند ما بويح بالخلافة فاه بالخطبة التالية :

أيها الناس اني قد وليت عليكم ولست بخيركم . والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له . والقوي منكم الضعيف عندي حتى آخذ الحق منه . لا يدع احد منكم الجهاد في سبيل الله . فانه لا يدعه قوم الا ضربهم الله بالذل . ولا تشيع الفاحشة في قوم الا عمهم الله بالبلاء . وانا انا متبع ولست بمبتدع . فان استقمتم فتابعوني وان زغت فقوموني . وانكم تردون وتروحون في اجل قد غيب عنكم علمه . فان استطعتم الا يمضي هذا الاجل الا واتم في عمل صالح فافعلوا . وان الله لا يقبل من الاعمال الا ما اريد به وجهه . فاريدوه باعمالكم وان ما اخلصتم لله من اعمالكم فطاعة ايتيموها . . . وضرائب اديتموها وسلف قدمتموه من ايام فانية لأخرى باقية لحين فقركم وحاجتكم . اعتبروا عباد الله بمن مات منكم وتفكروا في من كان قبلكم اين كانوا امس واين هم اليوم . اين الجبارون . اين الذين كان لهم ذكر القتال والغلبة في مواطن

الحروب . قد تضعضع بهم الدهر وصاروا رميا . قد تركت عليهم القالات الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات . وابن الملوك الذين اثاروا الارض وعمروها . قد بعدوا وانسى ذكركم وصاروا كالا شيء الا وقد ابقي الله عليهم التبعات وقطع عنهم الشهوات . ومضوا والاعمال اعمالهم والدنيا دنيا غيرهم . وبقينا خلفاً بعدهم . فان نحن اعتبرنا بهم نجونا وان اغترنا كنا مثلهم . ابن الوضاء الحسنة وجوهم المعجرون بشبابهم . صاروا ترابا وصار ما فرطوا فيه حسرة عليهم . ابن الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط وجعلوا فيها الاعاجيب قد تركوها لمن خلفهم . فتلك مساكنهم خاوية وهم في ظلمات القبور . هل تحس منهم من احد أو تسمع لهم ركزا . ابن من تعرفون من ابنائكم واخوانكم . قد انتهت بهم اجالهم . فوردوا على ما قدموا فخلوا عليه واقاموا للشقوة والسعادة بعد الموت . الا ان الله ليس بينه وبين احد من خلقه سبب يعطيه به خيرا ولا يصرف به عنه سوءاً الا بطاعته واتباع امره . واعلموا انكم عبيد مدينون وان ما عنده لا يدرك الا بطاعته . . .

خطبة لعمر بن الخطاب

يا اولي عمر الخلافة (من ٦٣٤ الى ٦٤٤ م) بعد ابي بكر صعد المنبر فحمد الله واثنى عليه ثم قال :

يا أيها الناس اني داع فامنوا . اللهم اني غليظ فليني لأهل طاعتك بموافقة الحق ابتغاء وجهك والدار الآخرة . وارزقني الغلظة والشدّة على اعدائك واهل الدعارة والنفاق من غير ظلم مني لهم ولا اعتداء عليهم . اللهم اني شحيح فسخني في نوائب المعروف .

قصدا من غير سرف ولا تبذير ولا رياء ولا سمعة . واجعلني ابتغي
بذلك وجهك والدار الآخرة . اللهم ارزقني خفض الجناح ولين
الجانب للمؤمنين . اللهم اني كثير الغفلة والنسيان فاهمني ذكرك
على كل حال وذكرك الموت في كل حين . اللهم اني ضعيف عند
العمل لطاعتك فارزقني النشاط فيها والقوة عليها بالنية الحسنة التي
لا تكون الا بعزتك وتوفيقك . اللهم ثبتني باليقين والبر والتقوى
وذكر المقام بين يديك والحياء منك وارزقني الخشوع في ما يرضيك
عني والمحاسبة لنفسي واصلاح الساعات والحذر من الشهوات .
اللهم ارزقني التفكير والتدبر لما يتلوه لساني من كتابك والفهم له
والمعرفة بمآنيه والنظر في عجائبه والعمل بذلك ما بقيت . انك
على كل شيء قدير

خطبة لعلي بن ابي طالب

تولى علي الخلافة بين سنة ٦٥٧ وسنة ٦٦١ م بعد عثمان . وقد نسبت
اليه عدة خطب ورسائل هي من ايات البلاغة الخالدة . وفي ما يلي احدى خطبه
حمد الله واثني عليه ثم قال :

اوصيكم عباد الله ونفسي بتقوى الله ولزوم طاعته وتقديم
العمل وترك الأمل . فانه من فرط في عمله لم ينتفع بشيء من امله .
أين التعب بالليل والنهار . المقتحم للجيح البحار . ومفاوز القفار .
يسير من وراء الجبال . وعالج الرمال . يصل الغدو بالرواح والمساء
بالصباح . في طلب محقرات الارباح . هجمت عليه منيته .
فعظمت بنفسه رزيته . فصار ما جمع بوراً . وما اكتسب غروراً ،
ووافي القيامة محسوراً . ايها اللاهي الغار بنفسه كاذبي بك وقد

أتاك رسول ربك لا يقرع لك باباً . ولا يهاب لك حجاباً . ولا
يقبل منك بديلاً . ولا يأخذ منك كفيلاً . ولا يرحم لك صغيراً .
ولا يوقر فيك كبيراً . حتى يؤديك الى قعر مظلمة . ارجأوها موحشة .
كفعله بالأمم الخالية والقرون الماضية . اين من سعى واجتهد
وجمع وعدد . وبني وشيد وزخرف ونجد . وبالقليل لم يمنع
وبالكثير لم يمنع . اين من قاد الجنود ونشر البنود . اضحوا رقانا
تحت الثرى امواتا . وانتم بكاسهم شاربون . ولسبيلهم سالكون .
عباد الله فاتقوا الله وراقبوه واعملوا لليوم الذي تسير فيه الجبال .
وتنشق السماء بالغمام . فتتطايير الكتب عن الايمان والشمالك

خطبة اخرى لعلي بن ابي طالب

لما اغار سفيان بن عوف الاسدي بجيش من حيوش معاوية على الانبار
وقتل عامل علي عليها حسان البكري خرج علي حتى جلس على باب السدة فحمد
الله واثني عليه ثم قال :

اما بعد فان الجهاد باب من ابواب الجنة . فمن تركه البسه الله
ثوب الذل واشتمله البلاء والزمه الصغار وسامه الخسف . ومنعه
النصف . الا واني دعوتكم الى قتال هؤلاء القوم ليلا ونهاراً
وسراً واعلاناً وقلت لكم : اغزوهم قبل ان يغزوكم فوالله ما غزي
قوم قط في عمر دارهم الا ذلوا . فتواكلتم وتحاذلتم وثقل عليكم
قولي . فاتخذتموه وراءكم ظهرياً حتى شنت عليكم الغارات . هذا
اخو عامد قد بلغت خيله الانبار وقتل حسان البكري . وازال
خيلكم عن مسارحها وقتل منكم رجالاً صالحين . ثم انصرفوا وافرين
ما كلم رجل منهم . فلو ان رجلاً مسلماً مات من بعد هذا اسفاً

ما كان عندي ملوماً بل كان به عندي جديراً . فواعجباً من جد هؤلاء في باطلهم وفشلهم عن حقكم . فقبحاً لكم وترحاً حين صرتم غرضاً يرمى بفار عليكم ولا تغفرون . وتغزون ولا تغزون . ويمصى الله وترضون . فاذا امرتم بالمسير اليهم في ايام الحر قلتم : « حمارة القيظ امهلنا حتى يسبخ عنا الحر » . واذا امرتم بالمسير اليهم ضحى في الشتاء قلتم : « امهلنا حتى ينسلخ عنا هذا القرم » . فأنتم والله من السيف افر . يا اشباه الرجال ولا رجال . ويا أحلام أطفال وعقول ربات الحجال . وددت ان الله أخرجني من بين أظهركم وقبضني الى رحمته من بينكم واني لم اركم ولم اعرفكم معرفة . والله جرت وها . ووزيتم والله صدري غيظاً . وجرعتهموني الموت اتقاساً . وأفسدتم على راي بالعصيان والخذلان حتى قالت قريش ان ابن ابي طالب شجاع ولكن لا علم له بالحرب . لله ابوهم . وهل منهم احد اشد لها مراساً وأطول تجربة مني . لقد مارسها وانا ابن عشرين . فيها انا ذا قد نيفت على الستين ولكن لا رأي لمن لا يطاع

خطبة اخرى لعلي بن ابي طالب

الحمد لله الذي استخلص الحمد لنفسه واستوجبه على جميع خلقه . الذي ناصية كل شيء بيده ومصير كل شيء اليه . والقوي في سلطانه اللطيف في جبروته . لا مانع لما اعطى ولا معطي لما منع . خالق الخلائق بقدرته ومسخرهم بعشيتته . وفي العهد صادقي الوعد . شديد العقاب جزيل الثواب . احمده واستعينه على ما انعم به مما لا يعرف كنهه غيره . واتوكل عليه توكل المستسلم لقدرته . المتبري من الحول والقوة اليه . واشهد شهادة لا يشوبها شك انه

لا اله الا هو وحده لا شريك له الهما واحداً صمداً . لم يتخذ صاحبة ولا ولداً . ولم يكن له شريك في الملك . وهو على كل شيء قدير . قطع ادعاء المدعي بقوله عز وجل « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » واشهد ان محمداً صلى الله عليه وسلم صفوته من خلقه وامينه على وحيه . ارسله بالمعروف آمراً وعن المنكر ناهياً والى الحق داعياً . على حين فترة من الرسل . وضلالة من الناس واختلاف من الأمور . وتنازع من اللسن . حتى تم به الوحي وانذر به أهل الارض . اوصيكم عباد الله بتقوى الله فانها العصمة من كل ضلال والسبيل الى كل نجاة . فكأنكم بالجثث قد زاليتها ارواحها وتضمنتها أجدانها . فلن يستقبل معمر منكم يوماً من عمره الا بانتقاص آخر من اجله . وانما دنياكم كفيء الظل أوزاد الراكب . واحذركم دعاء العزيز الجبار عبده . يوم تغفى اثاره وتوحش منه دياره ويؤتم صغاره . ثم يصير الى حفير من الارض متعفراً على خده . غير موسد ولا ممهد . اسأل الذي وعدنا على طاعته جنته . ان يقينا سخطه ويحببنا نعمته ويهب لنا رحمته . ان أبلغ الحديث كتاب الله

خطبة اخرى لعلي بن ابي طالب

استغفر علي اهل الكوفة لحرب الجمل فاقبلوا اليه مع ابنه الحسن فقام فيهم خطيباً فقال :

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وآخر

المرسلين

اما بعد . فان الله بعث محمداً عليه الصلاة والسلام الى الثقلين

كافة والناس في اختلاف . والرب بشر المنازل . . . فرأب الله به
الثأى . ولألم به الصدع . ورتق به الفتق . وأمن به السبل . وحقن
به الدماء . وقطع به العداوة الواغرة في القلوب . والضغائن المخشنة
للصدور . ثم قبضه الله عز وجل مشكوراً سعيه . مرضياً عمله .
مغفوراً ذنبه . كريماً عند ربه نزله . فيالها مصيبة عمت المسلمين .
وخصت الاقربين . وولى ابو بكر فسار بسيرة رضيها المسلمون . ثم
ولى عمر فسار بسيرة ابي بكر رضي الله عنهما . ثم ولى عثمان فنال
منكم ونالتم منه حتى اذا ما كان من امره ما كان ايتموه فقتلتموه .
ثم ايتموني فقتلتم لي : بايعنا . فقلت لكم لا افعل . وقبضت يدي
فبسطتموها . ونازعتم كفي فحذبتموها وقلم : لا نرضى الا بك .
ولا نجتمع الا عليك . وتداكمكم علي تذاك الابل الهيم على
حياضها يوم ورودها . حتى ظننت انكم قاتلي وان بعضكم قاتل
بعض . فبايعتموني وبايعني طلحة والزبير ثم ما لبثا ان استأذنا
للعمره فسارا الى البصرة فقتلا بها المسلمين . وفلا الافاعيل وهما
يعلمان والله اني لست بدون واحد ممن مضى . ولو اشاء ان اقول
لقلت اللهم انهما قطعاً قرايتي . ونكثا بيعتي والبا علي عدوي .
اللهم فلا تحكم لهما ما ابرما . وارهما المساءة عملاً وأملاً

خطبة لمعاوية بن ابي سفيان

كان معاوية اول خلفاء الدولة الاموية وقد توفي سنة ٦٠ هـ . الموافقة لسنة
٦٨٠ م . وكان « مربي دول وسائس امم وراعي ممالك » ويحكى انه لما حضرته
الوفاة جمع اهله فقال : الستم اهلي . قالوا : بلى فذاك الله بنا . قال : فهذه
نفسى قد خرجت من قديم فردوها علي ان استطعتم . فبكوا وقالوا : مالنا الى
هذا سبيل . فرفع صوته بالبكاء ثم قال : فلا تغرم الدنيا بعدي

قال القحذي: لما قدم معاوية المدينة عام الجماعة تلقاه رجال قريش . فقالوا : الحمد لله الذي اعز نصرك وأعلى كعبك . قال : فو الله ما رد عليهم شيئاً حتى صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

فأني والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم ولا مسرة بولايتي . ولكنني جالدتكم بسيفي هذا مجالدة . ولقد رضت لكم نفسي على عمل بن ابي قحافة واردها على عمل عمر فنفرت من ذلك نفاراً شديداً . وأردتها على ثنيات عثمان فابت علي . فسلكت بها طريقاً لي ولكم فيه منفعة : مؤاكلة حسنة ومشاركة جميلة . فان لم تجدوني خيركم فاني خير لكم ولاية . والله لا احمل السيف على من لا سيف له وأن لم يكن منكم الا ما يستشفي به القائل بلسانه . فقد جعلت ذلك له دبر اذني وتحت قدمي . وان لم تجدوني اقوم بحقوقكم كله فاقبلوا مني بعضه فان انا كم مني خير فاقبلوه . فان السيل اذا جاء يترى . وان قل اغنى . واياكم والفتنة فانها تفسد المعيشة وتكدر النعمة

خطبة اخرى لمعاوية

صعد منبر المدينة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

يا أهل المدينة . اني لست أحب أن تكونوا خلقاً كخلق العراق يعيبون الشيء وهم فيه . كل امرئ منهم شيعته نفسه . فاقبلونا بما فينا فأن ما وراءنا شر لكم . وان معروف زماننا هذا منكر زمان قد مضى ومنكر زماننا معروف زمان لم يات . ولو قد اتى فالرتق خير من الفتق . وفي كل بلاغ . ولا مقام على الرزية

خطبة اخرى لمعاوية

لما مرض معاوية مرض وفاته قال لمولى له : من بالباب . قال : نفر من قريش يتباشرون بتوبك . قال : ويحك لم ؟ فوالله ما لهم بعدي الا النبي يسوءهم . وأذن للناس فدخلوا . فحمد الله وأثنى عليه واوجز . ثم قال :

أيها الناس . انا قد أصبحنا في دهر عتود وزمن شديد . يعد فيه المحسن مسيئاً ويزداد الظالم فيه عتواً . لا ننتفع بما علمنا . ولا نسأل عما جهلنا ولا نتخوف قارعة حتى تحل بنا . فالناس على اربعة أصناف منهم من لا يمنع من الفساد في الارض الا مهانة نفسه . وكلال حده ونضيض وفره . ومنهم المصلت لسيفه المجلب برجله المعلن بسره . وقد اشترط نفسه وأوقى دينه . لحطام ينتهزه أو مقت يقيوده ولبئس المتجران تراهما لنفسك ثمناً . وبمالك عند الله عوضاً . ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة . ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا . قد طامن من شخصه وقارب من خطوه . وشر عن ثوبه وزخرف نفسه للامانة . واتخذ ستر الله ذريعة الى المعصية . ومنهم من أقعده عن طلب الملك ضؤولة نفسه وانقطاع سببه . فقصرت به الحال عن حاله . فتحلى باسم القناعة وتزيا بلباس الزهادة . وليس ذلك في مراح ولا مفدى . وبقى رجال اغض ابصارهم ذكر المرجع . وأراق دموعهم خوف المضجع . فهم بين شريد باد وبين خائف منقمع وسأكت مكوم . وداع مخلص وموجع ثكلان قد أخلتهم التقية . وشملتهم الذلة . فهم في بجراجاج أفواههم ضامرة وقلوبهم قرحة . قد وعظوا حتى ملوا . وقهروا حتى ذلوا . وقتلوا حتى قلاوا . فلتكن الدنيا في أعينكم أصغر من حثالة

القرط وقرادة الحلم . واتعذوا بن كان قبلكم قبل أن يتعظ بكم من بعدكم . وارفضوها ذميمة فقد رفضت من كان اشفق بها منكم

خطبة لزياد بن ابيه

كان زياد داهية من دهاة العرب ولم يكن يعرف له أب فاستلحقه معاوية ابن ابي سفيان بأسرته وادعى انه اخوه وولاه الولايات فخلص له الخدمة وقتك بشيعة علي وجعل يتعقبهم في أنحاء ولايته . وقد مات سنة ٥٣ هـ (٦٧٤ م) قيل أن معاوية ولاه البصرة وخراسان وسجستان . والفسق بالبصرة ظاهر فاش . فخطب خطبة بتراء لم يحمد الله فيها قال فيها :

أما بعد فإن الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء والعمى الموفى باهله على النار ما فيه سفهاؤكم وتشتمل عليه حلمائكم من الامور العظام نبئت فيها الصغير ولا يتحاشى عنها الكبير . كأنكم لم تقرأوا كتاب الله . ولم تسمعوا لما اعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته . والعذاب العظيم لأهل معصيته في الزمن السرمدي الذي لا يزول . أتكونون كمن طرفت عينه الدنيا . وسدت مسامعه الشهوات . واختار الفانية على الباقية . ولا تذكرون انكم أحدثتم في الاسلام الحدث الذي لم تسبقوا اليه من ترككم هذه المواخير المنصوبة . والصفقة المسلوقة . في النهار المبصر . والعدد غير قليل . ألم يكن منكم نهاية تمنع العواة عن دج الليل وغارة النهار . . . كل امرئ منكم يذب عن سفهه : صنيع من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معاداً . ما أنتم بالعلماء ولقد اتبعتم السفهاء . فلم يزل بكم من قيامكم وونهم حتى انتهكوا حرم الاسلام . . . حرام على الطعام والشراب حتى أسويها بالارض هدماً واحراقاً .

اني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح الا بما يصلح به اوله : لين في غير ضعف وشدة في غير عنف . واني اقسم بالله لا اخذن الولي بالولي والمقيم بالطاعن . والمقبل بالمدير . والصحيح بالسقيم حتى يلتقي الرجل منكم اخاه فيقول : انج سعيد فقد هلك سعد . أو تستقيم لي قناتكم . ان كذبة الامير تلفي مشهورة . فاذا تعلقتم علي بكذبة فقد حلت لكم معصيتي

من نقب منكم عليه فانا ضامن لما ذهب له . فاي اي ودلج الليل فاني لا اوتي بمدلج الا سمنكت دمه . وقد أجلتكم في ذلك بقدر ما ياتي اخبر الكوفة ويرجع اليكم . واي اي ودعوى الجاهلية . فاني لا أجد احداً دعا بها الا قطعت لسانه . وقد أحدثتم احداثاً لم تكن وقد احدثنا لكل ذنب عقوبة . فمن اغرق قوما اغرقناه . ومن احرق قوما أحرقناه . ومن نقب بيتاً نقبنا عن قلبه . وذن نبش قبراً دفناه فيه حياً . فكفوا عنى ألسنتكم وأيديكم اكف عنكم يدي ولساني . ولا يظهرون من أحد منكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم الا ضربت عنقه . وقد كانت بيني وبين قوم احن فجعلت ذلك درازني وتحت قدمي . فمن كان محسناً فليردد في احسانه . ومن كان مسيئاً فلينزع عن اساءته . اني وان علمت أن احداً قد قتله السل من بغضي لم اكشف له قناعاً ولم أهتك له ستر حتى يبدي لي صفحته فأن فعل لم أناظره . فاستأنفوا أموركم واعينوا على أنفسكم . قرب مبتئس بقدمونا سيسر . ومسروور بقدمونا سيبتئس .

(ايها الناس انا أصبحنا لكم ساسة وعنكم دارة نسوسكم بسلطان الله الذي اعطانا . ونذود عنكم بفيء الله الذي حولنا . فلنا عليكم

السمع والطاعة في ما أحببنا ولكم علينا العدل في ما أولينا . فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا . واعلموا اني مهما أقصر فيه فلن أقصر عن ثلاث : لست محتجباً عن طالب حاجة ولو أنا في طارقاً بليل . ولا حابساً عطاءً ولا رزقاً . . . ولا مجبراً لكم بعنا فادعوا الله بالصالح لأئمتكم فانهم ساستكم المؤدبون لكم وكهفكم الذي اليه تأوون . ومتى يصلحوا تصلحوا . ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك أسفكم . ويطول له حربكم ولا تدرکوا حاجتكم مع انه لو استجيب لكم فيهم لكان شراً لكم . اسأل الله أن يعين كلا على كل . واذا رأيتموني انفذ فيكم امراً فانفذوه على اذلاله . وايم الله ان لي فيكم لصرعى كثيرة فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاي (مختصرة)

خطبة ليزيد بن معاوية

بويح ليزيد بالخلافة يوم مات ابيه معاوية وتوفي سنة ٦٤ هـ الموافقة لسنة ٦٨٣ م . وقد « تعلم الفصاحة ونظم الشعر في بادية بني كلب »
خطب بعد موت ابيه فقال :

الحمد لله الذي ما شاء صنع . من شاء اعطى ومن شاء منع . ومن شاء خفض ومن شاء رفع . ان امير المؤمنين كان حبلاً من حبال الله مده ما شاء أن يده . ثم قطعه حين أراد أن يقطعه . وكان دون من قبله . وخيراً ممن يأتي بعده . ولا أركيه عند ربه وقد صار اليه . فان يعف عنه فيرحمته . وان يعاقبه فبذنبه . وقد وليت بعده الامر . ولست اعتذر من جهل . ولا آسى على طلب علم

خطبة لخالد بن الوليد

كان خالد بن الوليد من المشهورين بالشجاعة والشرف والرياسة . سباه النبي « سيف الله » وحارب مسيلمة الكذاب وهدم العزى وله اثار مشهورة في قتال الروم والفرس وكانت وفاته في خلافة عمر سنة ٢١ هـ الموافقة لسنة ٦٤٣ م وقد خطب الخطبة التالية بين جيوشه يحضهم على القتال في اجنادين احدى نواحي فلسطين في معركة بين الروم والعرب قال :

يا معاشر الناس انصروا الله ينصركم . وقتلوا في سبيل الله واحتسبوا انفسكم في سبيل الله واصبروا على قتال أعدائكم . وقتلوا عن حريءكم وأولادكم ودينكم . وليس لكم ملجأ تلجأون اليه وممكن تكمنون فيه . فاقربوا المناكب وقدموا المضارب . ولا تحملوا حتى آمركم بالحملة . ولتكن السهام مجتمعة اذا خرجت من القسي كأنها تخرج من كبد قوس واحد . فانه اذا تلاحقت السهام رشقاً كالجراد لم يخل أن يكون فيها سهم صائب . واصبروا وصابروا واتقوا الله لعلمكم تفلحون . واعلموا أنكم لا تلقون عدواً مثل هذه الفئة حماهم وأبطالهم وملوكهم

خطبة لطارق بن زياد

كان طارق بن زياد مولى موسى بن نصير عامل الوليد بن عبد الملك الخليفة الاموي في افريقية . وكان منزله القيروان . وحدث ان يوليان احد رجال الدين في اسبانيا كان حاقداً على الملك . فوضع حقه فوق وطنه . وارسل الى موسى فاستنجد به . فارسل اليه موسى طارقا . فعبر بجر العدو والتقى بالملك رودريق فتحاربا اياما وقتل الملك . وصارت الاندلس للعرب . وسمع موسى بخبر الفتح وحسد طارقا فعبر البحر في عشرة الاف فتلقاء طارق وترضاه فرضى عنه . وسار موسى بن نصير الى فرنسا وقطع جبال بيرنيه وبلغ كركونا . ثم

استرجعه الخليفة الوايد الى دمشق ونكبه ونفاه الى مكة فتوفي بها في سنة ٩٧ هـ الموافقة لسنة ٧١٨ م . وكان فتح طارق للاندلس في سنة ٧١١ م وكان خروج المسلمين من الاندلس سنة ١٤٩٣ م

لما بلغ طارقا دنو رودريق قام في اصحابه فحمد الله واثنى عليه بما هو اهلهم ثم حث المسلمين على الجهاد ورغبهم ثم قال :

ايها الناس اين المفر . البجر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله الا الصديق والصبر . واعلموا انكم في هذه الجزيرة اضيع من الايتام في مادبة اللثام . وقد استقبلكم عدوكم بجيشه . واسلحته واقواته موفورة . وانتم لا وزر لكم الا سيوفكم . ولا اقوات الا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم . وان امتدت بكم الايام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ذهب ربحكم وتعوضت القلوب من رعبها عنكم الجرأة عليكم . فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من امركم بمناجزة هذا الطاغية . فقد القمت به اليكم مدينته الحصينة وان انتهز الفرصة فيه لممكن ان سمحتم لأنفسكم بالموت . واني لم احذركم أمراً انا عنه بنجوة ولا احميكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس الا وانا أبدأ بنفسي . واعلموا انكم ان صبرتم على الاشق قليلا استمتعتم بالارفة الالذ طويلا . فلا ترغبوا بانفسكم عن نفسي فما حظكم فيه باوفر من حظي . وقد بلغكم ما انشأت هذه الجزيرة من الخيرات العظيمة . وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك امير المؤمنين من الابطال عرباناً . ورضيكم الملوك هذه الجزيرة اصهاراً وأختاناً . ثقة منه بارتياحكم للطعان . واستباحكم بمجالدة الابطال والفرسان . ليكون حظكم منكم ثواب الله على اعلاء كلمته واظهار دينه بهذه الجزيرة . ولتكون بغيرها خالصة لكم من دونه ومن دون المؤمنين

سواكم . والله تعالى ولي أنجادكم على ما يكون لكم ذكراً في الدارين .
واعلموا اني أول مجيب الى مادعوتكم اليه . واني عند ملتقى الجمعين
حامل بنفسي على طاغية القوم لذريق فقاتله ان شاء الله تعالى .
فاحملوا معي فان هلكتم بعده فقد كفيتهم امره ولم يعوزكم بطل عاقل
تسندون اموركم اليه . وان هلكتم قبل وصولي اليه فاخلقوني في
عزيمتي هذه واحملوا بانفسكم عليه واكتفوا لهم من فتح هذه
الجزيرة بقتله

خطبة لعمر بن عبد العزيز

كان عمر بن عبد العزيز أحد خلفاء بني امية وكان عفيفاً زاهداً يميل الى
النسك والاعتكاف وكان يتحرى سيرة الخلفاء الراشدين وهو اول من فرض
لأبناء السبيل وابطل في الخطب سب علي بن ابي طالب . وكانت خلافته من
سنة ٧١٧ الى سنة ٧٢٠ م . وقيل انه مات مسموماً دس له الامويون سماً
خشية ان يعيد الخلافة شورى بين المسلمين فتخرج من ايديهم . ومن خطبه
هذه الخطبة التي القاها في خلافة :

أيها الناس . انكم لم تخلقوا عبثاً ولم تتركوا سدى . وان لكم
معاداً يحكم الله بينكم فيه . نخاب وخسر من خرج من رحمة الله
التي وسعت كل شيء وحرم جنة عرضها السموات والارض .
واعلموا ان الامان غدا لمن يخاف اليوم وباع قليلاً بكثير وفانياً
بباق . الا ترون انكم في أصلاب الهالكين . وسيخلقها من بعدكم
الباقون حتى يردوا الى خير الوارثين . انكم في كل يوم تشيعون
غداً ورأحاً الى الله قد قضى نحبه وبلغ أجله . ثم تنبئونه في صدع
من الارض . ثم تدعونه غير موسد ولا ممد . قد خلع الاسباب
وفارق الاحباب . وواجه الحساب . غنياً عما ترك فقيراً الى

ما قدم . وإيم الله اني لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد منكم أكثر مما عندي . وأستغفر الله لي ولكم . وما تباغنا حاجة يتسع لها ما عندنا الا سدودناها . ولا أحد منكم الا وددت ان يده مع يدي ولحمي الذين يلونني حتى يستوي عيشنا وعيشكم . وإيم الله اني لو اردت غير هذا من عيش أو غضارة لكان اللسان به ناطقا ذلولا عالماً بأسبابه . ولكنه مضي من الله سنة عادلة دل فيها على طاعته ونهى عن معصيته

خطبة لقطري بن الفجاءة

كان قطري أحد رؤوس الخوارج الذين كانوا يعدون خلفاء بني أمية وعلي ابن أبي طالب مختصين للخلافة فلم تكن عليهم لهم طاعة . وكانوا يولون خلفاءهم بانفسهم . فكان قطري أحد خلفائهم . وكان يجمع بين الشجاعة والبلاغة . وكان الحجاج بن يوسف الثقفي يسير اليه جيشاً بعد جيش فيعود بالهزيمة . ولم نزل الحال كذلك حتى توجه اليه سفيان بن الأبرد فظهر عليه وقتله سنة ٧٨ هـ الموافقة لسنة ٦٩٨ م

وهذه الخطبة ينسبها جامع « نهج البلاغة » الى علي بن أبي طالب كما هي عادته في نسبة كل ما يستجده من الخطب والكلام البارع اليه حتى بلغ به الشطط أن نسب أكثر الحكم اليونانية المشهورة اليه قال قطري :

أما بعد فأني احذركم الدنيا فانها حلوة خضرة حفت بالشهوات وراقت بالقليل . وتجلببت بالعاجل وغمرت بالامال . وتحملت بالاماني وزينت بالغرور . لا تدوم زهرتها ولا تؤمن فجعتها . غرارة ضرارة . وحائلة زائلة . ونافذة بائدة . لا تعدو اذا تناهت الى أمنية أهل الرغبة فيها والرضا بها أن تكون كما قيل : كياء أنزلناه فاختلط به نبات الارض فاصبح هشياً . مع ان امرأ لم يكن منها في حبرة الا

اعقبته بعدها عبرة . ولم يلق من سرأها بطناً . الا منحتته من ضرائها
 ظهراً . ولم تطله منها ديمة رخاء . الا هطلت عليه مزنة بلاء . وحري
 اذا اصبحت له منتصرة ان تسمي له خاذلة متسكرة . وان جانب منها
 اعذوذب واحلولى أمر عليه منها جانب فأوبا . وان لبس امرؤ من
 غضارتها ورفاهيتها نعماً أرهقته من نوائبها غمماً . ولم يمس امرؤ منها
 في جناح أمن الا أصبح منها في قوادم خوف . غرارة غرور ما فيها
 باقية . فان ما عليها . لا خير في شيء من زادها الا التقوى .
 من أقل منها استكثر مما يؤمنه . ومن استكثر منها لم يدم له . وزال
 عما قليل عنه . . . كم واثق بها قد فجته وذي طمأنينة اليها قد
 صرعه . وكم من محتال بها قد خدعته . وكم ذي أبهة فيها قد صيرته
 حقيراً وذي نخوة فيها قد ردته ذليلاً . وذي تاج قد كبته لليدين
 والنفم . سلطانها دول . وعيشها رنق . وعذبها أجاج . وحلوها مر .
 وغذاؤها سمام . وأسبابها زحام . وقطافها سلع . حيها بعرض موت
 وصحيحها بعرض سقم . ومنيعها بعرض اهتضام . مليكها مسلوب .
 وعزيزها مغلوب . وسليمها منكوب . وجارها وجامعها محروب .
 مع ان من وراء ذلك سكرات الموت وزفراته وهول المطلع والوقوف
 بين يدي الحكم العدل . ليجزي الذين أساءوا بما عملوا . ويجزي
 الذين أحسنوا بالحسنى . الستم في مساكن من كان منكم أطول
 أعماراً . وأوضح اثاراً . وأعد عديداً . وأكثف جنوداً . وأعتد
 عتادا . وأطول عماداً . تعبدوا الدنيا أي تعبد . وآثروها أي ايثار .
 وطمعوا عنها بالكره والصغار . فهل بلغكم ان الدنيا سمحت لهم نقساً
 بفدية . . . بل أرهقتهم بالقوادح وضععتهم بالنوائب وعفرتهم
 للمناخر . واعانت عليهم ريب المنون وأرهقتهم بالمصائب . وقد

رأيتم تنكرها لمن دان لها وآثرها وأخذ اليها . حتى ظمنوا عنها
 لعراق الابد الى آخر الامد . هل زودتهم الا الشتماء واحاسنهم الا
 الضنك . او نورت لهم الا الظلمة . واعتبتهم الا الندامة . افهذه
 تؤثرون . أو على هذه تحرصون . او اليها تطمئنون . فبئست الدار
 لمن لم يهتمها ولم يكن فيها على وجل منها . اعلموا - وانتم تعلمون -
 انكم تاركوها الابد . فانما هي امب وهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر
 في الاموال والاولاد . فاتعظوا فيها بالذين يبنون بكل ربع آية
 تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون . وبالذين قالوا : من أشد
 مناقرة . واتعظوا بمن رأيتم من اخوانكم كيف حملوا الى قبورهم
 فلا يدعون ركباناً . وانزلوا فلا يدعون ضيفاناً . وجعل لهم من
 الضريح اكنان . ومن التراب اكنان . ومن الرفات جيران .
 فهم جيرة لا يحيبون داعياً ولا يمنعون ضيماً . ان اخصبوا لم يفرحوا .
 وان قحطوا لم يقنطوا . جمع وهم آحاد . جيرة وهم أبعاد . متناؤون
 وهم زارون ولا يستزيرون . حلاء قد ذهبوا ضيفانهم . وجبلاء
 قد ماتت أحمادهم . لا يخشى فجعهم . ولا يرجى دمعهم . وهم كمن لم
 يكن . استبدلوا بظهر الارض بطناً وبالسعة ضيقاً وبالآل غربة
 وبالنور ظلمة . فجاؤوها حنفاة عراة فرادى غير ان ظمنوا
 باعمالهم الى الحياة الدائمة . الى خلود الابد . فاحذروا ما حذركم الله
 واتقوا بما وعظه واعتصموا بحبله . عصمنا الله واياكم بطاعته
 ورزقنا واياكم اداء حقه

خطبة للحجاج

كان الحجاج بن يوسف الثقفي عامل الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان على العراق وخراسان وتوفي سنة ٩٧ هـ . الموافقة لسنة ٧١٦ م . وكان شرس الطبع سفاكا للدماء . ولم يكن يخجل من الجهر بأن اكبر لذاته سفك الدماء . وهو الذي بنى مدينة واسط وينسب اليه وضع علامات للحروف المشبهة في الخط العربي حتى لا يقع تصحيف في القرآن . ولولاه لاستفح امر الخوارج فهو الذي خضع شوكتهم بما أرسله عليهم من الجيوش تلو الجيوش ومما يحكى عنه انه قال في احدى خطبه : « سوطي سيني ونجاده في عنني وقامته في يدي وذبابه قلادة لمن اعتر بي » . وكان الحسن حاضراً فقال : « بؤسا لهذا ما اغره بالله »

خطاب بين اهل العراق فقال :

يا أهل العراق ان الشيطان قد استبطنكم خالط اللحم والدم والعصب والمسامع والاطراف والاعضاء والشغاف . ثم مضى الى الاخاخ والاصماخ . ثم ارتفع فعشش ثم باض وفرخ . فحشاكم شقاقا ونفاقا... اتخذتموه دليلا تتبعونه وقائدا تطيعونه ومؤمرا تستشيرونه وكيف تنفعكم تجربة أو تعظمكم وقعة أو يحجزكم اسلام أو يردكم ايمان . الستم أصحابي بالاهواز . حيث رمتهم المكر وسعيتهم بالغدر واستجهمتم للكفر . وظننتم أن الله يخذل دينه وخلافته . وانا ارميكم بطرفي وأنتم تتسللون لوإذا وتمهزمون سراعا . يوم الزاوية وما يوم الزاوية . بها كان فشلكم وتنازعكم وتخاذلكم وبراءة الله منكم ونكوص وليه عنكم إذ وليتم كالابل الشوارد الى أوطانها . النوازع الى أعطانها . لا يسأل المرء منكم عن اخيه . ولا يلوي الشيخ على بنيه . حتى عضكم السلاح وقصمتكم الرماح . يوم دير الجاجم وما دير الجاجم . إنما كانت المعارك والملاحم . بضرب يزيل

الهوام عن مقيله . و يذهل الخليل عن خليله . يا أهل العراق . والكفرات الفجرات والغدرات بعد الخترات والثورة بعد الثورات . . . هل استخفكم ناكث واستغواكم غاو واستفزكم عاص واستصرحكم ظالم واستعضدكم خالع الا وثقتموه وآو يثتموه وغررتموه ونصرتموه ورضيتموه . يا أهل العراق . هل شغب شاغب أو نعب ناعب أو نعق ناعق أو زفر زافر الا كنتم اتباعه وأنصاره . يا أهل العراق . ألم تنهكم المواعظ . ألم نزعركم الوقائع

خطبة اخرى للحجاج

خطب بالبصرة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

ان الله كفانا مؤونة الدنيا وأمرنا بطلب الآخرة . فليته كفانا مؤونة الآخرة وأمرنا بطلب الدنيا . ما لي أرى علماءكم يذهبون وجهالكم لا يتعلمون . وشراركم لا يتوبون . ما لي أراكم تحرصون على ما كفيتهم وتضيعون ما به أكرمتهم . ان العلم يوشك أن يرفع . ورفعته ذهاب العلماء . الا وانى اعلم بشراركم من البيطار بالقرس . الذين لا يقرأون القرآن الا هجراً . ولا يأتون الصلاة الا درأ . الا وأن الدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر . الا وأن الآخرة أجل مستأخر يحكم فيها ملك قادر . الا فاعملوا وانتم من الله على حذر . واعلموا انكم ملاقوه ليجزي الذين اساءوا بما عملوا . ويجزي الذين احسنوا بالحسنى . الا وان الخير كله بمخذافيه في الجنة . الا وأن الشر كله بمخذافيه في النار . الا وان من يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره . واستغفر الله لي ولكم

خطبة أخرى للحجاج

خرج الحجاج يريد العراق والياً عليها في اثني عشر راكباً على النجائب حتى دخل الكوفة حين انتشر النهار . وقد كان فشا امر الخوارج وتفاقم . وتناقل الناس عن اللحاق بالهلب الذي كان يناجزهم . فصعد المنبر وهو ملثم بعمامة حمراء . فقال : علي بالناس ، فحسبوه واصحابه خوارج فهموا به . حتى اذا اجتمع الناس قام ثم كشف عن وجهه وقال :

انا ابن جلا وطلاع الثنايا متى اضع العمامة تعرفوني
صليب العود من سلفي نزارا كنصل السيف وضاح الجبين
وماذا تبتني الشعراء مني وقد تجاوزت حد الاربعين
اخو خمسين مجتحم اشدي وتنجدني مداورة الشؤون

. . أما والله اني لأحمل الشر بحمله واحذوه بنعله واجزيه بمثله . واني لأرى رؤساً قد أينعت وحان قطافها . واني لصاحبها واني لأنظر الدماء بين العمام واللقى تترقرق :

قد شمرت عن ساقها فشمري هذا أوان الحرب فاشتدي زيم
قد لفها الليل بسواق حطم ليس براعي ابل ولا غنم
ولا بجزار على ظهر وضم

قد لفها الليل بعصلي اروع جراح من الدوى
مهاجر ليس باعراني

قد شمرت عن ساقها فشدوا ما علي وانا شيخ اد والقوس فيها وتر عرد مثل ذراع البكر أو اشد اني والله يا أهل العراق ومعدن الشقاق والنفاق ومساويء الاخلاق . لا يفمز جانبي كتمهاز التنين . ولا يقعقع لي بالشان . ولقد فرزت عن ذكاء . وفقتشت عن تجربة . واجريت مع الغاية .

وان امير المؤمنين نثر كنانته ثم عجم عيدانها . فوجدني امرها عودا
واشدها مكسراً . فوجهني اليكم وربما كم بي . فانه قد طالما اوضعتم
في الفتن . وسدنتم سنن النفي . وايم الله لالحونكم لحو العصا .
ولأقرعنكم قرع المروة . ولأعصبنكم عصب السلمة . ولأضربنكم
ضرب غرائب الابل . اما والله لا اعد الا وفيت . ولا اخلف
الا فريت . وإياي وهذه الزرافات والجماعات . وقال وقيل . وما
يقولون وفيهم أنتم . والله لتستتبسن على طريق الحق أو لأدعن
لكل رجل منكم شغلا في جسده . من وجدته بعد ثلاثة من بعث
المهلب سفكت دمه وانتهبت ماله وهدمت منزله

خطبة لابي حمزة

في اواخر الدولة الاموية خرج عبد الله بن يحيى وكان من حضرموت فانكر
طاعة خلفاء بني امية « لانه رأى جورا ظاهراً وعسفاً شديداً وسيرة في الناس
قيحة » فدعا الناس الى مبايعته . فبايعوه . وكان من أشد أنصاره رجل يدعى
ابا حمزة . فجيش الجيوش وفتح مكة والمدينة . وفتح ابو حمزة المدينة في سنة
١٣٠ هـ . وخطب اهلها الخطبة التالية :

يا أهل المدينة سألناكم عن ولاتكم هؤلاء . فأسأتم لعمر الله
فيهم القول . وسألناكم : هل يقتلون بالظن ؟ فقلتم : نعم . وسألناكم :
هل يستحلون المال الحرام والفرج الحرام ؟ فقلتم : نعم . فقلنا لكم :
تعالوا نحن وأنتم . ففناشدهم الله أن يتنحوا عنا وعنكم ليختار
المسلمون لانفسهم فقلتم لا تفعلون . فقلنا لكم : تعالوا نحن وأنتم
نلتفاهم . فإن نظهر نحن وأنتم نأت بمن يقيم فينا كتاب الله وسنة نبيه
وان نظفر نعدل في أحكامكم ونحملكم على سنة نبيكم . ونهـ

فيئكم بينكم . فان أبيتُم وقالتُمونا دونهم قاتلناكم . فابعدم الله
واسحقكم يا أهل المدينة . مرت بكم في أزمان الاحول هشام
ابن عبد الملك وقد أصابتكم عاهة في ثماركم فركبتم اليه تسالونه ان
يضع خراجكم عنكم . فكتب بوضعها عنكم . فزاد الفني غنى وزاد
الفقير فقراً . فقلتم : جزاكم الله خيراً . فلا جزاء الله خيراً
ولا جزاكم

خطبة أخرى لأبي حمزة

خطب هذه الخطبة في اهل المدينة فحمد الله واثنى عليه ثم قال :

أتعلمون يا أهل المدينة أنا لم نخرج من ديارنا وأموالنا أشراً ولا
بطراً ولا عبثاً ولا لهواً . ولا لدولة ملك نريد ان نخوض فيه .
ولا نأثر قديم نيل منا . ولكننا رأينا مصاييح الحق قد عطلت .
وعنف القائل بالحق . وقتل القائم بالقسط . ضاقت علينا الارض
بما رحبت . وسمعنا داعياً يدعو الى طاعة الرحمن وحكم القرآن .
فأجبنا داعي الله . ومن لا يجيب داعي الله فليس بمعجز في الارض .
فأقبلنا من قبائل شتى . نفر منّا على بهير واحد عليه زادهم وانفسهم .
يتعاورون لحافاً واحداً . قليلون مستضعفون في الارض . فأوانا الله
وايدنا بنصره . وأصبحنا والله بنعمته اخوانا . ثم لقينا رجالكم
بقديد . فدعوناهم الى طاعة الرحمن وحكم القرآن . فدعونا الى طاعة
الشیطان وحكم مروان وآل مروان . شتان لعمرك ما بين النبي
والرشد . ثم أقبلوا يهرعون ويذفون . قد ضرب الشيطان فيهم بجرانه
وغلت بدمائهم مراحله . وصدق عليهم ظنه . وأقبل أنصار الله

عصائب وكتائب . بكل مهند ذي رونق . فدارت رحانا واستدارت
 رحاهم بضرب يرتاب منه المبطلون . وأنتم يا اهل المدينة ان تنصروا
 مروان وآل مروان يسحقكم الله بعذاب من عنده أو بايدينا ويشف
 صدور قوم مؤمنين . يا اهل المدينة ان أولكم خير اول واخركم شر
 آخر . يا اهل المدينة . الناس منا ونحن منهم الا مشركا عابد وثن .
 أو كافراً من أهل الكتاب . أو اماماً جائراً . يا أهل المدينة . من
 زعم ان الله تعالى كلف نفساً فوق طاقتها ، أو سالها عما لم يؤتمها .
 فهو لله عدو ولنا حرب . . . يا أهل المدينة بلغني انكم تنتقصون
 أصحابي . قلتم هم شباب أحداث وأعراب جفافة . ويحكم يا اهل
 المدينة . وهل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الا شباباً
 أحداثاً ؟ شباباً والله . مكتهلون في شبابهم . غضبيضة عن الشر
 اعينهم . ثقيلة عن الباطل أقدامهم . قد باعوا أنفسهم بموت غدا .
 بانفس لا تموت أبداً . . . منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن .
 كلما مروا بآية خوف شهقوا خوفاً من النار . واذا مروا بآية شوق
 شهقوا شوقاً الى الجنة . فلما نظروا الى السيوف قد انتضيت والى
 الرماح قد أشرعت والى السهام قد فوقت . وارعدت الكتيبة
 بصواعق الموت . استخفوا وعيد الكتيبة عند وعيد الله . ولم
 يستخفوا وعيد الله عند وعيد الكتيبة . فطوبى لهم وحسن مآب .
 فكم من عين في منقار طائر طالما بكى بها صاحبها من خشية الله .
 وكم من يد قد ابينت عن ساعدها طالما اعتمد عليها صاحبها راعها
 وساجداً . أقول قولي هذا واستغفر الله من تقصيرنا وما توفيق
 الا بالله عمايه توكلت واليه أنيب

خطبة المنصور الخليفة العباسي

كان الخلفاء العباسيون يمتازون على خلفاء بني أمية بقرايتهم من النبي . وكانت هذه القراية سبباً في نعمة دينية يتباهون بها على سائر المسلمين . فكانوا يتكلمون بلهجة بابلوات رومية في القرون الوسطى . وكانوا يتأدون في الاتوقراطية لا يعرفون معنى للشورى او الدستور . وخطبة المنصور تدل القارىء على مبلغ عتو هذه الدولة وغرور خلفائها بنفوسهم كما هي ايضاً علامة من دلامات الزمن آذنت بانحطاط الدول العربية التي رضيت باستبدال خلفائها وقد بويع المنصور في سنة ١٣٦ هـ الموافقة لسنة ٧٥٤ م وتوفي في سنة ٧٧٥ م . وهو قاتل أبي مسلم الخراساني مؤسس الدولة العباسية وباني مدينة بغداد

خطب في مكة فقال :

ايها الناس انما انا سلطان الله في ارضه اسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأيمده . وحارسه على ماله اعمل فيه بمشيئته وارادته وأعطيته باذنه فقد جعلني الله عايله قفلاً . ان شاء أن يفتحني فتحتني لاعطائكم وقسم ارزاقكم . فان شاء أن يقفلني عليها اقفلني . فارغبوا الى الله وسلوه في هذا اليوم الشريف الذي وهب لكم من فضلة ما أعلمكم به في كتابه إذ يقول : « اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً » ان يوفقني للرشاد والصواب . وأن يلهمني الرأفة بكم والاحسان اليكم . أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم

خطبة الخليفة المهدي

لما توفي المنصور بويع لابنه المهدي وكان المهدي « شديداً على اهل الاحاد والزندقة لا تؤخره في اهلاكم لومة لائم » وقد حكم من سنة ٧٧٥ الى سنة ٧٨٥ م . والخطبة التالية اشهر ما يؤثر عنه

الحمد لله الذي ارتضى الحمد لنفسه ورضي به من خلقه .
واحده على الاله واحده لبلائه . . . واستعينه وأومن به وأتوكل
عليه توكل راض بقضائه وصابر لبلائه . اوصيكم عباد الله بتقوى
الله فان الاقتصار عليها سلامة . والتزك لها ندامة . واحتمك على
أجلال عظمته وتوقير كبريائه وقدرته . والاتهواء الى ما يقرب من
رحمته . وينجي من سخطه . وينال به ما لديه من كريم الثواب .
وجزيل المآب . فاجتنبوا ما خوفكم الله من شديد العقاب . واليم
العذاب . ووعيد الحساب : يوم توقفون بين يدي الجبار .
وتعرضون فيه على النار . يوم لا تتكلم نفس الا باذنه . فمنهم شقي
وسعيد . يوم يفر المرء من أخيه وأمه وبنيه . لكل امرئ يومئذ
شأن يغنيه . يوم لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل
ولا تنفعها شناعة ولا هم ينصرون . يوم لا يحجز والد عن ولده
ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً . ان وعد الله حق . فلا تغرنكم
الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور . فان الدنيا دار غرور وبلاء
وشرور . واضمحلال وزوال . وتقلب وانتقال . قد أنفت من
كان قبلكم وهي عائدة عليكم وعلى من بعدكم . من ركن اليها صرعه
ومن وثق بها خائته . ومن املها كذبه . ومن رجاها خذله .
عزها ذل . وغناها فقر . والسعيد من تركها والشقي من آثرها .
والمغبون فيها من باع حظه من دار آخرته بها . فالله . الله . عباد
الله . والتوبة مة بمولة والرحمة مبسوطة . وبادروا بالأعمال الزكية
في هذه الايام الخالية قبل أن يؤخذ بالكمظم وتندموا فلا تنالون
الندم يوم حسرة وتأسف . وكآبة وتلهف . يوم ليس كالايام .
وموقف ضحك المقام

خطبة لهارون الرشيد

كان هارون الرشيد خامس الخلفاء العباسيين وكان « يبكي على نفسه وعلى اسرافه وذنوبه » و « له مناقب لا تحصى ومحاسن لا تسنق له وله اخبار في اللهو واللذات سامحه الله »

قال النهرواني : « اعلم ان مما يتحققه الداقل ان الدنيا دار الاكدار وان اخف الخلق بلاء والمأ الفقراء . وأعظم الناس تعباً وهماً وغماً هم الملوك والامراء . . . ان هارون الرشيد من اعقل الخلفاء العباسيين وأكملهم رأياً وتديباً وفطنة وقوة واتساع مملكة وكثرة خزائن بحيث كان يقول للسحابة : امطري حيث شئت فان خراج الارض التي تمطرين فيها يجيء الي وكان مع ذلك اتعهم خاطراً واشغلهم قلباً »

ولي الرشيد سنة ١٧٠ وتوفي سنة ١٩٣ هـ . (٧٨٦ - ٨٠٩ م)

وهذه احدى خطبه

الحمد لله الذي نحمده على نعمه . ونستعينه على طاعته . ونستنصره على اعدائه . ونؤمن به حقاً ونتوكل عليه مفوضين اليه . اوصيكم عباد الله بتقوى الله . فان في التقوى تكفير السيئات . وتضعيف الحسنات . وفوزاً بالجنة ونجاة من النار . وأحذركم يوماً تشخص فيه الابصار . وتبلى فيه الأسرار . يوم البعث ويوم التغابن ويوم التلاقي ويوم التنادي . يوم لا يستعتب من سيئة ولا يزداد في حسنة . يوم الآزفة . إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين . ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع . يعلم خافية الاعين وما تخفي الصدور . . . فاتقوا يوماً ترجعون فيه الى الله . ثم توفى كل نفس ما كسبت . حصنوا أيمانكم بالأمانة ودينكم بالورع وصلاتكم بالزكاة . . . واياكم والاماني فقد غرت واوردت وأوبقت كثيراً حتى اكذبتم منايهم .

فتناوشوا التوبة من مكان بعيد . وحيل بينهم وبين ما يشتهون .
فرغب ربكم عن الأمثال والوعود وقدم اليكم الوعيد . وقد رأيتم
وقائمه بالقرون الخوالي جيلاً فجيلاً . وعهدتم الآباء والأبناء والأحبة
والعشائر باختطاف الموت أيهم من بيوتكم ومن بين أظهركم لا تدفعون
عنهم ولا تحولون دونهم . فزالت عنهم الدنيا وانقطعت بهم الأسباب
فأسلمتهم الى أعمالهم عند الموائف والحساب . ليجزي الذين أساءوا
بما عملوا والذين أحسنوا بالحسنى

خطبة للمأمون

قال القاضي صاعد بن احمد الاندلسي : « ... ثم لما أنضت الخلافة فيهم الى
الخليفة السابع عبد الله المأمون بن هارون الرشيد تم ما بدأ به جده المنصور
فأقبل على طلب العلم في مواضعه . ودخل ملوك الروم صانته بما لديهم من كتب
الفلسفة . فبعثوا اليه منها ما حضروهم . فاستجاد لها مهرة التراجمة وكلفهم أحكام
نرجتها . فترجمت له على غاية ما أمكن . ثم حرض الناس على قراءتها ورغبهم في
تعلیمها . فكان يخلو بالحكماء ويأنس بمنظرهم ويلاند بمذاكرتهم . علماً منه
أن اهل العلم هم صفوة الله من خلقه ونخبته من عباده »

بويج له بالخلافة في سنة ١٩٨ هـ وتوفي في بعض غزواته ٢١٨ هـ (٨١٣ -

٨٣٣ م)

وهذه احدى خطبه النماها في الفطر

... الا وان يومكم هذا يوم عيد وسنة وابتهاال ورغبة .
يوم ختم به الله صيام شهر رمضان وافتتح به حج بيته الحرام .
فجعل أول ايام شهور الحج وجعله معقباتاً لمفروض صيامكم ومتقبل
قيامكم . فاطلبوا الى الله حوائجكم واستغفروه لتفريطكم . فانه
يقال : لا كثير مع ندم واستغفار . ولا قليل مع تئاد وادمرار ...
اتقوا الله عباد الله وبادروا الامر الذي لم يحضر الشك فيه أحداً

منكم . وهو الموت المكتوب عليكم . فانه لا يستقال بعده عثرة ولا تحظر قبله توبة . واعلموا انه لا شيء بعده الا فوقه ولا يعين على جرعه وعكره وكر به وعلى التبر وظلمته ووحشته وضيقه وهول مطالعه ومسألة ملكيه الا العمل الصالح الذي أمر الله به . فمن زلت عند الموت قدمه فقد ظهرت ندامته . وفاته استقامته . وردعا من الرجعة ما لا يجاب اليه وبذل من الفدية ما لا يقبل منه . فالله الله . عباد الله . كونوا قوماً سألوا الرجعة فأعطوها إذ منعها الذين طلبوها . فانه ليس يتمنى المتقدمون قبلكم الا هذا الأجل المبسوط لكم . فاحذروا ما حذركم الله منه . واتقوا اليوم الذي يجمعكم الله فيه . لوضع موازينكم ونشر صحفكم الحافظة لأعمالكم فلينظر عبد ما يضع في ميزانه مما ينقل به ومما يملئ في صحيفته الحافظة لما عليه . . . ولست أنهاكم عن الدنيا بأكثر مما نهتكم به الدنيا عن نفسها . فان كل ما بها يحذر منها وينهي عنها . وكل ما فيها يدعو الى غيرها . وأعظم ما رأته أعينكم من فجائعها وزوالها ذم الله لها والنهي عنها فانه يقول تبارك وتعالى : فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور . وقال : انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد . فانتفعوا بمعرفتكم بها وباخبار الله عنها . واعلموا أن قوماً من عباد الله أدركتهم عصمة الله . فحذروا مصارعها وجانبوا خدائعها . وآثروا طاعة الله فيها وادركوا الجنة بما يتركون منها

خطبة نحر الدين بن لقمان

لما بويغ بالخلافة للمستنصر بالله الخليفة العباسي المولود سنة ٥٨٨ والمتوفى سنة ٦٤ هـ (١١٩٣ - ١٢٤٢ م) سعد فخر الدين بن لقمان رئيس الكتاب منبراً فقرأ على الملك : **ظاهر تقليده السلطاني** وكان هذا التقليد من انشائه ومن هذا التقليد يرى القارىء ان الخلافة صارت وظيفة دينية . فكان الظاهر يمثل الحكومة والمستنصر يمثل الخلافة . واذا كان الظاهر قد حصل على سند شرعي لحكومته من المستنصر فان هذا ايضاً قد حصل على بقوة التي يدعم بها خلافته من الظاهر . وقد كانت الخلافة العباسية أرشكت على الزوال فاجاها الظاهر واستندم الخليفة اليه في مصر ويكاد الان ان يلح ارتباكاً من الخطيب في تمييزه بينهما ومعرفة التابع والمتبوع منهما . وفخر الدين هذا هو الذي اعتقل في بيته في المنصورة ملك الفرنسيين لويس التاسع . قال ابن لقمان :

الحمد لله الذي أضفى على الاسلام ملابس الشرف . وأظهر بهجة دره وكانت خافية بما استحکم عليهم من الصدف . وشيد ما وهى من علائه حتى انسى به ذكر من سلف . وقبض انصره ملوكاً اتفق عليهم من اختلف . أحمده على نعمه التي وقعت الاعين منها في الروض الأنف . والطافه التي وقف الشاكر عليها فليس له عنها منصرف

وبعد فأن اولى الاولياء بتقديم ذكره . وأحتمهم أن يصبح القلم راكماً وساجداً لتسطير مناقبه وبره . من سعى فاضحى سعيه للحمد متقدماً . ودعا الى ناعته فاجاب من كان منجداً ومتهماً . وما بدت يد في المكرمات الا كان لها زنداً ومعصماً . ولا استباح بسيفه حمى وغى . الا اضرم منه ناراً وأجرى دماً . ولما كانت هذه المناقب الشريفة مختصة بالمقام العالي المولوي السلطاني الملكي الظاهري الركني شرفه الله وأعلاه . ذكره الديوان العزيز المستنصري اعز

الله سلطانه تنويها بشريف قدره . واعترافا بصنيعه الذي تنفذ
 العبارة المسهبة ولا تقوم بشكره . وكيف لا وقد اقام الدولة العباسية
 بعد أن أقعدتها زمانة الزمان . وأذهبت ما كان لها من محاسن
 واحسان . وعتب دهرها المسيء لها فاعتب . وارضى عنها زمنها
 وقد كان صال عليها سهولة مغضب . فاعاد لها سائما بعد أن كان عليها
 حربا . وصرف اليها اهتمامه فرجع كل متضايق من امورها واسعا
 رحبا . ومنح امير المؤمنين عند القدوم عليه حنواً وعظماً . واطهر
 من الولاء رغبة في ثواب الله ما لا يخفى . وابدى من الاهتمام بامر
 الشريعة والبيعة أمراً لو رامه غيره لامتنع عليه . ولو تمسك بحبله
 متمسك لا ينقطع به قبل وصوله اليه . ولكن الله ادخر هذه الحسنة
 ليشقل بها ميزان ثوابه . ويخفف بها يوم القيامة حسابه . والسعيد
 من خفف من حسابه . فهذه منتهى أن الله الا أن يخلدها في صحيفة
 صنده . ومكرمة تضمنت لهذا البيت الشريف لجمه . بعد ان
 حصل الاياس من جمعه . وأمير المؤمنين يشكر لك هذه الصنائع .
 ويعترف انه لولا اهتمامك لاتسع الحرق على الراقع . وقد قلدك الديار
 المصرية والبلاد الشامية . والديار البكرية والحجازية واليمنية
 والفراية . وما يتجدد من الفتوحات غوراً ونجداً . وفوض امر
 جندها ورعاياها اليك حتى اصبحت بالمكارم فرداً . ولا جعل منها
 بلداً من البلاد ولا حصناً من الحصون يستثنى . ولا جهة من
 الجهات تعد في الاعلى ولا في الادنى فلاحظ امور الامة فقد
 اصبحت لها حاملا . وخلص نفسك من التبعات اليوم في غد تكون
 مسؤولا لا سائلا . ودع الاغترار بامر الدنيا فما نال احد منها طائلا .
 وما رآها احد بعين الحق الا رآها حائلا زائلا . فالسعيد من قطع

منها آماله الموصولة . وقدم لنفسه زاد التقوى فتقدمة غير التقوى
مردودة لامقبولة . وبسط يدك بالاحسان والعدل فقد امر الله بالعدل
وحدث على الاحسان . وكفر به عن المرء ذنوباً كتبت عليه واناما .
وجمل يوماً واحداً منها كعبادة العابد ستين عاماً . وما سلك احد
سبيل العدل الا واجتني ثماره من الافنان . ورجع الامر بعد
تداعي اركانه وهو مشيد الاركان . وتحصن به حوادث زمانه .
والسعيد من تحصن من حوادث الزمان . وكانت ايامه في الايام
ابهى من الاعياد . واحلى من العقود اذا حلى بها عاطل الاجياد .
وهذه الاقاليم المنوطة بك تحتاج الى نواب وحكام . واصحاب رأي
من اصحاب السيوف والاقلام . فاذا استعنت باحد منهم في امورك
فثق عليه تنقيها . واسأل عن احواله ففي يوم القيامة تكون عنه
مسؤولا وبما اجترم مطلوباً . ولا تول منهم الا من تكون مساعيه
حسناً لك لا ذنباً . وامرهم بالاناة في الامور والرفق . ومخالفة
لهوى اذا ظهرت ادلة الحق . وان يقابلوا الضمءاء في حوائجهم
بالنحر الباسم والوجه الطالق . وأن لا يعاملوا أحداً على الاحسان
والاساءة الا بما يستحق . وان يكونوا لمن تحت ايديهم من الرعايا
اخواناً . وأن يوسعوهم براً واحساناً . وأن لا يستحلوا حرمانهم اذا
استحل الزمان لهم حرماناً . فالاسلم أخو المسلم ولو كان اميراً عليه
وسلطاناً . والسعيد من نسج ولاته في الخير على منزله . واستسنوا
بسنته في تصرفاته واحواله . وتحملوا عنه ما تعجز قدرته عن حمل
أنقاله . ومما يؤمر به أن يمحوا ما أحدث من سيئ السنن .
وجدد من المظالم التي هي من أعظم الحزن . وأن يشتري بابطالها
الحامد رخيصة باغلى ثمن . ومهما جنى بها من الاموال فانما هي باقية

في الذمم حاصلة . واجبياد الخزائن وان أضحت بها حالية فانما هي على الحقيقة منها عاطلة . وهل أشقى ممن احتجب أثماً . واكتسب بالمساعي الذميمة ذماً . وجعل السواد الاعظم له يوم القيامة خصماً . وتحمل ظلم الناس في ما صدر عنه من أعماله وقد خاب من حمل ظلماً . وحقيق بالمقام الشريف المولوي السلطاني الملكي الظاهري الركني أن تكون ظالامات الانام مردودة بعده . وعزائمه تخفف ثقلها لا طاقة له بحمله . فقد أضحى على الاحسان قائداً . وصنعت له الايام ما لم تصنعه لغيره ممن تقدم من الملوك ان جاء اخرا . فحمد الله على ان وصل الى جانبك امام هدى اوجب لك مزية التعظيم . ونبه الخلائق على ما افضل الله به من هذا الفضل العظيم . وهذه امور يجب أن تلاحظ وترعى . وان يوالى عليها حمد الله . فان الحمد يجب عليها عقلاً وشرعاً . وقد تبين انك صرت في الامور أصلاً وصار غيرك فرعاً . ومما يجب ايضاً تقديم ذكره أمر الجهاد الذي اضحى على الامة فرضاً . وهو العمل الذي يرجع به مسود الصحائف مبيحاً . وقد وعد الله المجاهدين بالاجر العظيم . وأعد لهم عنده المقام الكريم . وبك صان الله حمى الاسلام من أن يبتذل . ويعزملك حفظ على المسلمين نظام هذه الدول . وسيفك أثر في قلوب الكافرين قروحاً لا تندمل . وبك يرجى أن يرجع من الخلافة ما كان عليه في الايام الأول . فايقظ لنصرة الاسلام جفناً ما كان غافياً ولا حاجباً . وكن في مجاهدة أعداء الله اماماً متبوعاً لا تابعاً . هداك الله الى مناهج الحق وما زلت مهتديا اليها والزملك المرشد ولا تحتاج الى تأنيبه عليها . والله ممدك باسباب نصره . ويوزعك شكر نعمه . فان النعمة تستتم بشكره

خطبة ابن الزكي

لما فتح صلاح الدين الايوبي بيت المقدس في سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٩ م) وكان قد مضى عليها نحو قرن وهي في ايدي الاوريين اهتز العالم الاسلامي باجمه . ورحل كثير من العلماء وذوي الوجاهة في البلاد الاسلامية لرؤية الاحتفال بفتحها ودخولها في طاعة صلاح الدين

واختار صلاح الدين الخطبة يوم الجمعة الاول من فتح المدينة القاضي محي الدين محمد بن علي المعروف بابن الزكي فارتق المنبر والقي هذه الخطبة التاريخية بين حشد من مسلمي جميع الاقطار العربية (وكات ولادته في ٥٥٠ هـ ووفاته في ٥٩٨ هـ بدمشق) . ونحن ننشر هذه الخطبة على غلو صاحبها في التعصب لكي يدرك القارئ منها ذهنية الناس في ذلك العهد وكيف كانوا يتطاحنون من أجل الدين - والدين لا يدعو الا الى التسامح . قال :

الحمد لله معز الاسلام بنصره . ومذل الشرك بتهره . ومصرف الأمور بامرہ . ومديم النعم بشكره . ومستدرج الكفار بمكره . الذي قدر الأيام دولاً ببدله . وجعل العاقبة للمتقين بفضله . وافاء على عباده من ظله . وأظهر دينه على الدين كله . الناهر فوق عباده فلا يمانع . والظاهر على خليفته فلا ينازع . والأمر بما يشاء فلا يراجع . والحاكم بما يريد فما يدافع . احمده على اظفاره واطهاره واعزازه لأوليائه . ونصره لأنصاره . وتطهير بيته المقدس من ادناس الشرك وأوغماره . حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر جهاره . وأشهد أن لا اله الا الله وحده . لا شريك له الاحد الصمد . الذي لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد . شهادة من طهر بالتوحيد قلبه . وارضى به ربه . وأشهد ان محمداً عبده ورسوله . رافع الشك ومدحض الشرك وماحق الأفك . الذي اسرى به من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى . وعرج به منه

الى السموات العلى الى سدرۃ المنتهى . عندها جنة المأوى ما زاع
 البصر وما طفى . صلى الله عليه وعلى خليفته ابى بكر الصديق
 السابق الى الايمان . وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب اول من رفع
 عن هذا البيت شعار الصلبان . وعلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان
 ذى النورين جامع القرآن . وعلى أمير المؤمنين علي بن ابى طالب
 منزل الشرك ومكسر الأوثان وعلى آله وصحبه والتابعين لهم باحسان .
 ايها الناس . ابشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى والدرجة
 العليا لما يسره الله على ايديكم من استرداد هذه الضالة من الأمة
 الضالة . وردھا الى مقرھا من الاسلام . بعد ابتذالھا في ايدي
 المشركين قريباً من مائة عام . وتطهير هذا البيت الذي اذن الله ان
 يرفع ويذكر فيه اسمه . واماطة الشرك عن طرفة . بعد ان امتد
 عليها رواقه واستقر فيها رسمه . ورفع قواعده بالتوحيد . فانه بنى
 عليه وشيد بنيانه بالتجديد . فانه اسس على التقوى من خلقة ومن
 بين يديه . فهو موطن ابيكم ابراهيم . ومعراج نبيكم محمد عليه السلام
 وقبلتكم التي كنتم تصلون اليها في ابتداء الاسلام . وهو مقر الأنبياء
 ومقصد الأولياء ومدفن الرسل ومهبط الوحي . ومنزل به ينزل
 الأمر والنهي . وهو في أرض المحشر وصعيد المنشر . وهو في الأرض
 المقدسة التي ذكرها الله في كتابه المبين . وهو المسجد الذي صلى
 فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالملائكة المقربين . وهو البلد
 الذي بعث اليه الله عبده ورسوله وكلمته التي القاها الى مريم .
 وروحه عيسى الذي كرمه برسالة . وشرفه بنبوته ولم يرحزحه عن
 رتبة عبوديته . فقال تعالى لن يستنكف المسيح أن يكون عبد الله
 ولا الملائكة المقربون . كذب العادلون بالله وضلوا ضلالاً بعيداً .

ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله إذن لذهب كل اله بما خلق ولعلنا بعضهم على بعض . سبحان الله عما يصفون . لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم (الى آخر الآيات من المائدة) . وهو أول القبلتين وثاني المسجدين وثالث الحرمين . لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا اليه . ولا تعقد الخناصر بعد الوطنين إلا عليه . فإولاً أنكم ممن اختاره الله من عباده . واصطفاه من سكان بلاده . لما خصكم بهذه الفضيلة التي لا يجاريكم فيها مجار . ولا يباريكم في شرفها مبار . فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم من المعجزات النبوية والوقعات البدرية والعزمات الصديقية والفتوحات العمرية والجيوش الثمانية والفتكات العلوية ما جددتم به للإسلام أيام القادسية والملاحم اليرموكية والمنازلات الخيرية والهجمات الخالدية . فجزاكم الله عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم افضل الجزاء . وشكر لكم ما بذلتموه من مهجكم في مآرعة الأعداء . وتقبل منكم ما تقر به به اليه من اهراق الدماء . وأثابكم الجنة فهي دار السعداء . فاقدروا رحمكم الله هذه النعمة حتى قدرها . وقوموا لله تعالى بواجب شكرها فله المنة عليكم بتخصيصكم لهذه النعمة وترشيحكم لهذه الخدمة . فهذا هو النتح الذي فتحت له أبواب السماء . وتبليجت بانواره وجوه الظلماء . وابتهج به الملائكة المقربون . وقرت به عيون الانبياء والمرسلين . فمن عليكم من النعمة بأن جعلكم الجيش الذي يفتح على يديه بيت المقدس في آخر الزمان . واليئد الذي يقوم بسيوفهم بعد فترة من النبوة أعلام الايمان . فيوشك أن يفتح الله على أيديكم أمثاله . وأن تكون التهانى لأهل الخضراء أكثر من التهانى لأهل الغبراء . ليس هو البيت الذي ذكره الله

في كتابه . ونص عليه في محكم خطابه . فقال تعالى سبحانه الذي
 اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى . اليس
 هو البيت الذي عظمته الملل . وأثنت عايه الرسل . وتليت فيه
 الكتب الاربعة المنزلة من الله عز وجل . اليس هو البيت الذي
 امسك الله تعالى لأجله الشمس على يوشع أن تغرب . وابعد بين
 خطوانها ليتيسر فتحه ويقرب . اليس هو البيت الذي أمر الله
 عز وجل موسى أن يامر قومه باستنقاذه . فلم يجبه الا رجلان .
 وغضب الله عليهم لأجله فالتفاهم في التيه عقوبة للعصيان . فاحدوا
 الله الذي أمضى عزائمكم لما نكلت عنه بنو اسرائيل . وقد فضلت
 على العالمين . ووفتمكم لما خذل فيه امم كانت قبلكم من الأمم
 الماضين . وجمع لأجله كلمتكم وكانت شقى . وأغناكم بما أمضته كان
 وقد عن سوف وحتى . فليهنكم ان الله قد ذكركم به في من عنده .
 وجعلكم بعد أن كنتم جنوداً لأهويتكم جنده . وشكر لكم الملائكة
 المنزلون على ما أهديتهم لهذا البيت من طيب التوحيد ونشر التقديس
 والتمجيد . وما أمعظتم عن طرقيهم فيه من اذى الشرك والتثليث
 والاعتقاد التاجر الخبيث . فالآن تستغفر لكم املاك السموات .
 وتصلي عليكم الصلوات المباركات . فاحفظوا رحمكم الله هذه
 الموهبة فيكم . واحرسوا هذه النعمة عندكم . بتقوى الله التي من
 تمسك بها سلم . ومن اعتصم بمرورها نجا وعصم . واحذروا من
 اتباع الهوى ومواقفة الردى . ورجوع النهم قرى والنكول عن
 العدا . وخذوا في انهاز الفرصة وازالة ما بقى من الغصة . وجاهدوا
 في الله حتى جهاده . وبعثوا عباد الله انفسكم في رضاه اذ جعلكم
 من خير عباد . واياكم أن يستزلكم الشيطان . او يتداخلكم

الطغيان فيخيل لكم ان هذا النصر بسيوفكم الحداد وخيولكم الجياد وبجلادكم في مواطن الجلال . لا والله ما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم . فاحذروا عباد الله بعد أن شرفكم بهذا الفتح الجليل والمنح الجزيل . وخصمكم بنصره المبين . واعلق ايديكم بحبله المتين . ان تقترفوا كبيراً من مناهيه وان تاتوا عظيماً من معاصيه . فتكونوا كالتي تقمضت غزها من بعد قوة انكاثا . وكالذي آتته آياتنا فانسلخ منها . فاتبعه الشيطان فكان من الفاوين . والجهاد . الجهاد . فهو من أفضل عباداتكم واشرف عاداتكم . انصروا الله ينصركم . احفظوا الله يحفظكم . اذكروا الله يذكركم . اشكروا الله يزدكم ويشكركم . جدوا في حسم الداء وقلع شافة الاعداء . وطهروا بنية الارض من هذه الانجاس التي اغضبت الله ورسوله . واقطعوا فروع الكفر واجتثوا اصوله . فقد نادى الايام بالثارات الاسلامية والملة المحمدية . الله اكبر . فتح الله ونصر . غلب الله وقهر . اذل الله من كفر . واعلموا رحمكم الله ان هذه فرصة فانهزوها . وفريسة ففاجزوها . وغنيمة فحوزوها . ومهمة فاخرجوها . فاعلموا هممكم وابرزوها وسيروا اليها سرايا عزماتكم وجهزوها . فالامور باواخرها . والمكاسب بذخايرها . فقد اظفركم الله بهذا العدو المخذول . وهم مثلكم اوزيدون . فكيف وقد اضحى قبالة الواحد منهم منكم عشرون . وقد قال الله تعالى ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين . وان يكن منكم مائة يغلبوا الفا من الذين كفروا بانهم قوم لا يفقهون . اعاننا الله واياكم على اتباع اوامره والازدجار بزواجه . وايدنا معاشر المسلمين بنصر من عنده . ان ينصركم الله فلا غالب لكم . وان يخذلكم فن ذا الذي ينصركم من

بُعد . ان اشرف مثال يقال في مقام . وانتد سهام تمرق عن قسى
الكلام . وامضى قول تجل به الافهام . كلام الواحد الفرد العزيز
العلام . قال الله تعالى واذا قرىء القرآن فاستمعوا له وانصتوا
لعلكم ترحمون

(ثم قرأ سورة الحشر) ثم قال :

اللهم وادم سلطان عبدك الخاضع لهيبتك . الشاكر لنعمتك .
المعترف بموهبتك . سيفك القاطع وشهابك اللامع . والمحامي عن
دينك المدافع . والذاب عن حرمك المانع . السيد الأجل الملك
الناصر . جامع كلمة الايمان . وقامع عبدة الصلابان . صلاح الدنيا
والدين . سلطان الاسلام والمسلمين . مطهر البيت المقدس . ابي
المظفر يوسف بن ايوب محيي دولة امير المؤمنين . اللهم عم بدولته
البسيطة . واجعل ملائكتك براياته محيطة . واحسن عن الدين
الحنيفي جزاءه . واشكر عن الملة المحمدية عزمه ومضاءه . اللهم ابق
للاسلام مهجته . وق للايان حوزته . وانشر في المشارق والمغرب
دعوته . اللهم كما فتحت على يديه البيت المقدس . بعد ان ظنت
الظنون وابتلى المؤمنون . فافتح على يديه داني الارض وقاصيها .
وملكه صياصي الكفر ونواصيها . فلا تلقاه منهم كتيبة الا مزقها .
ولا جماعة الا فرقها . ولا طائفة بعد طائفة الا احققها بمن سبها

اللهم اشكر عن محمد صلى الله عليه وسلم سعيه . وانتد في المشارق
والمغرب امره ونهيه . اللهم واصلح به اوساط الناس واطرافها
وارجاء المملكة واكنافها . اللهم ذلل به معاطس الكفار . وارغم
به انوف الفجار . وانشر ذوائب ملكه على الامصار . واثبت سرايا
جنوده في سبل الاقطار . اللهم اثبت الملك فيه وفي عقبه الى يوم

الدين . واحفظه في بنيه وبني ابيه الملوك الميامين . واشدد عضده
ببمائمهم . واقض باعزاز أوليائه وأوليائهم . اللهم كما اجريت على
يده في الاسلام هذه الحسنة . التي تبقى على الايام . وتتخذ على مر
الشهور والاعوام . فارزقه الملك الابدي الذي لا ينفد في دار المتقين .
واجب دعاءه في قوله رب اوزعني ان اشكر نعمتك التي انعمت
علي وعلى والدي وان اعمل عملا صالحا ترضاه . وادخلي برحمتك
في عبادك الصالحين . ا هـ

خطبة لاديب اسحق

ولد اديب اسحق في سنة ١٨٥٦ وتوفي في سنة ١٨٨٥ فلم يكد يبلغ
الثلاثين من العمر . « ومن احبته الآلهة مات صغيراً » . ومن يقرأ مخلفاته
الادبية يجد انه لم يكن يعيش ببطء وانما كان يسرع في العيش كأنه كان يحس
بقصر عمره فكان يقتني من التجارب الذهنية - وهي كل ثروة الاديب - في
العام الواحد مالا يستطيع غيره ان يقتنيه في اعوام .

قال عنه الشيخ اسكندر العازار صديقه يصفه انه كان « راية في علم اللسان
وآية في صناعة البيان وغاية في حب الانسان . وكان فتى لا كالفتيان . جريئاً في
الحق ما اخذته فيه لومة لائم وما رهب فيه وعيداً . . . عاش حر الضمير فكراً
وقولاً وعملاً . ومات حر الضمير فكراً وقولاً وعملاً . نشأ وطنياً خالصاً صحيحاً
وعاش جندياً لاشرف الاصول واسمى الغايات . واتفق في خدمتها من روحه
ما كان ينفخ في القلم من الروح . . . كان زهرة الادب في الشام وريحانة العرب
في مصر . وكان للوطنية نصيراً وبالانسانية بشيراً ولاعدائها نذيراً »

وقد اتى الخطبة التالية في جمعية زهرة الاداب وموضوعها التعصب
والتساهل . قال :

لقد جرى لفظ التعصب على السنة اهل الانشاء العربي بمعنى
الغلو في الدين والرأى الى حد التحامل على من خالفهما بشيء في
ما يدين وما يرى . واجريت هاهنا لنظ التساهل بمعنى الاعتدال

في المذهب والمعتقد على ضد ذلك الغلو متابعة للافرنج في لفظهم المعبر
عن هذا القصد (توليرانس)

ولا اجهل ان هذين الحرفين - لفظ التعصب ولفظ التساهل -
غير وافيين بالمراد منهما اصطلاحا وان في ايلاء الاول معنى الغلو في
الدين والرأي توسعا عظيما . وفي اشراب الثاني ضد ذلك المعنى خروجا
عن الحد اللغوي . ولكن الاصطلاح حكما ما اذا يسرق الالفاظ
الى المعنى الغريب فتنقاد . فاذا مرت عليها الايام . وصقلتها الالسنه
والاقلام . جاءت منطبقه عليه بلا الهام ولا ايهام

وحد التعصب عند أهل الحكمة العصرية غلو المرء في اعتقاد
الصحة بما يراه . واغراقه في استنكار ما يكون على ضد ذلك الرأي
حتى يحمله الاغراق والغلو على اقتياد الناس لرأيه بقوة ومنهم من
اظهار ما يعتقدون ذهابا مع الهوى في ادعاء الكمال لنفسه واثبات
النقص لمخالفيه من سائر الخلق

وحد التساهل عندهم رضى المرء برأيه اعتقاد الصحة فيه
واحترامه لرأي الغير كائناً ما كان رجوعاً الى معاملته الناس بما يريد
ان ياملوه فهو على اثباته الصواب لما يراه لا يتمتع بلزوم الخطأ
في رأي سواه . وعلى رغبته في تطرق رأيه للاذهان . لا يمنع الناس
من اظهار ما يعتقدون

فمن تبين هذين الحدين وكان بصيراً سليم العقل طليق الذهن من
أسرار الوهم حار لا شك في كثرة ما يراه من أهل التعصب على قلة من
يمر به من المتساهلين . وعجب وحق له العجب من بني نوعه كيف
يدخلهم التعصب في ما يعتقدون وما يرون . وقد عجزت افهامهم
عن ادراك الكثير من اسرار هذا الوجود . وقام لهم في كل حركة

وكل سكتة من أفكارهم دليل على امتناع الكمال على الانسان
وكان لهم في تنصب الاولين عبرة لو كانوا يعتبرون
الم يروا كيف تعاقبت المذاهب وتوالت الآراء . وتتابعت
قضايا العلوم الانسانية معدودة في عصورها من الحقائق وفي ما يلي
تلك العصور من الاوهام . ولا اذكر العقائد الدينية متسلسلة من
بونا الى زرادشت الى كونفرشيوس الى سائر دعاة الدين كراهة أن
يتوهم في قصدها بالذات . بل حسبي الاشارة الى تعاقب الوهم
والحقيقة والخطأ والصواب في قضايا العلم عبرة للمتعصبين

ألم يكن القول بسكون هاته الارض قضية مسلمة . و بدوران
الشمس من حولها حتمية معلومة . وبانقسام البسيطة نجمة أقاليم
علماء يقينا . أو لم يكن طب ابقراط الهلما . وفلسفة أرسططاليس
كشفا . وتعبير ابن سيرين حتما . فهاذا تقول عن الذين تعصبوا لهاته
الاوهام على من كان في ريب منها فالزموه الصمت والخسف .
وعاملوه بالشدة والعنف . حرصاً على ما يتوهمون من الحق والحق
بريء منهم لو يعلمون ؟

وانشد رجعت الى المحفوظ من أخبار الامم حتى بلغت الحد
الذي يدخل التاريخ منه في ظلمات الريب والخفاء . فما مر بي
جيل من الناس . ولا حتمة من الزمان . الا رأيت من اثار التعصب في
الدين والاراي ما ينتج عن له الصدر استنكافا . وتثور منه النفس
استنكارا . ثم عدت الى الفطرة الانسانية لاستكشاف العواطف
الطبيعية . فرأيت فيها من السذاجة والسلامة ما ينبغي على حكم
التساهل من كل الوجوه . فعلمت أن التعصب على قدم وجوده
حادث طارئ على الانسان . تولد عن مفاسد الرياسة في الجماعات .

وتأصل بالمعادة والتقليد حتى صار في النفوس من الملكات . يظهر ذلك لمن تدبر قدم التعصب في جنب خروجه عن الطباع . ويعلمه من تأمل احوال الرياسة في صدور هيئات الاجتماع ولعللي اوجزت واجملت والامر محتاج الى الايضاح والتفصيل . فاقول :

قد اجتمعت آراء المفكرين على ان الرياسة قد حصلت بدأة بدء للمتمولين او الاقوياء وفي الحالين لم يأمن الرؤساء على سطوتهم ان تزول بفقد الثروة او انحطاط القوة . فالنفس التبهاء منهم تايدها بما لا تؤثر فيه النوازل ولا يضعفه كروا الايام . فوضعوا للجماعات احكاماً ، كل رئيس وما توهم فيه المصلحة او ما رأى ميل قومه اليه . فرضى كل اناس مشربهم . وقالوا : هذا هو الحق الذي لا ريب فيه . وقال غيرهم من الاقوال : بل الحق ما نحن عليه فانهم في ضلال مبين . فوقعت بينهم الاحن . وشبت اعقابهم على العداوات . حتى قويت روابط الاوهام . فتقطعت صلات الارحام . فصار من الفضيلة ان يقتل الانسان اخاء ان خالفه في ما يراه . وامتلاّت رؤوس الخلق عناداً . ففلاّوا الارض فساداً . فعدت المظالم عدلاً وسميت المذابح جهاداً

ولا احوّل استيعاب المفاسد والنوائب التي نشأت عن التعصب في الدين والرأي . فذلك تاريخ الحروب والفتن والغارات والمهاجرات من صدر الاجتماع الانساني الى الماية السالفة في بلاد الغرب والى هذه الايام في بلاد الشرق . بل الغرب على انتشار

العلوم فيه وحصول الحرية لاكثر ساكنيه لم يخل الى الآن من آثار ذلك الداء العياء

نعم . لا نرى فيه الآن افراداً وجماعات من الناس يذوقون الوان العذاب ثم يقتلون صبراً شهداء ما يعبدون كما وقع لأهل النصرانية في دولة الرومان . ولا نجد ألوفاً من السكان المستأمنين يخرجون من ارضهم بالقوة او تهدر دماؤهم لاستمساكهم بما كان يعبد آباؤهم كما جرى لليهود في اسبانيا . ولا نبصر ديوان عقاب ونقمة يحكم بالتشهير والحرق والتعذيب والموت على من اتهم بالشك في رواية المجازيب عن بعض النساء عن بعض الاطفال كما كان ديوان التفتيش في كثير من ممالك الافرنج . ولا نلقى مئات الوف من نهاء الخلق الامناء الصادقين يبيتون في منازلهم ويؤخذون بالسيف تقتيلاً لمجرد انهم يفهمون من آي الكتاب خلاف ما يفهم غيرهم من الناس كما حل بالبروتستانت عام ١٥٧٢ في بلاد الفرنسيس . ولا نجد ايضاً جماعات من الخلق لا يستطيعون المنطق بما يعتقدون ولا الظهور بما يعبدون . ولا افراداً من الجاعة يعاقبون بالسجن او التبعيد لأنهم يأكلون البان حيوانهم ، في زوايا اكواخهم ، يوم يا كل ساداتهم الوان الأسماك الشهية . ويشربون معتقة الخمر في غرف القصور

نعم . لا نرى كل ذلك في الغرب الآن ولا نكاد نبصره في الكثير من اقطاره ماخوذاً بما اوضح من رايه وما اشاع من مذهبه وان خالف رأي الاكثرين . ولكن هذا انتساهل في الهيئات . ارسخ منه في الافراد الا الذين تطهروا من ادران التقليد وسلموا من علل الاوهام . وغالبوا الملكات الحاصلة عن العادات وترفعوا

الى مقام السذاجة الأعلى وقليل من هم
والا فما هذا الذي نراه من التحامل على بقايا آل اسرائيل
في بلاد الروس والامان . وما ذلك الذي مر بنا من مظاهر الاحن
بين الكاثوليك وغيرهم في تلك البلاد . وماذا الذي نسمع به الآن
من الخلاف والشقاق بين الشيع المتبانية في فرنسا وايطاليا
وبالجيك وغيرها من اعرق البلاد في التسهل والحرية
ألا أقص عليكم اخواني شيئاً مما تبين من محاكمة المتهمين
بلفتنة التي جرت منذ شهرين في بلدة منسولين بوطن الفرنسيين:
تبين من تلك المحاكمة ان اصحاب المعدن في تلك البلدة (والبلدة
عبارة عن المعدن والعاملين فيه) كانوا اذا رأوا من احد الفعلة فتوراً
في العبادة ، او ضعفاً في العقيدة التي يعتقدون ، ضربوا عليه الغرامة
اجرة يوم او يومين وما فوق . واذا ظهر عليه انحلال العقيدة
طرده من المعمل رأساً أي حكموا عليه بالفاقة وعلى عياله بالجوع .
واذا مات ذلك المنحل العقيدة فشيعة صاحب له من رفقاء اتعابه
الى القبر . عاقبوا المشيع بمثل هذا العقاب وهم في البلد الذي
افتدى أهله بدمائهم حرية السعي وحرية الرأي وحرية القول .
فما الظن بغيرهم من اهل سائر الاقطار . وما الظن بنا نحن الذين
كان من نعم الله علينا ان وجدت بلادنا المقدسة مهبطاً للوحي
ومقاماً للعتائد الدينية من عهد موسى صلوات الله عليه الى
هذه الايام

بل ما الظن بنا ونحن احرص الناس على تعاليم السلف الكرام
في ما لا يمس جانب النفع الأدبي ولا يتصل بطرف الفائدة الحسية
حتى ان معارف علمائنا في هذه الحقبة لتساكل باخرف معارف

آبائهم من ثلاثمائة عام ونحن بالضعف عما كانت عليه معارفهم من
الف عام . وما الظن بنا ومثلي متكلماً بهذا الموضوع في مثل هاته
الجمعية الزاهرة ، يخاف معاذ الله ان لا يجد لديكم استحساناً .
لا جرم انا أسعد خلق الله في أسعد بلاد الله . فالحمد لله ثم الحمد لله
وقد سبق القول في حد التساهل انه رضى المرء برأيه اعتقاد
الصحة فيه مع احترامه لرأي سواه . وهذا وان كان من الواجبات
البدئية . والقضايا المسلمة عند ذوي العرفان . الا انه لسوء الحظ
كثيره من سائر الواجبات ترشد الحكمة اليه . ولكن تغلب الشهوة
عليه . حتى لا يكاد يوجد في الانسان الا عند العجز عن مجاوزة
حده . لمجاوزة ضده . فهو كالحرية يشتاقيها الانسان مرئوساً .
وينكرها رئيساً . وكان زهادة يقبلها سقيماً وينبذها معافى سليماً .
فلا يثبت على تغير الاحوال الا عند ذوي النفوس الكريمة
والطباع القويمة وما هم بكثير

فلكم رأينا من فئة مستضعفين يطلبون التساهل ويدعون اليه
بكل لسان يثبتون له الوجود من كل الوجوه . فلما أن قامت
دولتهم . وقويت شوكتهم . وصار اليهم الامر والقوة . كانوا من
الغلاة المتعصبين . وهذه تواريخ العقائد الدينية والمذاهب الفلسفية
والطرائق السياسية في ما تعاقب عليها من القوة والضعف والقبول
والرفض شاهدة بصحة ما أقول . لا يقف النظر على صفحة منها
الا رأى التساهل في ضعفه . متمصباً يوم قوته . والمتلاين في حال
خسفه . متشدداً في دولته . ولذلك لم يرض الحكماء من التساهل
بان يكون صادراً من اللسان مراعاة لاحكام الضرورة او من
عاطفة القلب ميلاً الى المعاملة بالاحسان بل اوجبوا فيه الاعتقاد

بتحتمه على الانسان علما منهم بانه يكون في الحالة الاولى متعلق الوجود ببقاء تلك الضرورة . والضرورات قابلة الزوال . وفي الحالة الثانية يتوقف البقاء على وجود تلك العاطفة والعواطف لا تستقر على حال . ومثل هذا الواجب الادبي الحق لا ينبغي ان يناط بهانه الأسباب الواهية . وتلك العرى القرية الانحلال . وانما اللازم فيه تقييده بمبدأ متين من الحق . وتأنيده بعماد مكين من اليقين . بحيث يعلم مع مخالفه في ما يظهرون من آرائهم . وما يعلنون من مذاهبهم . انه لا يفعل ذلك رهبة منهم ان كانوا أقوياء . ولا شفقة عليهم ان كانوا ضعفاء . ولكن قياما بواجب من العدل والحق قال احد كتاب الفرنسيين في هذا الموضوع ما معناه :

« وجب التساهل على الانسان من ثلاث جهات : من جهة نفسه . ومن جهة ابناء جنسه . ومن جهة الحقيقة - والحقيقة هي الله »

فاما من جهة النفس فلائنه من واجباتنا الأدبية التماس العلم والحكمة في أي وعاء خرجا . واصلاح ما عسانا ان نكون عليه من الخطأ . وكيف يحصل لنا ذلك ان سدنا أفواه الناطقين ظلما واستبداداً . ولم نسمع ما يقولون لننظر في أقوالهم . فتَم آراءنا بآرائهم . قال فيكتور هيكو .

كل انسان كتاب يكتب الله سطره
ويقول العاجز :

وكذا البحث زناد قاذح للحق نوره
كيف لا وفي اقوال أحقر الناس وآراء اصغر الخلق عبرة
وفائدة وعلم جديد للمتاملين

وأما وجوب التساهل على الانسان من جهة حق الناس عليه فلان العدل الموجب للتكافؤ يلزمه بقبول ما يريد ان يقبله الناس منه سواء ولما كان اول واجباته الأدبية التماس الحق والصواب . وثانيها ايضاح ذلك الحق بالاقوال والاعمال كان من الظلم القبيح ان يمنع غيره من ابداء ما يظنه ذلك الغير صحيحا . ومن العسف المنكر ان يشوش عليه ما يلمس من الحق بالاغتصاب او الارهاب للمانعين من التفكير

وأما وجوب التساهل من الجهة الثالثة جهة الحقيقة الخالصة . فقد اثبتته العقل ولم تنفقه نصوص الأديان بل أيده في مواضع لا تعد . قال ترتليانوس الكلاسي : « ليس من البر ولا التقوى أن تسلب حرية الناس في أمور الدين فان الله سبحانه وتعالى منزه عن أن يريد ان يعبد اضطراراً »

وقال بوسيتيانوس القديس : « أشد ما يخالف الدين نكراً ان يحمل الناس عليه قهراً »

وفي : « لكم دينكم ولي دين » وفي : « لا تجادلوهم الا بالتي هي أحسن » بلاغ للمعتصرين

فالذين يلمسون الزلزال الى الله بالوعيد والتهويل . والذين لا يريدون ان يعبد الا كما يريدون . والذين يحاولون رسم آرائهم في القلوب والجباه بالحديد والنار . كل هؤلاء يفضيرون الله ويكفرون بالحق ولا يشعرون . فان الحقيقة ليست باجنبية ولا بعدوة لتأتي على كاهل المرء الزاماً . وانما نحن ضيوفها بالطبع فهي تقبل علينا وتقف لدينا لنطلبها عن رضى راغبين

وقال شيشرون خطيب الرومان : « انما نكون عبيد القانون
لنصير بالقانون أحراراً »

وفي الحديث الماثور : « كن للحق عبداً فبعد الحق حر » وقول
ذلك الخطيب الروماني ينطبق على ما نحن بصدده . فيقال فيه :
يجب أن نكون أحراراً لنخدم الحق كما يجب والحق هو الله
وهذا دعاء المتساهلين نجعله للمقام ختاماً : يا بديع الصفات .
اله جميع الموجودات . ما عرفناك حق معرفتك . ولا اهتدينا
بضياك لحكمتك . ألهمنا في أمورنا رشدًا . واسلك بنا سبيل
الهدى . لتعاون على احتمال النوائب الكثيرة . في هاته الحياة
القصيرة . ونعلم ان الخلاف الذي بين وقاء اجسامنا الضعيفة . وبين
لغتنا المتأصرة . وبين عاداتنا السخيفة . وبين أحكامنا الناقصة .
وبين أحوالنا المتباينة . في ما نراه على استوائها لديك . ان جميع
هاته المميزات بين هاته الذرات . لا تكون من اسباب الاحن
والعداوات . فتستوي عبادتك برطانة من لسان قديم مهجور .
وبغيرها من لسان جديد مشهور . ولا يميز بين من يؤقد الشمع
نهاراً لدعائك . ومن يكتفي فيه بضياء سماءك . وبين من يلبس
لذلك الذهب والحرير . ومن يستقبل سمائك باطمار الفخير .
ويكون الذين ملكت ايمانهم قطعاً مدورة من بعض المعادن
متمتمين بلا تيه بما يسمونه نياما . والذين استولوا على نتفة حقيرة
من بتعة صغيرة منتفعين بلا كبر بما يحسبون ملكاً مقماً . ويكون
سائر الناس راضين بالموجود . غير حاسدين على المفقود . ويذكر
ابناء الانسان انهم في الانسانية اخوان . فلا يمزق بعضهم بعضا
عناداً . ولا يملأون الارض فساداً . تجليلاً لك عما يقول الجاهلون .

وتأزيتها لك عما يزعم المتعصبون . انك اعظم من أن تغضب . وأعز من أن ترضى . وأكرم من أن تغفو . واكبر من أن تسر . وأجل من أن تساد . تماثلت لديك الذوات وتساوت عندك الاشياء . وانت في الكل وللكل سواء . وقنا العثرة مع المتعصبين . واحشرونا في زمرة المتساهلين . امين

خطبة لمصطفى كامل

لما خدمت الحركة العراية وخنق أنفاسها الانجليز سادت البلاد المصرية فترة من التحول السياسي حتى قيضت الاقدار لمصطفى كامل ان ينبه الامة . فاستخدم لسانه وقلبه وماله في سبيل ايقاظ الامة . فكان خطيباً وصحفيّاً ومؤلفاً ومؤسساً للمدارس . ومات في شبابه لانه لم يرض بهذا الشباب في خدمة مصر وكانت حياته موزعة بين جهدين : تحريك المصريين الى مناهضة الانجليز المحتلين لوطنهم والمطالبة بالاستقلال . وتحريك الامم الاجنبية الى ادراك مقدار العسف الذي ينزله الانجليز ببلاد مصر

فكان يخطب في القاهرة وباريس . وله رسائل تنشر في الاسكندرية وبرلين . وكان له صحف تدافع عن قضيتنا بالمرية واخرى تحاول ايقاظ ضمير الامة المحتلة بالانكليزية

فلئن فخرت ايطاليا بغريبالدي وتباهت المجر بكوشوت فلنزه نحن بمصطفى كامل

خطب في الاسكندرية في سنة ١٨٩٧ فقال :

سأدني وأبناء وطني الاعزاء

اني بنفؤاد ملؤه الفرح والسرور أقف الليلة امامكم متكلماً عن شؤون الوطن المحبوب ومصلحه . واني لأقابل انعطافكم نحو اضعف خدمة البلاد بمزيد الحمد والشكران . واستمحيحكم العفو اذا قصرت في أداء هذا الواجب . فاني انما اسر بهذا الانعطاف وبهذه المظاهرات . لا لأنها موجهة لشخصي الضعيف بل لأنها

أكبر دليل علني على حياة الشعب المصري . وأقوى حجة تكذب
دعوى الغائبين بأن مصر وطن لا وجود للوطنية فيه . وان أبناء
وادي النيل يقدمون بانفسهم الى ألد أعدائهم وطنهم واقدس ميراث
لابائهم واجدادهم

أجل . أيها السادة . انكم باجتماعكم اليوم هذا الاجتماع الوطني
ترفعون كثيرا من مقام الوطنية المصرية وتحفظون من آلام مصر
العزيرة التي قاست وتقاسي أشد العذاب على مشهد منكم يا اعز
بنها ويا نخبه أنجابه . فكل اجتماع وطني تذكر فيه مصر ويطالب
بحقوقها ويعلن أبنائها اخلاصهم لها هو في الحقيقة مرهم لجراحها
ودواء لدائها . فذكروها ما استطعتم . فان في ذكرها ذكرى الامها
وذكرى الآلام يجر حتماً الى ذكر عوائل الشفاء . اذكروها كما
يذكر الولد الحنون امه الشفيقة وهي على سرير المرض والعناء .
اذكروها بالامها وان كان غيركم يذكر بلاده بمجدها ورفعة شأنها .
اذكروها فانكم ما دمتم مقدرين لمصائبها عارنين بحقيقة الامها دام
الامل وطيدا في سلامتها ودام الرجاء . اذكروها فن المستحيل ان
يرى العاقل النار في داره والداء في شخص امه ويهمل النار ويهمل
الداء . ومن المستحيل كذلك أن يكون الوطن في خطر ونحن
نيام . وأن يعمل الاجنبي لامتلاك بلادنا وسلب حياتنا بل
لاستعبادنا واسترقاقنا ونحن جامدون لا عمل ولا حراك

القوا أيها السادة بانظاركم قليلا الى الامم الحرة تجذوا كل فرد
فيها يدافع عن وطنه ويدود عن حوض بلاده أكثر من دفاعه عن
ابيه وامه بل هو يرضاهما ضحية للوطن ويرضى نفسه قبلهما قربانا
يقدمها لاعلاء شأن بلاده . ويعد الموت لأجل الوطن حياة دونها

الحياة البشرية ووجوداً دونه كل وجود . فلم لا يكون المصري على هذا الطراز ووطنه أجمل الاوطان وأحقها بمثل هذه المحبة الشريفة الطاهرة

اسالوا التاريخ أيها السادة ما واجب أمة دخل الانجليز ديارها خدعة وعملوا لامتلأكم وملكها كل سلطة وكل قوة . يحجكم التاريخ ان واجب أمة هذا شأنها أن تعمل بكل ما في استطاعتها ضد مقتصبها وأن تبذل في سبيل خلاص وطنها كل ما تمتلك من مال ورجال

اجل . كل احتلال أجنبي هو عار على الوطن وبنية . والعار واجب أن يزول . ولست أقصد بهذا الكلام أن أسألكم باسم الوطن اعلان ثورة دموية ضد محتل البلاد . كلام كلا . ان أقل الناس ادراكا لمصلحة مصر يعلم علم اليقين انها منافية لكل ثورة وكل هيجان . وانما أسألكم أن تعملوا بكل الوسائل السلمية على استرداد الحقوق المسلوقة منكم وأن تعملوا لأن تحكم البلاد ببناء البلاد . نعم ابي أعلم ان الاحتلال قوي السلطة عظيم الرهبة شديد العقاب . وان العمل ضده موجب للعذاب مسبب للفقر والفاقة . ولكن في الرضى بالاحتلال الخيانة والعار . وفي العمل ضد الاحتلال الشرف والفخر

فياذوي النفوس الابية وياذوي الضمائر الحية . اطلبوا الشرف ولو مع الفقر . اخدموا الوطن ولو أسقطت على رؤسكم الصواعق . كونوا مع مصر ان سعيدة فسعداء وان تعيسة فتعساء . قولوا لعدوها في وجهه : أنت عدو لنا . ولصديقها : أنت صديق لنا . لا تحبوا

من يرميها بنبال الموت بل امنموه عنها ان قدرتم . ثم ردوها في صدر راميها ان استطعتم . وان لم تستطيعوا فكونوا معها لا مع المعتدين

وان لمصر غير المحتلين أعداء آخرين هم آلات الاحتلال . آلات الفساد . فان ذكرتم الاعداء فازكروا الخونة فيهم ألد الاعداء . وأي الاعداء هم . أولئك الذين انكروا الوطن والوطنية . وائتمنوا على مصالح الأمة فعرضوا بها للدمار . أولئك الذين أبرتهم مصر فقابلوا برها بالسوء وصاروا اليوم في ايدي المحتلين ضد الوطن العزيز . آلات الدمار . آلات الخراب . أولئك الذين كاهم صعدوا درجا من درجات المناصب نزلت نفوسهم دركا وفقدوا نصيباً من الشرف وسمو الاحساس . أولئك الذين يبيعون الوطن على مشهد من الامم ويسرون بين الناس حاملين لواء الخيانة والعار . أولئك الذين اذا مد اليهم الوطن يد الاستغاثة مدوا اليه سيوفاً ليقطعوا بها يده الشريفة هؤلاء هم الخونة وهم أشد الاعداء ضرراً . ويعلم الله ان الدم الذي يجري في عروقهم هو دم فاسد ليس بالدم المصري الصادق . وانهم مهما ذاقوا من لذة الحياة الظاهرية فسينا لهم العقاب اقصى العقاب ولو من أنفسهم متى حاسبوا ضمائرهم . نعم سيعاقب الخائنون على خيانتهم . فكم رأينا في التاريخ رجالا خانوا أوطانهم وساعدوا الاعداء على امتلاك بلادهم . فعوقبوا على خيانتهم لا من ابناء وطنهم فقط بل من نفس الاعداء الذين خدموهم وساعدوهم . هذه سنة الله في خلقه . يقتل القاتل عقاباً على عمله . فكيف بمن يعتدي على أمة بأسرها بالخيانة ويعتدي عليها بالسلاح الذي سلمته اياه ليدافع به عنها

نعم سيعاقب الخائنون وسيحمل ابناؤهم من بعدهم علم الخيانة على رؤوسهم وسيبقون في التاريخ مثلاً كبيراً للابناء والاعقاب وان ذكرتم الاعداء فازكروا المنافقين . فهم خونة تفننوا في أساليب الخيانة يظهرون امامكم بمظهر الخاضعين وهم يدبرون مع الاعداء المكاييد والدسائس . فهم ذوو وجبين وذوو لسانين خاذروهم واعلنوا أمرهم ليخيب مسعاهم وتحبط أعمالهم . . . أيها السادة . اعداء الوطن عديدون . ومصائب الوطن عديدة . وبديهي ان ازدياد الاعداء يزيد من واجبات الوطنيين المخلصين لبلادهم . فلا تظهر الوطنية الحقبة الا في اوقات الخطر ولا تعرف الهمم العالية الا عند المصائب . وغني عن البيان ان الأمة بأسرها كارهة للاحتلال . رغبة في الجلاء والحرية وقد أظهرت هذه الرغبة في ظروف عديدة وجاهرت بها حيناً بعد حين . الا انها كسائر الأمم في حاجة لأن يرشدها ابناؤها المتعلمون ورجالها الخيرون . ويسرنى كما يسر كل مصري صادق ان الناشئة المصرية عارفة بواجباتها نحو الوطن العزيز . فهم أبناء الوطن وهم رجال المستقبل وبهم تحيا البلاد وبهم تقوم

ولكن هناك فئة من المصريين لا أنكر اخلاص رجالها للوطن العزيز . ولكن أنكر عليهم الياس الذي يتظاهرون به في كل وقت وفي كل مكان . فهم ما عملوا ولا يعملون للبلاد عملاً نافعا ولكنهم جعلوا اليأس علة عدم العمل وعلة الكسل . فان سألتهم : لم لا تقومون بعمل عمومي نافع للبلاد . اجابوك : نحن يائسون من مستقبل الوطن معتقدون بظلمة الايام الآتية فبالله كيف يستطيع طبيب أن يحكم على عليل بعدم الشفاء

قبل أن يفحص داءه ويعطيه الدواء . على اننا نرى الكثير من
الاطباء لا ييأس أبداً من شفاء المريض حتى في آخر لحظة من
حياته . فكيف ييأس رجال من بني مصر من مستقبل البلاد .
وهم وان كانوا قد خبروا داء مصر فيعلم الله ويعلم الناس انهم الى
اليوم ما قدموا لها الدواء . كيف نياأس من المستقبل والمستقبل
بيد الله وحده . وكثيراً ما تأتي الحوادث بخلاف المنتظر وبغير
حساب . ألم يكن الكثير من المصريين ومن غير المصريين في يأس
من مستقبل الدولة العلية ويعتقدون انها على مقربة من الموت .
فيها هي اليوم قد ساعدتها الحوادث التي ساقها الأعداء مؤملين
البطش بها . فظهرت بمظهر القوة والحياة . واصبحت جميعاً فرحين
بسلامتها معتمدين حسن مستقبلها

كيف نياأس من المستقبل وقد أرانا التاريخ أمما حكمها
الأجانب قروناً طويلة ثم قامت بعد الذل والاسترقاق مطالبة
بحقوقها وأخرجت الأعداء من ديارها واستردت حقوقها وحررتها
هي النفوس الصنيرة التي يخلق عندها الأمل بكلمة او بتلغراف .
ثم يستولى عليها اليأس بكلمة او بتلغراف . أما النفوس العالية
الكبيرة فيدوم فيها الأمل ما دام الدم في العروق وما دامت الحياة
وأى حياة ترضاها النفوس الشريفة مع اليأس . أيجمع المرء
في جسم واحد الموت والحياة . اذ اليأس موت حتمي وأي موت
كيف نياأس ونحن جميعاً عالمون بأن ما يظهر طويلاً في حياة
الافراد هو قصير في حياة الشعوب . فعشر من السنوات في حياة
الانسان طويلاً حقاً ولكنها في حياة الأمة قصيرة جداً . على انه
اذا كان اليائسين معتمدين صحة افكارهم فمار عليهم أن يقوموا في

الامة بوظيفة تثبيط هم الآملين . والآملون في البلاد كثيرون بل
الامة كلها مؤملة خيراً في المستقبل وان لم تظهر الى الآن أعمال
الآملين فستظهر بعد قليل وسترى الامة المصرية وأمم العالم أجمع
ان للوطن المصري أبناء مخلصين يقدرّون الوطنية قدرها ويعرفون
لمصر حقوقها ولا يخافون الاحتلال وقوته بل يجاهدون في سبيل
خلاص البلاد منه اشد الجهاد وأحسنه . ولا غرو فان سبيل خدم
الوطن عديدة وان اهمها اعلان الحقيقة في كل بلد وفي كل زمان .
فالحرية بنت الحقيقة وما انتشرت الحقيقة في امة الا وارتفعت
كلمتها وعلا شأنها . فالحقيقة نور ساطع اذا انتشر اخفى الظلم
والظلمة وانتشرت الحرية والعدل . فكما ان الافراد لا تسلب
حقوقهم ولا يعتدي للصوص على امتعتهم الا في ظلام الليل
الحالك . فكذلك شأن الامم لا تسلب حقوقها ولا يعتدي العدو
على املاكها الا اذا كانت الحقيقة مجهولة فيها وكانت عائرة
في الجهل والظلام

فيا ايها المصريون المخلصون لمصر . انشروا الحقيقة في امتكم
وفي الامم الاخرى . قولوا للمصري انه انسان من بني الانسان
له حقوق الانسان تروه رجلا كرجال الامم الحرة يحمل لواء
الوطن بكل قوة واقدام . قولوا للفلاح المصري انه خلق انسانا
ككل انسان وان الله أعطاه في الحياة حقوق أكبر الافراد . وان
له صوتاً لورفمه سمع في الملأ الأعلى وانه ما خلق لان يعمل لغيره
بل ليعمل لوطنه ولنفسه تروه عندئذ اشد الناس دفاعاً عن حقوق
الامة والوطن . قولوا للامة المصرية انها امة كسائر الامم من
اقدس حقوقها أن تحكم نفسها بنفسها وان لا تنفذ رغائب غيرها

وان تكون في بلادها عالية الكلمة قوية السلطة لا يرد لها رأي ولا يخالف لها أمر . هنالك تجدون الامة حية والشعب قوياً ولا ترون اولئك الذين يهزأون برغبة الشعب ورغبة نوابه ويسخرون من رغائب الامة ومن مطالبها

انشروا الحقيقة عن مسألة مصر في كل بلد وفي كل ناد . فليس المصريون وحدهم هم أصحاب الحقوق في مسألة مصر ضد المحتلين . بل معهم امم كثيرة من امم اوربا لها في مصر مصالح توافق مصالحهم ولا توافق مصالح المحتلين . وخير ما يعمل لمصلحة مصر هو ان تنضم الامم الاوربية الى الامة المصرية ضد الاحتلال الانجليزي ففي ذلك الخلاص وفي ذلك السلام

ولسنا أيها السادة بانصار دولة دون دولة بل نحن أنصار الوطن المصري وطن الابهاء والاجداد وموطن الابهاء والاعقاب . فان ظهرت دولة من الدول بمظهر المحبة لمصر والميل لمساعدتها كنا أكبر أصدقائها وأعظم أنصارها . فمصلحة وطننا قبل كل مصلحة . وهي هي المصلحة الوطنية التي تفرض علينا ان نشكر من صميم قؤادنا الذين رفضوا من سياسيي اوربا العمل مع الانجليز ضد مصر والذين أوقفوا الانجليز عند حد الاحتلال في البلاد . وهي هي المصلحة الوطنية التي تفرض علينا ان نشكر كل رجل من اي امة كان يدافع عن حقوق وطننا ويساعدنا على استرداد حريتنا وحقوقنا الشرعية

واذا كان بعض الرجال المخلصين للوطن العزيز يخافون الظهور امام قوة الاحتلال بمظهر المجاهدين ضده ولا يستطيعون ان يقوموا امام الامم مدافعين عن بلادهم مناضلين عن حقوق شعبهم .

فعلهم في مصر نفسها واجبات وطنية يضيق المقام عن عددها .
ولكنني أقف قليلا وأذكر منها بنوع خاص واجب تربية الأمة
وتعليمها

نعم ان هذا الواجب أكبر واجب وطني والبلاد مطالبة بالقيام
به . فقد أصبحت المدارس على خلاف رغائب الشعب وآماله .
وأصبحت الأمة في حاجة الى مدارس أهلية ترشدها الى مصلحة
البلاد الحقيقية وتعلمها ما للأمة من الحقوق وما عليها نحو الوطن
من الواجبات

لم لا يقوم كبراء مصر ووزرائها السائقون بأمر تأسيس المدارس
الاهلية وتربية الأمة . لم لا يعقدون الشركات لهذه الغاية ويخصصون
ايامهم الاخيرة لهذا العمل الشريف . رأينا عظماء منهم قام بمسألة
الاعانة العسكرية وأجهد نفسه في هذا الأمر وله من الأمة والوطن
جزيل الشكر والثناء . فلم لا نراه يقوم مع الكبراء الآخرين بمسألة
اعانة عمومية لتأسيس مدارس أهلية والبلاد في اشد حاجة اليها .
يا ايها الكبراء ويا ايها العظماء ويا ايها الاغنياء . ما الفخار بالرتب
والالقباب ولا بسكنى القصور العالية والتحدث بما كان وما ربما
سيكون . بل الفخار كل الفخار في العمل اثناء الليل وأطراف النهار
لخدمة البلاد واعلاء شأنها . فما الحياة بايام تمر وسنين تكرر بل بالعمل
وبالخدمة الوطنية

وما الحياة بانقاس نرددها ان الحياة حياة الفكر والعمل
واذا كان رجل ضعيف الصوت مثلي يسأل السادة الامراء
والسادة الاغنياء العمل في الشيخوخة والقيام في آخر العمر بتتويج
خدمتهم الوطنية فذلك لأنني أعتقد ان الكثير منهم قضى حياة

شريفة وخدم البلاد بصدق واخلاص . فهي هي البلاد بنفسها
تسال خيرة رجالها على لسان أضعف أبنائها أن يبقوا مثلاً طيباً
للشبيبة والناشئين . وأن ينشروا في الأمة نور التربية ونور الحقيقة
وأن يبشوا فيها روح الوطنية وروح الرجاء

نرى الكثيرين من الاغنياء يهتمون بأمر توظيف أبنائهم ولا
يرون الشرف الا في الوظائف . فمتى يسمعون أنين الوطن وشكايته
من هذا الداء العضال . داء السعي وراء الوظائف

اتركوا الابناء معشر الالباء في الحياة الحرة . اتركوهم يخدموا
الوطن ويخدموا أنفسهم في غير دائرة الوظائف . اتركوهم أحراراً
غير مقيدين بقيود الرواتب . ابعثوا بهم الى الخارج ليدرسوا
التجارة والصناعة ويؤسسوا في البلاد المعامل والمصانع تزدادوا
بذلك شرفاً ونفراً وتزدادوا أمام الله وأمام الوطن مثوبة وأجرأً .
والا فان اهملت تربية الامة وبقي الكبراء منعكفين في ادارة شؤونهم
الخاصة واستمر الالباء يلقون بالابناء الى مهاوي التوظيف في
الوظائف وبقيت التجارة والصناعة في كساد ودامت الامة في
حاجة الى استجلاب لوازمها الضرورية من غير بلادها . دام
الانحطاط ودام التأخر ودام الخطر (انتهت باختصار)

خطبة لسعد زغلول باشا

ليس في مصر اسم أجرى على اللسان تعرفه المرأة في خدرها ويهتف به
الطفل ويشيد به الشباب من اسم سعد زغلول . فهو الآن بطل الوطنية المصرية
غير مدافع . صلب العود قوي الشكيمة . عجمه الانجليز فاستخسئوه فلنظوه الى
أقصى أفريقيا في جزيرة سيشل . فعاد أخشن ما كان موفور الكرامة
مرفوع الرأس

عدت على جسمه عوادي الشيخوخة فاحنى ظهره عبء سبعة عقود .
ولكنه اغتصب من هذه الشيخوخة العادية ناجا من الشعر الابيض زاده جلالاته
وجالالاته في عين الامة

له عزائم الشباب لان في قلبه فتوة الشباب . يفكر تفكير الفيلسوف لان
الطبيعة حابته برأس كبير كما حباه الدهر بتجارب لا عداد لها فكان محرراً وكان
نائماً وكان عامياً وكان قاضياً وكان وزيراً

قال في سنة ١٩٢١ في فندق ماجستك بالاسكندرية :

يا سمو الامير . اخواني . ابنائى

اعذروني اذا أنا لم أقدر ان أخطبكم كما أريد لأنني تعب .
اضناني التعب من هذه الاحتفالات الساحرة . تلك المظاهر الساحرة .
هذا الاستقبال الذي لا نظير له . واني بكل قوتي احتج على قول
حضرات أبنائي بأنى انا وحدي الذي فعلت هذا الذي تمدحونني
عليه . أحتج بكل قوتي لأنى لست وحدي فيه . بل للامة جمعاء
أثر فيه

اريد في وسط هذه المظاهر الهائلة أن أوجه شكري وثنائي الى
الذين اشتركوا في تأسيس مجدتنا وتوفير سعادتنا وانعاش آمالنا
أتوجه والخشوع يملأ جوارحي الى تلك الارواح الطاهرة
ارواح اولئك الابطال الذين نادوا بالحق والحق منكر . ففاضت
أرواحهم وألستهم تردد ذلك النداء . فاضت وقد شرفونا باقدامهم
والزموا الكل باحترام مصر واسمها ويضوا وجوهنا . والآن
فليناموا هادئين فقد انبلج فجر الاستقلال مضمخاً بدمائهم .
وخلفوا من بعدهم من يستحق ذلك القداء . يبيض الله برحمته
أجدانهم وأسكنهم جنات الملا وأرضى عن اعمالنا أرواحهم
وأراحهم بتحقيق آمالنا

لله در الشبيبة ما فعلت . فأنها قد فتحت ما ضمت صدورها
من كنوز الفتوة . وملاّت قلب البلاد عزة وحاسة وملاّت
رؤوسها حكمة وملاّت حركاتها نظاما . تلك الشبيبة التي هي عماد
الحركة الحاضرة ومبعث انوارها الساطعة . أشكرها شكراً جزيلاً .
وأرتاح جداً لأن المستقبل سيكون بيدها وهي يد ماهرة

وأشكر العلماء والقسس الذين باتحادهم ابطلوا حجة في يد
الخصوم طالما اتخذوها سلاحاً قاطعاً . أزالوا الفوارق وأثبتوا ان
الديانات واحدة تأمر بالدفاع عن الوطن . وانه ليس لها تأثير الا
في عبادة الخالق جل وعلا . أما في الوطن فالكل سواء

وأشكر أيضاً الامراء الذين حملهم ما ورثوه عن آباءهم من المجد
والفخار أن ينزلوا الى صفوفنا وينضموا الى التاجر والصانع والزارع
والعامل وكل من يخفي تحت تلك الثياب الزرقاء والبيضاء نفساً
كريمة وقلباً أبيضاً . انضموا الى هذه الصفوف لأجل أن يستحقوا
بعنوان آخر ذلك المجد الذي ورثوه عن الابهاء

فشكراً لهم نعم شكراً . والحق ان كل انسان من المصريين قد
قام بالواجب عليه . وكل نافس أخاه في القيام بهذا الواجب وزاد
عليه ليكون ممتازاً على اقرانه بشيء في خدمة الوطن العزيز . فكلكم
شاكر وكلكم مشكور . ومن مجموع هذه المساعي سارت قضيتنا
الى هذه النقطة الحاضرة . فاننا لما قلنا ان الحماية لاغية أعلنوا اليوم
هم انها ليست باقية وأظهروا استعدادهم لاستبدالها بعلاقة اخرى
راضية . والفضل في هذا الفرق العظيم لسعيكم لا لسعيي والتمسك
بالمبادئ السامية . فاهنا وبما نلتهم واثبتوا حتى تفوزوا بالاماني الباقية

خطبة اخرى لسعد زغلول باشا

القاما في كلية الازهر بالقاهرة بين الطلبة في ابريل سنة ١٩٢١
جئت اليوم لأؤدي في هذا المكان الشريف فرض صلاة
الجمعة . ولأقدم واجبات الاحترام لمكان نشأت فيه وكان له فضل
كبير في النهضة الحاضرة . تلمّيت فيه مبدأ الاستقلال لأن طريقته
في التعليم تربي ملكة في النفوس . فالتلميذ يختار شيخه والاستاذ
يتأهل للتدريس بشهادة من التلاميذ الذين كانوا يلتفون حول كل
نابع فيه ومتأهل له يوجه كل منهم اليه الاسئلة التي يراها . فان
اجاب الاستاذ وخرج ناجحاً من هذا الامتحان كان أهلاً لأن
يجلس مجلس التدريس . وهذه الطريقة من الاستقلال التي تسمى
الآن خللاً في النظام جعلتني أتحوّل من مالكي الى شافعي حيث
وجدت علماء الشافعية في ذلك الوقت أكفأ من غيرهم . ولقد كان
للأزهريين في الحركة الحاضرة فضل كبير بما القوه من الخطب وما
بشوا من الافكار والمبادئ النافعة

الجزء الثاني

عيون الخطب الافرنجية

خطبة برقليس

كان برقليس (٤٩٥ — ٤٢٩ ق . م .) من خطباء اثينا وأحد رجالها للمعودين المحبوبين عند جمهور السكان . وهذه الخطبة القاها في السنة الاولى من الحرب البلوبونيزية رثاء للجنود الذين ماتوا في هذه الحرب سنة ٤٣١ ق . م .

اننا سعداء بنظام حكومي لسنا نحتاج به الى ان نحسد جيراننا لما عندهم من القوانين لأنه نموذج يحتذى به الآخرون بينما هو اصيل في اثينا . وهذا النظام الموكل تنفيذه الى جميع الأمة وليس الى عدد قليل منها يسمى الديمقراطية . فيها اختلف كل فرد منا عن الآخر في شؤونه الخاصة فنحن سواء في التمتع بمزايا قوانيننا ونزداد مزايا بمقدار تفوقنا . وشرف الاعجاب ليس مقصورا على أسرة واحدة بل للجميع أن يحصلوا عليه باستحقاقهم الشخصي . ولا يقعد الفقير بأحد يبغي خدمة بلاده ويستطيع هذه الخدمة فينال الشهرة بعد الخمول . فلكل منا الحق في دخول وظائف الحكومة دون أن تعترضه عقبة . ولنا أن نعيش حياتنا الشخصية في تبادل الحب دون ان تنالنا شبهة . ولسنا نغضب من جارنا اذا اتبع ميوله ولسنا نستاء منه ذلك الاستياء الذي وان لم ينزل به عقاباً فإنه يحدث له المأ . فنحن احرار في حياتنا الشخصية ولكننا لا نجرا محملاً كانت البواعث على مغاضبة الجمهور لما نحمل في صدورنا من احترام الحكام والقوانين . وبخاصة تلك القوانين المدونة التي يقصد منها التفريج عن المظلوم وتلك التي لم تدون والتي تعود مخالفتها بالعار والفضيحة على من يخالفها

وقد هيأت لنا قوانيننا أوقات فراغ نمتع فيها عقولنا برؤية
الملاهي العمومية ومشاهد التضحية طول المسام وهي تؤدي بأبهة
ورشاقة لاتبقيان في قلوب الناظرين محلا للهم أو الغم . وقد صارت
عظمة ائتنا مدينتنا هذه سبباً في جلب جميع حاصلات الأرض
باجمعها اليها فتحن نمتع باطايب بلادنا كما نمتع باطايب سائر
بلاد العالم

ولسنا في حاجة الى شواهد تثبت اننا نستحق هذه المكانة .
فان لنا حجباً قوية واضحة على ذلك وهي موضع اعجاب المصور
الحاضرة والمستقبله . فلسنا في حاجة الى شاعر مثل هوميروس
لكي يتغنى بمدحنا كما أننا لسنا في حاجة الى شاعر آخر لكي يزين
ناريخنا بمقود القريض لأن الرأي في ما نرنا لا يكون عندئذ رايأ
صحیحاً نزيهاً . فقد فتحت اساطيلنا كافة البحار وقد اخترقت
جيوشنا جميع الأرضين وتركنا وراءها آثاراً ابدية لعداوتنا
او صداقتنا

هذه هي الدولة التي دافع عنها هؤلاء الجنود الذين قضت عليهم
بسالتهم والذين استهانوا بحياتهم فقاتلوا قتال الشجعان وماتوا موت
البسالة . واني مقتنع بان الذين لم يقتلوا على قدم الاستعداد متأهبون
لأن يبذلوا نفوسهم في هذا السبيل . ولهذا السبب تبسطت في بيان
المزايا الوطنية لكي ابرهن لكم بأوضح ما يمكن اننا في حربنا الراهنة
نحاطر باكثر مما نحاطر به امة ليس لها هذه المزايا الوطنية الثمينة ولكي
ابين لكم مقدار ما يستحقه هؤلاء الجنود من الشكر والحمد اللذين
قدمناهما لهم . وهذا الاحتفال الذي تحتفل به الدولة وتعلن فيه
ثناءها وحمدها انما مرجعه الى بسالة هؤلاء الجنود ومن يماثلهم من

الرجال . وهذا الثناء قد يمكن أن نعهده مبالغاً فيه إذا نحن أغدقناه على غير هؤلاء الجنود من الاثنييين . فهذا الموت الذي قد انتهوا اليه اكبر شاهد على جدارتهم . وعلينا دين يجب أن نوفيه بتكريم الرجال الذين ارصدوا حياتهم للقتال عن اوطانهم مهما كانوا أخط من غيرهم في مضمار الفضائل ما داموا قد حصلوا على فضيلة البسالة فان ماثرهم الاخيرة تمحو جميع مساوئهم السالفة لانها تشمل جمهور الامة بينما المساوىء لا تعدو العدد القليل . ولسنا نجعل انه لم يحجم احد من هؤلاء عن الخطر مؤثراً للملاذ التي تجتنى من عيشة السلام الوفيرة . كما انه لم يضمن احد بحياته غروراً بالامل بأن الفاقة الراهنة قد تزول ويأتي مكانها الرخاء والسعة . كلا . انما كانت تستعر في قلوبهم شهوة واحدة . ألا وهي الانتقام من اعدائهم . لقد فروا من لومة الجبن وتصدروا لصدمة المعركة ثم حملوا وهم لا يروعون روع وقد عقدت آمالهم النصر لهم فوقعوا وهكذا أدوا الواجب الذي يدين به كل شجاع لبلاده

واما أنتم الذين لم تقتلوا فشاءنكم أن تصلوا الى الآلهة لكي يكون حظكم خيراً من حظ هؤلاء . ولكن عليكم أن تحتفظوا بهذه الروح وتلك الحماسة اللتين تقاتلون بهما عدوكم . ولست احتاج الى بيان فائدة هذا في خطبة مثل هذه فان أي انسان يتلمهى بالالفاظ يستطيع ان يقول لكم ما تعرفونه انتم من قواعد مجاهدة العدو . ولكني أدعوكم الى أن تجعلوا عظمة أمتكم قبلة أفكاركم . فاذا أدركتم هذه العظمة فاذكروا أننا نيات بالابطال الشجعان - برجال عرفوا واجبههم واستحووا من العار وكانوا اذا ما اخفقت جهودهم خافوا الفضيحة على بلادهم فلم يرضوا بشيء من شجاعتهم ..

انهم اهدوا حياتهم الى الجمهور ونالوا منه الحمد الذي لا يبلى .
ولكل منهم ضريح عظيم - ولا أعنى ذلك الضريح الذي يضم رفاتهم
الرميمة - وانما أعنى ذلك الذي يضم شهرتهم وذكرهم . وهو ضريح
يذكر كلما ذكر الشرف . فهذه الارض باجمعها ضريح عظماء الرجال

خطبة لديموستينيس

كان ديموستينيس (٣٨٢ - ٣٢٢ ق . م) خطيب اثينا بل زعيم
خطبائها . وكان قبل أن عرفه جمهور اثينا رجلا خاملا ضعيف البنية خائر الصوت
ليست لحركته لباقة ولا في لسانه طلاقة الخطيب . فلما اعتزم الخطابة « أخذ
يقوي رئتيه وصوته بالصياح وهو يصعد في الجبال الوعرة أو كان يقف على
شاطئ البحر فيرفع صوته فوق صخب الامواج . وتغلب على عاهة النطق بأن
كان يمارس الكلام وفي فيه حصى . وتعلم أصول اللباقة ورشاقة الحركة بأن
كان يقف امام مرآة وهو يخطب »

قال عنه فنيلون : « اننا لا نفكر في كلماته بل نفكر في الاشياء التي
يقولها : فهو يبرق وهو يرعد بل هو سيل يجرف كل ما امامه . فلا نستطيع
أن ننتقده او نعجب به لاننا قد فقدنا حكمنا على مشاعرنا »

وقد كانت مهمة ديموستينيس التي عاش من أجلها ومات في سبيلها ايقاظ
ضمير الامة الاغريقية وتنبيهها الى الخطر الذي يحيق بها من فيلبس والد
الاسكندر المقدوني الذي كان ينوي ضم بلاد الاغريق الى مملكته . وكان قد
رشا خطباء اثينا لكي لا ينددوا باغراضه فسكتوا وابى ديموستينيس ان يرتشي
ويخون وطنه . وقضى حياته وهو يحرض الاثينيين على مقاتلة فيلبس حتى
دس له هذا الملك من يطارده . ففر الى احد المعابد وهناك تناول السم
بيده ومات

قال يحرض الاثينيين على قتال فيلبس :

ان بينكم أيها الاثينيون من يعتقد انه يمكنه أن يربك الخطيب
بقوله : « فماذا فعل اذن ؟ » وعلى هذا السؤال اجيب : « لا تفعلوا

شيئاً مما تفعلونه الآن وافعلوا كل شيء لم تفعلوه » وانه لجواب حق وصدق . ولكنني سأزيدكم ايضاحاً ولعل أولئك الذين يسارعون الى السؤال يسارعون أيضاً الى العمل . فاذكروا أيها الاثينيون اولاً انه من الحقائق التي لا مرأى فيها ان فيلبس قد نكث عهودكم وأعلن الحرب عليكم . فدعونا اذن من الثالب عن هذا الموضوع . ثم اذكروا انه عدو اثينا الألد - عدوها الذي يكره أرضها وأسوارها بل يكره أولئك الذين يغتبطون منكم بأنهم قد نالوا حظوة عنده

فان أخشى ما يخشاه فيلبس وأمقت ما يمتته هو حريتنا . هو نظامنا الديمقراطي . فلكي يقضي على هذه الحرية وهذا النظام يهين فيلبس جميع شرا كه ويدبر جميع تدابيريه . او ليس يجري على مبدأ واحد في كل أعماله هذه ؟ انه يعرف تمام المعرفة انه لو أخضع بلاد الاغريق كافة وعمها بفتوحاته فانه يظل غير آمن عليها ما دامت ديمتراطيتكم صحيحة لم تمس . وهو يعرف انه لو أصابته هزيمة من تلك الهزائم التي تقدرها الاقدار لبني الانسان فان جميع هذه الامم التي قرنوا عنوة الى نيره تسارع الى الانضواء اليكم . أفي العالم ظالم يجب رده ؟ هاكم أثينا . أفي العالم أمة مقهورة تحتاج الى رد حريتها اليها ؟ هاكم اثينا ما اسرعها الى الاسعاف . فقيم نعجب من فيلبس اذا كان لا يطبق صبراً على هذه الحرية الاثينية التي تقف موقف الجاسوس ينظر الى شروره وآثامه ؟ فايقنوا أيها المواطنون انه عدوكم الذي لا هوادة عنده . وانه انما يعي جيوشه ويهين عدده وينصب اشراكه لكي يقاتل اثينا فماذا عليكم ان تفعلوا باعتباركم رجالا عقلاء قد اقتنعتكم بصحة

هذه الحقائق ؟ يجب عليكم ان تنفضوا عنكم هذا السبات القاتل وان يتبرع كل منكم بنسبة ما يملك وان تطلبوا من حلفائكم ان يتبرعوا ثم تستعدوا للاحتفاظ بالجنود المسلحين حتى اذا كان فيلبس قد تهيأ لغزو الاغريق واخضاعهم يكون لديكم جيش تمدونهم به وتخلصونهم منه . ولا تخبروني عن المتاعب والنفقات التي يحتاجها هذا العمل . فاني لست انكرها . ولكن اعتبروا الخطر الذي يهددكم واعتبروا مبلغ ربحكم في ما اذا انضمتم للدفاع عن قضية الوطن الى سائر الاغريق منذ الآن . والحق انه لو اكد لكم احد الآلهة ان فيلبس لن ينالكم باذى اذا بقيتم وادعين في مقامكم لا تحفلون بما يعمل فاني اقول لكم والسماء تشهد علي انه من الهوان ومن الصغار ومما هو دون كرامة دولتكم ومجد آبائكم ان تضحوا مصالح وطن الاغريق باجمعه لكي تنالوا انتم الراحة لأنفسكم أجل . انه خير لي ان اهلك من ان اشير عليكم بهذا . فليفعل ذلك من يشأ غيره . واستمعوا لأقواله اذا اردتم . اما اذا كنتم تحسون مثل ما احس وترون كما ارى انه كلما امتدت فتوحات فيلبس كان في ذلك تقوية لعدونا وشداً لازره علينا حين نضطر عاجلاً او آجلاً الى مكافئته فلم تترددون واي اضطراب تنتظرون ؟ فهل هناك ما يخشاه الاحرار قدر ما يخشون سقوط الشرف ؟ فهل انتم في انتظار هذا ؟ الا انه قد وقع بنا الآن ما تنتظرونه وان عبثه ليكدنا ويهظنا . لقد قلت « الآن » ولكن الحقيقة انه قد وقع منذ زمان ولازمنا وجباً لوجه . الا ان هناك اضطراباً آخر قد احتفظ به لنا للمستقبل : هو اضطراب الرق والجلد والصفع . فهل

تنتظرون هذه الاشياء . الا لا قدرت الالهة . ان النطق بهذه
الكلمات مهانة وذل

خطبة لشيشرون

كان شيشرون (١٠٦ ق . م - ٤٣ ق . م) في رومية بمقام
ديموستينيس في أثينا . وكان أديباً وخطيباً معاً ولكن تبرزه كان أظهر في
الخطابة . وقد ولد في وقت بدأت فيه الجمهورية في التدهور وأخذ قواد الجيش
في الاستئثار بالسلطة . وأوشكت حرية الامة الرومانية ان تزول وان تسود
الامبراطورية . وقد حدث في حياة شيشرون ان حاكم صقلية المدعو فُرس قد
طغى وتجبّر على الاهالي فشكوه الى رومية فكان شيشرون « المهتم العام » او
النائب العمومي في القضية . فهياً أركان الاتهام والتي سبع خطب في صدها
فكانت من الفصاحة والبلاغة بحيث فر فرس قبل الحكم

وكان موضوع خطبه قبيل وفاته تحذير الرومانيين من انطونيوس القائد
المشهور . فتخلص منه هذا بأن أرسل اليه من اغتاله

وقد ألقى الخطبة التالية وهو يتهم فرس بأنه جلد احد الرومانيين الذين
تكفي نسبتهم الى مدينة رومية في حقهم في ان لا يجلدوا . قال :

وحدث ان فرس جاء في ذلك اليوم الى مسانا فقدمت القضية
له وقيل له ان الرجل روماني وأنه يشكو من انه قد حبس في محاجر
شيراكوز وكيف انه عند ما كان يوشك أن ينزل الى السفينة اخذ
يفوه بالفاظ الوعيد يهدد بها فرس فاعيد ثانيا واعتقل ريثما يقرر قرار
فرس على ما يريد ان يفعله معه

وعندئذ يشكر فرس هؤلاء الأشخاص الذين اعتقلوا هذا
الروماني ويحمدهم على نشاطهم وحسن صنيعهم . ثم يأتي وهو
ثائر بالشر والجنون « الى الفورم » . عيناه تقدحان والقسوة تبدو من
وجهه والناس صامتون ينتظرون ما يشير به . ماذا يريد ان يفعل ؟

انه يأمر في الحال بان يقبض على الرجل وأن يجرد من ملابسه ويقيد في وسط الفورم ثم تعد الاسواط . ويصيح الرجل في تعسه وشقاوته بانه روماني وانه ايضاً معدود من اهل كوزا الحاصلة على الحقوق البلدية وانه قد خدم في الجيوش الرومانية تحت قيادة الفارس الروماني العظيم لوقيوس برينيس الذي يسكن في مدينة بانورماس وكان فرس يستطيع أن يساله عن صحة هذه الدعوى ان فرس يقول انه كان قد تحقق من أن المتهم قد ارسله العبيد الآبقون الى صقلية لكي يكون عيناً يتجسس لهم . وهذه تهمة لم نقم عليها بينة وليس لها أصل بل ليس هناك أقل شبهة في وجودها في رأس أي انسان . ثم يأمر فرس ان يجلد الرجل بالسياط على جميع جوانب جسمه

رجل روماني يجلد بالسياط ايها القضاة في وسط الفورم ! وطول مدة هذا الجلد لا يتأوه الرجل ولا يسمع منه في وسط آلامه وبين قرعة الاسواط سوى هاتين الكلمتين : « انا روماني » كان هذا الرجل يتخيل انه بهاتين الكلمتين يستطيع ان يدفع عن نفسه هذه السياط ويبقي نفسه عذاب الجلد . ولكن هذه الكلمات لم تقلل من عنف السياط ولم يجده رجاءه واثباته انه روماني شيئاً اذ رأى بعد الجلد انه قد احضرت له خشبة لكي يصلب عليها ولم يكن قد رأى قبلاً أن الاستبداد والجبروت يصلان الى هذا الحد

فواهاً على اسم الحرية الحلو . ووا أسفاً على حقوق الحرية الرومانية . . . ايها القضاة . هذه سلطتكم التي أسفنا لضياعها قد ردها اليكم الرومانيون فانظروا كيف يعامل روماني في مدينة من

مدن حلفائنا المتحدين معنا . يقيد ويحجّد بالسياط في وسط الفورم
بامر رجل لم يحصل على مركزه الا بفضل الرومانيين

خطبة للقديس برنار

كان القرن الثاني عشر قرن الحروب الدينية الصليبية فكان التعصب رأس
الفضائل عند المسلم والنصراني وكان هو الزاد الذي تتغذى به القوة المعنوية
لكل من الفريقين . وكان القديس برنار رأس احد الاديرة في فرنسا وقد
عاش من ١٠٩١ الى ١١٥٣ م . وكان اذا خطب امتلك قلوب سامعيه لما
كان في كلماته من الاغراء وقوة الاقتناع حتى « كانت الامهات يخفن اولادهن
والزوجات ازواجهن والناس اصدقاؤهم » عندما كان ينزل بيلدة ليخطب فيها
خوفاً عليهم من اغراء الخطيب لهم . وكان جل خطبه في الحز على مقاتلة
المسلمين واجلالهم عن سوريا وفلسطين . ويمسح ان يقارن القاريء بين
هذه الخطبة وبين خطبة ابن الركي التي القاها عند فتح صلاح الدين لبيت
المقدس . ففي كلتا الخطبتين روح دينية هوجاء كلها بغض وكلها تعصب كأن
الحب والتسامح منكبران لا ينبغي لاحد ان يدين بهما
قال القديس برنار يحض الاوريين على حرب المسلمين :

لا مناص لكم من أن تعرفوا أننا نعيش في عصر العقاب
والدمار فان عدو البشر قد تفخ على جميع انحاء العالم بهوات الفساد
فاننا لا نرى سوى الشرور التي لا يعاقب عليها احد . ولم يعد
لقوانين الناس أو قوانين الدين قوة تكفي لوقف انحطاط الآداب
او منع الاشرار من التغلب . فلقد تبوأ الهرة طقة كراسي الحق
وأرسل الله لعنته على الاماكن المقدسة . وأنتم أيها المستمعون لكلباتي
سارعوا الى تهدئة غضب الله . ولكن لا تسألوه أن يستجيب لكم
عن ظلمات كاذبة ولا تلبسوا الخيش وانما تأبطوا تروسكم فان
صليل السيوف وأخطار الحروب وكفاحها ومتاعبها هي الكفارات

التي يطلبها الله منكم . فكفروا عن خطاياكم بما تناولونه من الانتصارات على الاعداء واجعلوا خلاص الاماكن المقدسة مكافأة لكم على توبتكم

من منكم لا يمتشق حسامه اذا قيل لكم أن العدو قد غزا بلادكم وأوطانكم وأرضكم وأنه قد سبي زوجاتكم وبناتكم وتناول بالرجس معابذك ، ان هذه الرزايا واكبر منها قد وقعت باخوانكم وباسرة يسوع المسيح التي هي اسرتكم . فلم تترددون في حسم هذه الشرور ولم لا تنتقمون لهذه الفظائع ؟ هل تتركون هؤلاء الاعداء هادئين ينظرون ويتأملون ما يرتكبونه من الماثم في المسيحيين ؟ اذكروا أن انتصارهم سيكون موضوع حزن جميع العصور وسيكون للاجيال الحاضرة فضيحة أبدية لا تمحى . اجل . ان الله الحي قد كلفني ان أعلن لكم انه سيعاقب اولئك الذين لم ينصروه على أعدائه . فالى الحرب . هلموا اليها . وليؤنس قلوبكم غضب مقدس واجعلوا العالم المسيحي باجمعه يتجاوب هذه الكلمات التي فاه بها النبي : « ملعون من لا يلطخ سيفه بالدم » واذا كان الله يدعوكم الى الدفاع عن ميراثه فليس ذلك لأن يده قد فقدت قوتها . اليس في مقدوره أن يرسل اثني عشر جيشاً من الملائكة أوفيه بكلمة فيذهب اعداؤه هباءً ؟ ولكن الله نظر في أبناء البشر وأراد ان يفتح لهم الطريق الى رحمته فقد اراكم تباشير صباح يوم الأمان بأن هياً لكم الانتقام لمجده ولاسمه

ايها المجاهدون المسيحيون . ان الذي وهبكم حياته يطلب منكم حياتكم وهذه المعارك جديدة بكم لانكم تناولون المجد اذا انتصرتم والنفع اذا هلكتم . ايها الفرسان البواسل . يا حماة الصليب

الاجواد . اذكروا مثال آبائكم الذين فتحوا اورشليم والذين قد رقت اسماؤهم في السماء فانبذوا ما ينفى واجمعوا ما لا ينفى وافتحوا ملكوتاً لا نهاية له

خطبة لبوسويه

كان بوسويه (١٦٢٧ - ١٧٠٤) من خطباء فرنسا المحدثين في عهد لويس الرابع عشر وكان قد نصب نفسه للدفاع عن الكاثوليكية فكانت أكثر خطبه موعظ يلقبها من منابر الكنائس . وقد ارتد كثيرون من البروتستانت عن مذهبهم وعادوا الى الكنيسة الرومانية لقوة عارضته وفصاحة القائه . وله خطب عديدة مدونة . أفضلها ما ألقاه في رنء امير كوندو وكان قائداً فرنسياً شهيراً . والقطعة التالية مختارة من هذه الخطبة :

سار المرض في جسم امير كوندو ولكن الموت كان قد أخفى اقترابه . فلما تحسنت حالته قليلاً وكان الدوق دانيان الذي كان يوزع وقته بين واجباته نحو أبيه وواجباته نحو ملكه قد دعي الى البلاط - تغير عندئذ الامير لفراقه وهنا صرح له ايضاً بأن الموت قد اوشك ان ينزل به . الا انصتوا ايها المسيحيون وتعلموا كيف يجب ان تموتوا . او تعلموا بالحري ألا تنتظروا الساعة الاخيرة لكي تشرعوا في ان تعيشوا . أنتظرون ان تبتدئوا الحياة عندما تقبض عليكم يد الموت الباردة في وقت لا تعرفون فيه اذا كنتم بين الاحياء او الاموات ؟ الا فانقوا بالندم والتوبة هذه الساعة - ساعة القلق والظلام

لم يدهش الامير عندما ألقى في سمعه هذا الحكم بل صمت لحظة ثم قال : « هذه مشيئتك يا ربى . فلتكن مشيئتك . فامنن علي

بنعمتك لكي أموت موة هنية »

فماذا ترغبون في أكثر من ذلك ؟ ففي هذه الصلاة القصيرة ترون الخضوع لمشيئة الله والاعتماد على عنايته والثقة بنعمته . وكل هذا تقوى وإيمان

ومن هذه اللحظة صار كما كان شأنه في معامع القتال هادئاً ضابطاً لنفسه لا يشغله سوى الاهتمام بجنوده . كذلك كانت هذه حالته في هذا الصراع الأخير . فلم يترأ له الموت هيكلًا مخوفاً شاحباً ذابلاً أكثر مما كان يترأى له وهو في المعارك ينتظر الظفر . فبينما كانت التهنيدات والتأوهات تتصاعد حوله كان هو يدأب على إصدار أوامره كأنه لم يكن هو المقصود بهذه التهنيدات والتأوهات . وكان يأمرهم بالكف عن البكاء لأنه كان يحزنه هذا البكاء بل لأنه كان يعوقه عن تأدية ما يرغب أداءه . وفي هذا الوقت امتدت عنايته إلى أقل خدمه خطراً . فأنقل الجميع بهباته وشرفهم بتحف تذكارية وفعل ذلك بسخاء جدير بنبأته وبخدمتهم

وأسلم نفسه إلى ذراعي الله وجعل ينتظر في هدوء خلاصه وكان يبتهل إليه إلى أن أسلم أنفاسه الأخيرة . وهنا ينبغي أن انفجر رثاؤنا ونستسلم للتفجع على فقد مثل هذا العظيم . ولكن اعزازاً للحق وخزياً لأولئك الذين يزدرونه يجب أن تصفوا إلى هذه الشهادة التي ألقاها وهو يجود بنفسه . فقد قال له الكاهن الذي حضر للاعتراف أنه إذا لم يكن قلبنا باجمعه مع الله يجب أن نسأل الله أن يجعله كما يشاء وأن نقول له كما قال داوود هذه الكلمات المؤثرة : « اللهم اخلق لي قلباً طاهراً »

فلما سمع الأمير هذه الكلمات صمت وتأمل كأن الكاهن قد

أوحى اليه خاطراً عظيماً . ثم دعا الكاهن الذي فاه بهذه الكلمات وقال له : « اني ما شككت قط في خفايا الدين كما ذكر بعضهم ذلك عني »

أيها المسيحيون انه قال الصديق حين فاه بهذه الكلمات لانه كان في حال لم يكن مدينا فيه للعالم بشيء سوى الحق . وقد قال أيضاً : « وأنا الآن أقل شكا مما كنت . فحسى هذه الحقائق تتكشف وتتوضح في ذهني . نعم سئرى الله وجهاً لوجه » ثم جعل يكرر هذه العبارة الاخيرة باللغة اللاتينية كأن معناها قد لذه له . وراه المحققون به وهو في هذه الحال الهنيئة فلم يضجروا من وقوفهم

فماذا كان حديث نفسه في هذا الوقت ؟ وأي نور جديد كان يلتمع فيها ؟ وما كان هذا الشعاع الفجائي الذي مزق سحب احساسه وشتت الظلام عنه بل بدد عنه هذه الضلال بل هذه الغوامض التي كانت تلبس الايمان ؟ وماذا جرى عندئذ لهذه الالقاب الفخمة التي تتباهى بها ؟

سرعان ما ننسى ونحن على حافة المجد وفي فجر هذا النور الجميل خيالات هذا العالم . وهذه الانتصارات اللامعة ما أكدها في ذلك الوقت . وما أشد احتقارنا لاجداد هذا العالم وما أعظم اسفنا لان اعيننا قد عشت بسنائها

فهلماوا أيها الناس . بل هلماوا أيها الامراء والاشراف . ويا من تحكمون على هذه الارض . ويا من تفتحون أبواب السماء للناس . وأخصمكم انتم أيها الامراء والاميرات والنبلاء الذين هم من سلالة الملوك . انتم يا مصاييح فرنسا التي قد جالها السواد . انتم الذين

قد غشاكم الحزن كما تغشى السحب الارض . تعالوا وانظروا ماذا بقي من هذا النبل العظيم ومن هذه العظمة العليا ومن هذا المجد الذي يعيش الاميون

... تقدموا انتم يا من يتبعون طريق المجد ويسرون اليه وقلوبهم ممتلئة حماسة ونفوسهم شجاعة وتعطشاً الى الحروب . هل رأيتم من كان أجدر منه بقيادتكم ؟ فاندبوا قائدكم وابكوه ولسان حالكم يقول : « لقد قادنا هذا الرجل واقترح بنا المعارك . ولننا في قيادته الرتب والدرجات واقتدينا به حتى وصلنا الى أشرف الغايات في الحروب ولا تزال لظله رهبة ينال بها الظفر . وها هو ذا الآن اسمه يحمس النفوس . ويحذرنا أيضاً . حتى اذا فاجأها الموت الذي به تستريح من متاعبها تكون قد اعدت نفسها لسكنائها الابدی . فهي لذلك في طاعتها لملك الارض يجب أن نخدع هلك السماء »

خطبة لفنيلون

كان فنيلون (١٦٥١ - ١٧١٥) مطراناً في فرنسا وكان مؤدب ابن لويس الرابع عشر وقد ألف له كتاب تلياك . وكان هذا الكتاب سبباً في حرمانه من منصبه لان لويس اعتقد انه وضعه لكي يفقد به بطريق التلويح الاحكام الاستبدادية التي كان يجري عليها هذا الملك وكان خطيباً وواعظاً مجيداً اذا تهيأ للخطبة ولا يأتي بالردل اذا ارتجل . وفي الخطبة التالية يحاول فنيلون ان يثبت وجود الله :

لست افتح عيني دون أن أرى المهارة في كل شيء تكشفه لنا الطبيعة . فان لمحة واحدة تمكنني من ان أرى اليد التي صنعت كل هذه الاشياء . فان الذين قد تعودوا ان يفكروا في الحقائق

المجردة ويسيروا في تفكيرهم الى الاصول والمبادئ الاولى يرون الله في الطبيعة لانهم يرونه في عقولهم . ولكن كلما استقام هذا الطريق حاد عنه دهاء الناس وعامتهم الذين يتبعون اخيلتهم قائبات وجود الله أمر بسيط ولهذه البساطة لا تستطيع الازهان التي لم تألف التفكير الذهني ان تقف على حقيقته . وكما وضع النهج الذي يمكن به معرفة الكائن الاعلى قلت العقول التي تسير في وضحه . على ان هناك طريقة يمكن ان تكون اوفق الطرق لعامة الناس في اثبات وجود الله . فيها يمكن اولئك الذين لا يكثر من الرياضة العقلية والذين هم اكثر الناس خضوعاً لحواسهم ان يعرفوا الله الذي تمثله أعماله في الطبيعة . فان الحكمة والقوة اللتين يظهرهما الله في كل شيء صنعه تدلان على اسمه كما تعكس المرأة ظل الاشخاص لأولئك الذين لم يجدوا في أذهانهم ما يثبت وجوده . وهذه فلسفة عامية تخاطب بها الحواس . لكل انسان بعيد عن الهوى أن يدركها ويفهم مغزاها

فاذا فرضنا ان هناك رجلاً قد شغله شاغل عظيم فقد نرى انه يقضي أياماً عديدة في غرفته مكباً على عمله دون ان ينظر الى ابعاد الغرفة او زخارفها او الصور المعلقة حوائيه . وهذه الاشياء جميعها على الرغم من انها امام عينيه لا يراها ولا تترك أثراً في ذهنه . وانما الناس يعيشون على هذا المثال . فكل شيء أمامهم يدل على وجود الله ولكنهم لا يرونه . فهو في العالم وهو الذي صنعه ولكن العالم يجهله . فهم يقضون حياتهم دون أن يروه لأن الحياة قد فتنهم وغشت على بصائرهم . وقد قال القديس اوغستين ان عجائب الكون تنقص قيمتها في نظرنا اذا تكررت امام اعيننا . وقال

شيشرون الروماني : « لما كننا مضطربين الى رؤية الاشياء نفسها كل يوم فان العقل والعين يعتادان رؤيتهما . فلهذا لا نعجب ولا نحاول ان نكشف علل الحوادث التي نرى انها تحدث في طريقة واحدة لا تختلف . كأن جودة الشيء وما فيها من طلاوة هي التي تبعثنا على البحث ، أما عظمة الأشياء فلا تبعث فينا ذلك »

ولكن الطبيعة بأجمعها تثبت مهارة صانعها التي لا نهاية لها . وأقول ان الصدفة اي تتابع الحوادث تتابعاً لا ارادة فيه ليست هي أصل كل ما نرى . وحق علينا هنا ان نستشهد باحد أمثلة القدماء من يستطيع ان يقول ان اليازة هو ميريس لم يؤلفها شاعر فحل وانما هي حروف الهجاء وضعت معاً دون ان ترتب فحدث صدفة واتفاقاً انها رتبت كل ما في مكانه بحيث صار منها نظم مختلف القوافي ومعان تلون الاشياء بأشرف الالوان وأجملها ففترى فيها الاشخاص كالطبيعة لكل منهم خلق وروح ؟ ففهما تمحل أي انسان فانه لن يستطيع ان يتنع احدا ذا حواس سليمة بان الاليازة ليس لها مؤلف وان الصدفة هي التي اوجدتها . فكيف يعتقد اذن انسان ذوعقل ان الكون وهو من حيث العمل أعجب من الاليازة ليس له صانع وانه وجد بالصدفة والاتفاق

خطبة لكرومويل

كان كرومويل (١٥٩٩ - ١٦٨٦) زعيم الثورة الانجليزية على الملك تشارلس الاول ملك انجلترا . وكان هذا الملك قد نزع الى الاستبداد والنفي البرلمان وأقفل أبوابه وطرده النواب . فألف كرومويل جيشاً وطارده حتى هزمه وأسره . وتألفت محكمة لحاكمته فأدانته وحكمت عليه بالاعدام . وأعدم

فعلا وصار اسمه عبرة لكل خائن من الملوك يستهين بدستور بلاده

وصار كرومويل حاكم البلاد ودعي باسم « المولى الحامي » . قال كارليل عن خطبه « انها تفوق ما يعتقد الانسان في مخالفتها للخطب وفي عدم جريها على أساليب الخطابة أو في ترتيب الافكار ترتيباً منطقياً ولكن مضى زمن كان لهذه الخطب في انجلترا شأن لا يقل عن شأن خطب ديتوستينيس المصنوعة في أثينا »

وقد اتى الخطبة التالية ردأ على ما اقترحه عليه البعض من أن يلقب نفسه بلقب الملوكية . قال :

سأقول الآن شيئاً عن نفسي . واني أجهر بضميري وهو اني لست ممن يحفل بالالفاظ او الاسماء او ما الى ذلك . وليس أمامي نهج واضح ولكن عندي كلمة الله التي آمل أن تكون معي على الدوام والتي هي قوام ضميري ومعول علمي ونبراس طريقي . وإذا كان حقاً ان الناس قد تتأدهم العناية الالهية الى الطرق المظلمة فليس لأحد أن يعترض عليهم . إذ من من الناس يرضى أن يسير في الظلام ؟ ولكن لله تدابير فاذا شاء انسان أن يعزو الى العناية الالهية جنونه وعمى قلبه فعليه خطيئته والحق أن عناية الله قد نبذت لقب الملوكية ولم يكن هذا عن نزق أو عن هوى طارىء من الامة . كلا . انما هو عن روية وتدبر لا يطلب من أمة كائنة من كانت اكثر منهما . انه نتيجة حرب أهلية دامت عشر او اثنتي عشرة سنة سفك فيها كثير من الدماء . ولست أماري الآن في عدالة هذه الحرب ولست أحتاج الى أن أخبركم عن رأيي في ما لو عادت الحال التي دعت اليها . ولكن اذا كان هذا مما يمارى فيه فما يقوله الانسان عند ما يجد ان الله في صرامة حكمه قد استاصل عائلة بأكملها وأقصاهم عن البلاد لأسباب يعلمها هو جلست قدرته بل انه

ختم الحرب بأن استأصل أيضاً الاسم واللقب
اني أنا لم أفعل هذا ولم يفعلوه أولئك الذين طلبوا إلي أن أتقلد
مقاليد الحكومة التي رأسها الآن . فان البرلمان هو الذي فعل
ذلك . وكانت لله بصيرة في قمع العائلة ومحو اللقب . وكما قلت لكم
لقد محا البرلمان هذا اللقب ونبذه وبقى منبوذاً الى يومنا هذا ...

واني ارجو اليكم الا تظنوا اني أقول هذا برهاناً على شيء ما .
كلا . ان الله أراد ان يحجزى الشخص والعائلة ففعل بل محا اللقب
أيضاً . والآن ماذا يقول انسان يرى حكم الله هذا ويتأمل فيه
ويرى هذا اللقب معفرا في التراب ؟ اقول اني الآن في مثل هذا
المقام . ان في هذا لعبرة ينبغي فعل منها رجل ضعيف مثلي وقد تترك
انراً كبيراً في من هم أضعف مني . ولهذا فاني لا أبتني أن أقيم
ما هدمه الله ودفنه في التراب . كلا اني لن أبني أريحا مرة
أخرى ...

وليس عندي أزيد مما قلته . وقد أشرت اليكم في أول مقالي
الى هذه النهاية التي انتهيت اليكم بها عند ما أوضحت لكم الطريق
الذي سأسلكه في هذه الخطبة . ويمكنني أن أقول انه ليس من
مصلحتي ولا من مصلحة الخدمة التي أحمل اعباءها أن أدلي بجميع
الحجج على عدم منفعة مقترحكم أو فائدته للقيام بتادية أعمالنا .
أقول انه ليس من المناسب ان اجهر بجميع الافكار التي تختلفني
عن نقطة الامن في هذا الموضوع ولكنني ادعو الله أن يوفقكم
الى ما فيه انقاذ ارادته . وهذا في الختام هو ما يمكنني أن أقوله
عن نفسي

خطبة لمارات

زعماء الثورة الفرنسية أشبه شيء بقصابين منهم بادباء أو سياسيين . فديدهم وهجيراهم القتل وسفك الدماء . وكان مارات (١٧٤٣ - ١٧٩٣) أكثر هؤلاء الزعماء خطراً للناس على التقتيل واعداد النفوس . وكان له شريكان في ارتكاب هذه المآثم باسم القانون وهما دانتون وروبسيير . ولما ضج الناس من كثرة الدماء التي كان يلغ فيها مارات كثرت الشكوك حوله وقصدت اليه فتاة تدعى شرلوط كوردي فقتلته وهو يستنقع في الحمام والخطبة التالية القاها دفاعاً عن نفسه وكان قد اتهم بجملة تهم وكان يخشى أن يحكم عليه بالاعدام . قال :

لقد كنت أخاف وأرتعد من حركات الشعب الحماسية والخالية من النظام عند ما رأيتهما قد تعدت حدود الضرورة . ولكي لا تموت هذه الحركات موتاً أبدياً ثم لكي نتجنب ضرورة عودتها اقترحت ان يدير الشعب في هذه الحركات رجل عاقل عادل مشهور بتعلقه للحرية ويجعل الحرية العمومية غايتها العظمى . ولو ان الناس استطاعوا أن يقدروا الحكمة في هذا المقترح ولو انهم اصطنعوه برمتهم لاكتسحوا يوم فتح سجن الباستيل خمسمائة رأس من المتأمرين . ولو انا فعلنا هذا لاستقرت الامور . ولهذا السبب عينه اقترحت جملة مرار ان نعين شخصاً ونمنحه السلطة المطلقة . والدليل على اني اردت أن أقيده للمصلحة العامة هو اني اقترحت في أن يكون في طرف قدمه خرطوشة ولا يكون له من عمل سوى اطاحة رؤوس الخونة

لقد كان هذا رأيي وقد أوضحته لأخصائي ونشرته في جميع

كتاباتي وقد مهت هذه الاقوال بتوقيعي ولست أستحي من ذلك
واذا كنتم انتم لا تفهمون فتعساً لكم

انا نعيش في عصر ولما تنته فيه أيام القلق والاضطراب .
وها نحن أولاء بازاء مائة الف وطني ذبحوا لانكم لم تستمعوا الى
صوتي . وثم مائة الف أخرى سيقاسون الآلام ويوشك أن يحل
بهم الدمار . واذكروا انه اذا تردد الشعب فلن يكون ثم طريق
آخر للتوضي

لقد نشرت هذه الآراء بين الجمهور فاذا كانت خطيرة فليفندها
المستنيرون بما لديهم من الادلة . أما عن شخصي فاني اصرح بانني
اكون أول من يسير على رأيهم وأقدم لهم بذلك البرهان القوي
على اني أرغب في السلام والنظام وسيادة القوانين عند ما أقتنع
بعداتهم

هل تهموني بالطمع ؟ اني لا انزل للدفاع عن نفسي . اخصوا
سلوكي واحكموا على ماضي . فاني لو أردت أن أصمت وأتاجر
بهذا الصمت لصرت من ذوي الخطوة في البلاط . ثم ماذا كان
حظي ؟ لقد دفنت نفسي في المطبقات وتعرضت لجميع الاخطار
وقد علق فوق رأسي سيف مائة الف سفك ووعظت الناس بالحق
ورأسي على النطع . فليتحذ أولئك الذين يخشون المستبدين معي
ومع جميع الوطنيين الصادقين وعلينا ان نحث الجمعية الوطنية على
التعجيل في اقرار القوانين التي تضمن للناس السعادة وبعد ذلك
اذهب فرحاً الى المشقة

خطبة للامارتين

كان لامارتين (١٧٩٠ - ١٨٦٩) شاعراً وأديباً وسياسياً فرنسياً . وكان خطيب الجمهورية ينافح عنها ولما حدث ثورة سنة ١٨٤٨ كان هو من العوامل التي أفادت في منع الغلو فصار بالناس في طريق وسط وكبح جماح المتطرفين والموالين . وفي الخطبة التالية يفسر معنى الثورة الفرنسية وما جناها الناس منها . قال :

فما هي اذن الثورة الفرنسية ؟ هل هي كما يقول عباد الازمنة الماضية فتنة أمة مضطربة لتغير سبب تهدم في تشنجاتها الجنونية كنيستها وحكومتها الملوكية وطبقاتها الاجتماعية وقوميتها حتى لقد مزقت أيضاً خريطة اوربا ؟ كلا . لم تكن الثورة الفرنسية فتنة منكودة كما يزعمون لان هبوب الفتن الى خمود عاجل وهي لا تترك وراءها سوى الجثث والدمار . وليس من ينكر ان الثورة قد خلفت وراءها دماراً وآلات للاعدام . وهذه لها بمثابة وخز الضمير للانسان ولكنها قد خلفت أيضاً مذهباً وخلفت روحاً ستبقى وتعيش ما دام في الانسان ذهن يفكر

ولسنا نقول هذا تشيماً لشيعه ولسنا نقصد الى تأليف شيعة . انما نكون رأياً وفي الرأي القوة والشرف والمناعة . فهل نحن لاجئون الى العنف والضغط والقتل في بدء جهادنا ؟ كلا . وعلينا ان نشكر آباءنا لذلك لانهم قد خلفوا لنا الحرية التي لا تفتقر الى سلاح لان سلاحها سلاح السلم تنشأ وترقى دون حاجة الى الغضب او الشطط . ولهذا سنحوز النصر . ثقبوا بذلك . واذا سألتهموني عن القوة الادبية التي سترغم الحكومة على النزول على

ارادة الامة لأجبتكم انها سيادة الافكار وملوكية الذهن وجمهورية
الذكاء . أو اقول بكلمة واحدة انها الرأي - هذه القوة الحديثة
التي لم يكن التمداء يعرفون اسمها

أيها السادة . لقد ولد الرأي العام يوم اخترع غوتنبرج الذي
لقب بصانع العالم الجديد بواسطة الطباعة تلك الصلة التي لا نهاية
لها بين الافكار والعقول الانسانية . وقوة الرأي هذه التي لا نكاد
نقهمها ليست نحتاج في بسط سلطانها الى سمة الانتقام أو سيف
العدل او الى آلة الاعدام . لان في يدها ميزان الافكار
والمؤسسات والذهن البشري . ففي احدى كفتي ميزانها ستعيش
مدة طويلة خرافات العقل البشري والاهواء التي تدعى لها
الفوائد وحقوق الملوك المقدسة والتمايز في الحقوق بين الطبقات
وعداء الدول وروح الفتح الحربي واتحاد الدين والحكومة اتحاداً
فاسداً والرقابة على الافكار واسكات زعماء الشعب وتقصي الجهل
بين سواد الامة والعمل في الخط من كرامتهم . اما في الكفة
الاخري فاننا سنضع أخف ما خلقه الله وأقله مادة نعي النور -
ذلك النور الذي تفجر من الثورة الفرنسية عند ختام القرن الماضي
ولا شك انه تفجر من بركان هو بركان الحق

خطبة لفكتور هيجو

كان فكتور هيجو (١٨٠٢ - ١٨٨٥) من اكبر القوى الادبية في
فرنسا زاول الشعر فبد الشعراء ومارس الخطابة فكان الثاني في حليتها عند
من يعدون ميرابو أولها في فرنسا . ونزع الى الشهرة والصيت بين العامة فارس

السياسة وهجر الادب فنال مبتغاه وفقد الادب العالمي رجلا من أهل الكفايات
فيه ظهرت بوادر أدبه في قصة « التمساء »
وقد ألقى الخطبة التالية في سنة ١٧٧٨ بعد مرور مائة سنة على وفاة الكاتب
الشهير فولتير . قال :

منذ مائة سنة مات رجل . ومات خالداً مثقلاً بالسنين
وبالاعمال وبابجد التبعات واكبرها ألا وهي تبعة تنوير ضمير
الانسان وتصحيحه . ومات تشيعه لعنات الماضي وبركات المستقبل
وكلاهما من مفاخر المجد . مات بين هتاف أهل جيله وخلقه
وبين نعيب الماضي الذي لا يلين على أولئك الذين يجاهدونه . لقد
كان اكبر من رجل . أجل انه كان عصراً . لقد أتم عمله وأدى
الرسالة التي اختارته لها الارادة العليا التي تظهر في نظام القدر كما
تظهر في نواميس الطبيعة . فان الاربعة والثمانين العام التي قضاه
في هذا العالم كانت جسراً بين صعود الملوكية وزوغ فجر الثورة
فقد ولد في عصر لويس الرابع عشر ومات في حكم لويس السادس
عشر . فسطع على مهده ضوء العرش العظيم كما انتشرت على كفته
الاشعة الاولى من الهوة السحابة

فقد كانت ايام البلاط أعياداً وكانت فرساي زاهية وباريس
في جهل وكان القضاة للتوحش الديني يحكمون بقتل الرجل المسن
على الدوايب وبنزع لسان الطفل لأنه انشد احدى الاناشيد .
ورأى فولتير هذه الهيئة النكدة التزقة وادرك جميع القوى التي
عبئت عليه من البلاط والاشراف والمولين وهذا السواد الاعمى
من الشعب وهذه المحاكم التي تذل الرعية وتستذل للراعي فتسحق
وتتملق وتجنو امام الملك على رقاب الناس ثم هؤلاء القساوسة وهم

اخلاط منا كيد لا يعرفون سوى النفاق والتعصب فاعلم عليهم الحرب وشن غارته على هذا التآلف المكون من المظالم الاجتماعية وعلى هذا العالم القوي العظيم

فماذا كان سلاحه ؟ كان ذلك السلاح الذي هو اخف من الريح ولكن له قوة الصواعق اعنى به القلم . فجاهد فولتير بهذا السلاح وظفر به . فلتحي هذه الذكرى . لقد انتصر وهو فرد يحارب جموعاً متألبة . وكانت حربه حرباً بين العقل والمادة بل بين الرأي والهوى أثرت دفاعاً عن المحقين على المبطلين وعن المستضعفين على الظلمة الجائرين وكانت حرب الدفاع عن الخير والرحمة . وكانت في قلبه رقة النساء وغضب الأبطال . وكان هو عقلاً كبيراً وقلباً عظيماً . هزم القوانين القديمة ودمغ العقائد العتيقة انه انتصر على اشراف الاقطاعات وعلى قضاة التوط وقساوسة الرومان ورفع العامة الرعاع الى مقام الشعب . وكان يعلم وكان ينشر السلم وكان ينشر المدنية . وكان لا يعبأ بالتهديد أو السباب أو الاضطهاد أو مقالة السوء أو النفي . وكانت ابتسامته تدمغ العنف وكان يهزم الاستبداد بتهكمه ويعبث بالمغرورين ويثبت امام المكابرين ويتغلب على الجهالة بالحق

خطبة لكوشوت

في سنة ١٨٤٨ شملت اوربا او كادت تشتملها ثورة تختلف نزعة ومبادئ باختلاف المكان . فكانت في هنغاريا تنزع نحو استقلال البلاد . فاخذ المجريون في الاتحاد وكافوا الاستبداد مكافئة الابطال واوشكوا أن يتغلبوا على النمساويين . فما هو أن احست روسيا بنهوضهم وقرب انفسكاكم من قيد العبودية حتى خشيت على بنائها أن يهدم في أثر هذه الحركة التي تصير عندئذ

مثالاً وقدوة للشعوب المغلوبة على أمرها في دولة القياصرة . فارسلت جوعها الى النمسا وشدت ازرها فاخذت ثورة المجر . وعادت هنغاريا في قيد الاستعباد ولكن لم تمض عشرون سنة حتى نالت استقلالها وصارت شريكة في مملكة « النمسا والمجر »

وكان زعيم الثورة في سنة ١٨٤٨ رجل يدعى كوشوث وقف حياته على استقلال بلاده وأرصد جهوده لتخليصها من نير النمسيين . فلما تألب الاستبداد وعقد الروسيون والنمسيون الحناصر على خنق حرية المجر وغمرهم بجيوشها فر الى تركيا . فكان كالمستجير من الرمضاء بالنار فقبض عليه الاتراك وسجنوه بدسائس السياسة النمسية . وقضى سنوات يكابد عذاب السجن في الاناضول حتى تحرك الراي العام في انجلترا والولايات المتحدة وطلب الافراج عنه فسمى سفيراً هاتين الدولتين حتى اطلق سراحه فمضى سائر ما بقي له من العمر فيهما . وكان يخطب ويدعو الى نصرته بلاده . وقد التقى الخطبة التالية في برلمان الولايات المتحدة في واشنطن اذ دعاه الاعضاء الى وليمة في سنة ١٨٥٢ تكريماً له واعزازاً للمبدأ الذي قضى حياته في الدفاع عنه . قال :

أقف الآن امامكم كما وقف قينياس الاغريقي امام مجلس الشيوخ في رومية - ذلك المجلس الذي كان بكلمة واحدة حافلة بجلالة القوة يتحكم في أحوال العالم ويقف عتاة الملوك عن السير في طريق اطماعهم - اقف الآن امامكم وقلبي مفعم بالاعجاب والاحترام لكم انتم المشرعون في هذا البرلمان الذين تمثلون جلالة الأمة المتحدة . ان جدران مجلس الشيوخ الروماني لا تزال اطلالها قائمة ولكن روحها قد هجرها اليكم بعد أن تنسم نسيم الحرية . وتلك الاطلال التي لا تزال شاخصة تغشيها الكآبة هي رمز الى فناء الجهود الانسانية وزوالها بينما هذا المكان هو رمز للحقوق الأبدية . كان ذلك المجلس كاسياً بلون الفتوح والحروب احمر قانياً وهو الآن في

ليل حالك من ظلام الظالمين بينما مجلسكم يسطع بضوء الحرية
اللامع . كان ذلك محتجج العالم الى مجده بينما مجلسكم هذا يحمي امتكم
ولا يرضى بان يستحوذ على شيء من حقوق الأمة . كان لذلك
روعة القوة التي لا تقاوم بينما أنتم تفخرون بتقييد هذه القوة .
وكانت الأمم ترتعد وترنجف اذا رأت ذلك المجلس بينما الانسانية
تعقد الرجاء بكم عند ما تنظر الى مجلسكم . وكان لا يدخل ذلك
المجلس من الغرباء الا مهزوم او منكوب قد شدت ايديه بالأغلال
لكي يركع عند اقدام الظافرين وأما أنتم فيدخل الغريب المبتئس
اليكم فتدعونه الى أن يقعد بجانبكم حيث لا يدعى الملوك والقيصرة
وليس لهذا الغريب من ميزة سوى انه زعيم مضطهد لأمة مقهورة
لا حول له ولا قوة . كان شعار ذلك المجلس القديم : « ويل
للمغلوبين » بينما شعاركم حماية المظلوم ولعنة الغاصب وعزاء المهزوم
في قضية الحق . وبينما كان ذلك يقعد فيه رجال يفخرون بسيادتهم
على العالم يقعد هنا رجال ينحصر مجدهم في الاعتراف بنواميس
الطبيعة وبأله الطبيعة وفي انفاذ ارادة الامة التي هم خدامها

وان في تكريمكم اياي لتاريخاً للأجيال المقبلة . اجل . ان
الأجيال المقبلة ستقرأ تاريخ ذلك الرجل الذي كان أول حاكم
لبلاد الحجر المستقلة فاخرجته القوة الروسية الغاشمة طريداً من
بلادها فعاش في المنفى في بلاد الأتراك يحميه سلطان مسلم من
استكلاب الجائرين المسيحيين ثم طوحت به دسائس السياسة الى
سجون آسيا ثم مدت اليه اميركا يده فخلصته حتى اذا عبر المحيط
الاطلانيطي وهو يحمل آمال الامم المظلومة ويقف امام أهل هذه
الجمهورية الكبرى فيذكر امامهم ظلمات بلادها وارتباطها بمصير

القارة الاوربية ويصرح بجرأة من يدافع عن حق بوجوب رفع مبادئ الدين المسيحي الى أن تكون قوانين دولية ، لم ير ان جراته قد قوبلت بالصفح فحسب بل يجد ايضاً عزاء في عطف الملايين وتشجيع الافراد والمدن والاجتماعات والولايات تسنده معونتهم العاملة وتحميه حكومتهم وبرلمانهم وتقعده مقعد الضيف المكرم وتسبغ عليه من المكارم ما لا يطمع فيه امير قوي . ثم هذه الوليمة وهذا الشراب الذي تساقاه - اجل ان لني هذا تاريخاً للاجيال المقبلة

واني أؤكد دون تردد انه لا يوجد في بلادكم العظيمة هذه رجل واحد قد خطر براسه أن يضع مقعد اطماعه على اطلال حرية بلاده . وهو لو اتيح له تحقيق ذلك لما رغب فيه . لأن للمؤسسات التي تنشأ بين ظهرائي امة اثاراً تنعكس على اخلاق افرادها . ومن زرع الريح حصد الزوابع . فالتاريخ يكشف عن مقاصد العناية الالهية . فالله القادر يدبر العالم المادي والعالم الادبي بنواميس أبدية . وكل ناموس مبدأ وكل مبدأ ناموس . والافراد كالامم لهم حق اختيار المبادئ بما لهم من الارادة الحرة . ولكنهم اذا ما اختاروا لم يعد لهم مفر من نتيجة اختيارهم . فالحرية من لوازم الحكومة الذاتية . والعدالة والوطنية من لوازم الحرية . ومن مبدأ « المركزية » في الحكم يتولد الطمع . والاستبداد من لوازم الطمع . وان بلادكم لسعيدة لأنها قد اغرمت بالحكومة الذاتية غراماً شديداً . وعلى هذا الاساس بنى آباؤكم بيتاً للحرية هو أجد ما رأى العالم . وريقتم انتم بهذا البناء حتى صار اعجوبة العالم . ان بلادكم لسعيدة اذ

اصطفاها الله لكي يثبت امكان اتحاد الولايات المستقلة كل منها
محتفظ بحقوقه واستقلال حكومته ومع ذلك فهي كلها متحدة في
دولة واحدة لكل نجم منها نوره الخاص يتلأأ ومن الجميع
تتألف مجموعة تضيء سماء البشر

خطبة لغامبتا

كان غامبتا (١٨٣٨ — ١٨٨٢) أحد مؤسسي الجمهورية الفرنسية الحديثة.
وعندما حاصر الالمان باريس في سنة ١٨٧١ فر من هذه العاصمة في بلون
على أجنحة الريح حتى اذا صار بنجوة من جيوشهم نزل فأهاب بالامة
الفرنسية فالتفت حوله فجعلت الجيوش تعي تلو الجيوش فلا تصيب من الاعداء
سوى الهزيمة فتغلى عنه انصاره فاستقال هو من الزعامة ورحل الى اسبانيا .
ونازل الجنرال مكماهون فحكم عليه بالحبس والغرامة ولكنه عاد ففاز عليه
واستقال الجنرال . وكان رئيساً للوزارة الفرنسية ثم استقال في سنة
١٨٨٢ . وفي سنة ١٩٢٠ عندما احتفل بمرور خمسين سنة على الجمهورية
أخذ قلبه فدفن في الباثيون مثنى أجساد عظماء الفرنسيين . وقد ألقى
الخطبة التالية انهاضاً لهمم الفرنسيين بعد الانكسار العظيم الذي نالهم على يد
الالمان . قال :

ان طبقة الفلاحين تتأخر جملة قرون عن طبقة المستنيرين
والمعلمين في هذه البلاد . اجل . ان المسافة بعيدة بيننا وبينهم
نحن الذين قد حظينا بتعلم العلوم والآداب وإن كان هذا التعلم
لا يزال ناقصاً . فلنمجد تعلمنا قراءة تاريخ بلادنا وأن نتكلم لغتنا بينما
— وهذا من القضايع — لا يزال كثير من مواطنينا لا يستطيعون الأداء
ويج هذا النلاح قد قيدته أرضه بقميد الاسار يحمل عبثها
حمل الممتدر الجسور وليس له من عزاء سوى أن يترك لأبنائه أرضه
أملأ أن يزيدوها فدائاً أو بعض فدان . فجميع عواطفه ومخاوفه

ومباهجه معقودة بمصير أرضه . وأما عن العالم الخارجي وعن الاجتماع البشري الذي يعيش بين ظهرائيه فلا يدري سوى الاساطير والاشاعات . وهو مع ذلك فريسة الخداع والغش . فهو يطعن على غير دراية منه قلب الثورة التي أغدقت عليه النعم . ويدفع ضرائبه ويسخو بدمه لهذا الاجتماع الذي ينحشاه بتمتداده ما يحترمه . ولكن الى هنا تنتهي مهمته فاذا تكلمت معه عن المبادئ تبينت أنه يجهل كل شيء

قالى الفلاحين اذن يجب أن نوجه عنايتنا فهم الذين يجب علينا ان نرفعهم ونعلمهم . ولا ينبغي أن تنبر الأحزاب بعضها بعضاً بلفظة « الفلاحين » او « مجلس الفلاحين » ولا ينبغي ان يكون في هذه الألفاظ ما يسوء أحداً . فباليت كان لنا مجلس فلاحين في المعنى الحقيقي لهذه الكلمة . لان مثل هذا المجلس لم يكن ليؤلف من جهلة بل من المزارعين الأحرار المستنيرين الذين يستطيعون النيابة عن طبقتهم . وبدلاً من ان تكون هذه الكلمة داعية إلى الهزء والسخرية تكون داعية الى تقدم سواد الأمة وتحضرهم . فمثل هذه القوة الاجتماعية الجديدة يمكن الانتفاع بها في المصلحة العامة إلا أننا لسوء الحظ لم نصل بعد الى هذه الدرجة وسنظل محرومين من هذا التقدم مادامت الديمقراطية الفرنسية لا تعرف اننا بتممير الأرياف ورد عظمة الفلاحين وقوتهم وعبقريتهم اليهم وفي تربية هؤلاء العمال وتحريرهم انما نعمل لمصلحة الطبقات العليا ونمس مادة بكاراً حاوية لسكنوز لا تفنى من النشاط والكفاية . فعلياً أن نتعلم ثم نعلم الفلاح ما عليه من الواجبات للأمة وما له من الحقوق عليها

وفي ذلك اليوم الذي ندرك فيه أنه ليس علينا من الواجبات ما هو أعظم من هذا وأنه يجب علينا أن نرجى جميع الإصلاحات وأن نعرف أنه ليس يلزمنا سوى واجب واحد هو تعليم الأمة ونشر التربية وتشجيع العلوم - في هذا اليوم نكون قد خطونا خطوة واسعة نحو احياء الأمة. ولكن هذا العمل يجب أن يكون مزدوجاً يؤثر في العقل كما يفعل في الجسم. وبعبارة أدق أقول أنه يجب على كل إنسان أن يكون ذكياً مدرباً على التفكير والقراءة ومع ذلك ذا جسم قادر على العمل والقتال. فالى جانب كل معلم يجب أن يقف الجندي ومدرس الرياضة وذلك حتى يكون أولادنا وجنودنا وسائر مواطنينا قادرين على أن يحملوا السيف والبنديقة وأن يسيروا على أقدامهم المسافات البعيدة وأن يناموا تحت قبة السماء وأن يتحملوا ببسالة جميع المشقات التي تعرض للوطنيين. فعلينا أن نرقى هاتين التربيّتين، وتذكروا أنكم ان لم تفعلوا ذلك فنجاحكم في الآداب لن يجعل منكم سوراً وطنياً يحمي البلاد من الأعداء

واذكروا أيها السادة انه اذا كان الالمان قد تفوقوا علينا وإذا كنتم قد اضطرتهم إلى مكابدة الآلام في رؤية بلادكم - بلاد كبير وهوش - تفقد أعظم ولاياتها التي يتجسم فيها الروح الحربي والتجاري والصناعي والديمقراطي فليس ذلك الا لنقص في آداب الأمة وصحة اجسامها. والآن تقضي مصالح بلادنا بأن نلزم الصمت فلا ننطق بكلمة هوجاء وان نكظم غيظنا في صدورنا وان نقوم بذلك الواجب العظيم ألا وهو احياء الامة فنرصد له ما يلزمه من الوقت حتى يصير عملاً ثابتاً يدوم مع الأيام. فاذا كان

هذا العمل يقتضي عشرة أعوام أو عشرين عاما لانجازه فيجب ألا نضن عليه بهذا الوقت . ولكن علينا أن نشرع من الآن حتى نرى في كل عام تقدم الجيل الجديد في القوة والذكاء وحب العلوم وحب الوطن بحيث تحمل قلوب الشباب عاطفة مزدوجة ألا وهي أنه لا يخدم البلاد تمام الخدمة وينصح لها الولاء الا من يخدمها بعقله وذراعه

لقد تعلمنا نحن تعليماً غير مهذب فعلياً ان نعالج أنفسنا من ذلك الغرور الذي جاب علينا البلى العديدة . وعلينا أن نتحقق المسؤولية فاذا عرفنا العلاج بذلنا كل شيء للوصول الى الغاية وهي احياء فرنسا . ففي سبيل هذه الغاية يجب ان لا نبخل بشيء مهما عظمت قيمته وأن لا نسأل عن شيء آخر قبل تحقيقها . فأولى حاجتنا في هذا السبيل هي التربية - تربية كاملة من القاعدة الى القمة بمقدار ما يستطيعه الذكاء الانساني . ومن الطبيعي أن نعرف بحقوق الجدارة فيجب اتقاط الكفايات وتركيتها . ويجب اصطفاء القضاة الاشراف التزمين وأن تكون أحكامهم عمومية تثبت للجمهور انه ليس ثم من مفتاح يفتح ابواب الحق سوى الجدارة . وعليكم أن تنبذوا أولئك الذين يضعون الاقوال مكان الاعمال وأولئك الذين يضعون المحابة مكان الجدارة وأولئك الذين يحملون السيف لا لحماية فرنسا وانما ابتغاء خدمة احد الاشخاص يطوح بهم في سبيل اهوائه ويشركهم في جرائمه - هؤلاء هم دعاة السوء وفاعلوا الشر الذين يجب عليكم ان تنبذوهم

خطبة للنكولن

كان ابراهام لنكولن (١٨٠٩ - ١٨٦٥) زعيما لحزب تحرير العبيد في الولايات المتحدة الاميركية ثم رئيساً لهذه الجمهورية الكبرى . وربما لم تقع في العالم حرب اشرف من هذه الحرب . فقد انشطرت الامة شطرين : احدهما المؤلف من اهل الشمال يقودهم لنكولن يرغب في محو العبودية ورفع الزوج الى مرتبة الاحرار . ولم تكن لهم مصلحة مالية في ذلك ولم يكن لهم مأرب خاص وانما غايتهم تحرير الانسان . وكان الشطر الثاني مؤلفاً من اهل الجنوب وكانوا يستوردون العبيد من افريقيا ويستغلونهم في مزارعهم فيسخرونهم لاعمالهم يشغلون نهارهم بلا اجر لا يأخذون من اسيادهم سوى كفافهم من الطعام . واشتعلت الحرب وانهمز اهل الجنوب وفتح بذلك للانسان فتح جديد في المبادئ الادبية العليا . وقد القى لنكولن الكلمات الاتية في خطبة افتتاح عهد الرئاسة الثانية . قال :

ابناء وطني : في وقوفي الآن امامكم للمرة الثانية لكي اقسم بيمين عهد الرئاسة لا تتيج لي الفرصة ان اسهب في الكلام بمقدار ما فعلت في المرة الاولى . فقد كان من المناسب في ذلك الوقت أن التي امامكم بياناً مفصلاً بعض التفاصيل عن الخطة التي ازمعنا اتباعها . أما الآن فبعد انصرام أربع سنوات تليت فيها تصريحات عمومية عن أماكن النزاع ووجوهه - هذا النزاع الذي لا يزال يستغرق جهود الامة وهمها - فليس لدي من القول مما جد سوى القليل . فان تقدم جيوشنا الذي يتوقف عليه كل شيء آخر معلوم لديكم كما هو معلوم لدي . واني أعتقد انه تقدم يجب أن نقنع به وتشجع منه . ولست اجرؤ على التنبؤ ولكن رجائي في المستقبل عظيم . وقد كانت افكارنا في مثل هذا الموقف منذ اربع سنوات

تتجه نحو حرب اهلية وشيكة الوقوع . وكنا كلنا نخشى هذه الحرب . وكنا كلنا نبحث عن السبيل الى تجنبها . وبينما كانت الخطبة الافتتاحية تلقى من هذا المكان وكانت كلها تدعو الى الاتحاد وتجنب الحرب كانت العوامل الثائرة تعمل في المدينة لتمزيق هذا الاتحاد بدون الحرب وقسمة الغنائم بالمفاوضات . وكان كلا الحزبين يكره الحرب ولكن كان أحدهما يؤثر الحرب على تمزيق وحدة الأمة . فكانت الحرب

كان العبيد السود يؤلفون الثمن من سكان هذه البلاد ولم يكونوا متوزعين بالتساوي في أنحاءها وانما كانوا يسكنون الجنوب . ومن هؤلاء العبيد كانت تنفع أناس منفعة خاصة عظيمة . وكلنا كنا نعرف ان هذه المنفعة ستخرب الحرب . وكان الثائرون الداعون الى تمزيق وحدة الامة يقصدون الى تقوية هذه المنفعة وتخليدها ومد شبكتها ولم يكن قصد الحكومة الاتحاد هذه المنفعة وقصرها على مكانها دون أن تتسع دائرتها الى ولايات أخرى . ولم يكن احد الحزبين يتوقع أن تبلغ الحرب هذا المدى أو تطول الى هذه المدة كما لم يكن احدهما يتوقع حسم النزاع والاتفاق قبلما تعرف نتيجة الحرب . فكان كلاهما ينتظر انتصاراً سهلاً أهون في النتائج وأقل في الروعة . فكلاهما يقرأ انجيلاً واحداً ويصلي لاله واحد . و كلاهما يدعو الله أن يعينه على خصمه . وربما يتراءى لكم من الغريب أن يدع انسان ربه لكي يؤيده في انزعاجه من عرق جبين الآخرين ولكن لنترك الحكم على الناس حتى لا يحكم علينا . ولم يستجب الله لدعوات أحد الحزبين استجابة تامة لأن للخالق مقاصد لا نذكرها

واذا نحن اعتقدنا ان هذا الرق الافريقي هو احد تلك الذنوب التي قدر الله حدوثها في وقت ما وان هذا الوقت قد انقضى بحكم الله وان عنايته الالهية قد قضت بان يزيل هذا الذنب وانه قد اوجد هذه الحرب الهائلة لهذا القصد فهل نجد في هذا مخالفة للصفات الالهية التي يؤمن المؤمنون بوجودها في الله ؟

وانا لارجو الرجاء كله ونصلي الصلوات الحارة لكي تنتهي هذه الحرب العتيدة وتزول بليتها عنا . ولكن اذا كانت ارادة الله قد قضت بأن تستمر هذه الحرب حتى تأكل الاموال التي تكسبت من كد العبيد كدأ غير مكافأ مدة مائتي وخمسين عاماً وحتى يأخذ السيف من دم سادة العبيد مقدار ما اخذه هؤلاء بالسوط من دم عبيدهم كما قيل منذ ثلاثة الاف عام فيجب ان نقول ان ارادة الله هي الارادة الصادقة وهي الارادة الحقّة

فلنجاهد في انهاء هذا العمل الذي نحن فيه وصدورنا خلو من النيات السيئة نحو الناس وقلوبنا تقيض بالتساح نحو الجميع ثابتين في الحق كما يرشدنا اليه الله حتى نضمّد جراح الأمة وعلينا ان نغني بذلك الذي اصطلّى بنار الحرب ونغني بمن تركه من الايامى والميتمين . وان نعمل كل ما يهيء لنا صلاحاً دائماً بيننا وبين جميع العالم

خطبة لكافور

كان كافور (١٨١٠-١٨٦١) من عظماء ساسة القرن التاسع عشر فقد أسس دولة ايطاليا الحديثة وتوج عليها الملك فكتور عمانوئيل فكان للملكة ايطاليا بمقام ابى مسلم الخراساني للدولة العباسية . ولكنه لم يجز على فضله جزاء سنهار كما كوفى ابو مسلم . ومات بعيد اتمام عمله بشهور مذكوراً من

بني وطنه بالفضل والحمد . وهذه الخطبة التالية القاها يناشد فيها قومه بأن يجعلوا رومية عاصمة الدولة الجديدة . قال :

يجب ان تكون رومية عاصمة ايطاليا اذ ليس هناك حل للمسألة الرومانية ما لم توافق ايطاليا اوربا على هذا المبدأ واذا كان هناك من يتوهم ان ايطاليا المتحدة يمكن ان تعيش وتدوم دون ان تكون رومية عاصمتها فاني اصرح بأن المسألة الرومانية تبقى مع ذلك صعبة الحل ان لم يكن حلها عندئذ محالاً . ولعلكم تسألونني عن السبب في تشبثنا بحقنا او بواجبنا في جعل رومية عاصمة ايطاليا المتحدة ؟ ذلك لأنه اذا لم تكن رومية عاصمة ايطاليا فوجود مملكة ايطاليا لن يتحقق . وهذه حقيقة يشعر بها الايطاليون شعوراً غريزياً ويؤكدوها جميع الذين يزنون المسائل الايطالية من الاجانب بميزان الحق والنزاهة وهي حقيقة لا تحتاج الى ايضاح لأن الامة باجمعتها تقول بها وتناصرها

ومع ذلك ، ايها السادة ، فهذه الحقيقة يدعمها برهان بسيط . وذلك ان ايطاليا لا تزال في حاجة الى عمل اشياء عديدة قبلما تستقيم على قاعدة ثابتة وامامها عديد من المسائل التي اوجدها اتحادها الجديد والتي تحتاج الى حل سريع وامامها من العراقيل التي اوجدها التقاليد التليدة ما يحتاج الى التمهيد لتحقيقاً لهذا المشروع العظيم . ومن الضروري لكي ينجح مشروعنا ان لا يكون هناك سبب للشقاق والقطيعة وما دامت مسألة العاصمة لا تزال باقية معلّقة فان الخلاف والشقاق سيستمران بين الولايات الايطالية

ومن السهل ان نعرف السبب الذي من اجله يقترح البعض من ذوي الثقافة والنبوغ والنية الحسنة ان تكون العاصمة مدينة

اخرى غير رومية مستندي في ذلك الى اعتبارات فنية او تاريخية او غير ذلك . والكلام في هذا الشأن ممكن الآن ولكن لو كانت رومية هي العاصمة لما استطاع أحد ان يناقش في الموضوع . وحتى اولئك الذين يعارضون في اتخاذ رومية عاصمة الآن لن يعارضوا اذا راوا ان الفكرة قد تحققت . فالوسيلة لحسم النزاع والشقاق بيننا لا يكون الا باعلان رومية عاصمة لاطاليا

ومما يسوءني ان ارى ناساً من الممتازين بالرفعة والنبوغ ومن ذوي الما ثر في الاتحاد الايطالي يحجرون هذه المسألة الى مناقشاتهم فيحتاج بعضهم بعضاً بحجج الاطفال

ان مسألة العاصمة ايها السادة ليست من المسائل التي ينظر فيها الى الاعتبارات المناخية او الجغرافية او الحربية . ولو كان لهذه الاشياء شان لما كانت لندن عاصمة انجلترا ولما كانت باريس عاصمة فرنسا . كلا . انما تنتخب العاصمة لاعتبارات ادبية ومشيئة الامة هي التي يجب أن تكون الفاصلة في موضوع كهذا يلصق بها أشد الالتصاق

ففي رومية وحدها قد اجتمعت جميع الظروف التاريخية والذهنية والادبية التي تحتم جعلها عاصمة دولة كبيرة . فرومية هي المدينة الوحيدة التي لها من مآثرها التليد ما يخرجها عن ان تكون بلدة ذات اهمية محلية . فان تاريخها من عهد التياصرة الى اليوم هو تاريخ مدينة قد رفعتها اهميتها الى ان تدور حدودها والى ان تكون احدى عواصم العالم . فافتناعاً بهذه الحقيقة اراني مضطراً الى أن اصرح لكم وللامة والى ان اناشد وطنية كل ايطالي كما اناشد جميع نواب البلاد بوجوب وقف هذا النزاع حتى يتاح

لمثلي امتنا في البلاد الاجنبية ان يعلنوا ان الامة تقرنا على جعل رومية عاصمة الدولة . وأظن ان أولئك الذين يخالفوني لأسباب أعرف قيمتها وحرمتها يرون انني على حق في هذه المسألة . واذكروا اني انا لي مدينة اخرى (تورين) لا أستطيع أن لا ابالي بمشيتها وانه لمن بواعث حزني العميق أن انبيء أهل بلدي بأن ينكروا على انفسهم هذا الامل في جعل بلدتهم مركزاً للحكومة

اجل ايها السادة . اني باعتبار شخصي لست اسر بالذهاب الى رومية . فاني غير حاصل الا على القليل من الذوق الفني . فذلك عند ما اجدني بين اطلال رومية الذخيمة قديمها وحديثها ارثي لبلدي الساذجة الخالية من الخيال والفنون . ولكنني اثق بشيء واحد ألا وهو ان اهل بلدي بما عرفت من خلقهم وبما عرفت من استمدادهم للبذل والتضحية في سبيل انجاح قضية البلاد المقدسة ورغبتهم في التضحية لهذه القضية حتى وقت أن كانت بلدتهم تغزوها الاعداء - اقول اني لست اخشى ان لا ينصروني وانا نائبيهم وأن لا يبذوا مصالحهم في سبيل ايطاليا المتحدة

وان الامل بأن عاصمة ايطاليا ستكون « المدينة الابدية » يملأني عزاء بان هذه المدينة لن تنسى فضل تلك البلدة التي كانت مهد الحرية والتي غرست فيها غراسها فاثمرت وانتشرت فروعها من جزيرة صقلية الى جبال الالب

لقد قلت وأعيد قولي بأن رومية ورومية فقط يجب ان تكون عاصمة ايطاليا

خطبة لمازيني

كانت إيطاليا قبل أن تتحد وتصير مملكة واحدة يحكمها برلمان على رأسه الملك فكتور عمانوئيل جزءاً من الامبراطورية النمساوية وغنائم ممتصها بين أمراءها يسام أهلها الحسف ويجرعون كؤوس الذل حتى قيضت لها الاقدار ثلاثة من رجالها هم كافور وغازيالدي ومازيني قهضوا بالامة ونشروا لواء الاتحاد فانضوى اليه جميع ابناءها وقامت الحرب بين الناصبين الاقوياء وبين الوطنيين الضعفاء . فوجد الوطنيون من حقهم قوة تغلبت به على باطل الناصبين فانهمزموا وتركوا الحق لذويه والوطن لاهله . وكان مازيني (١٨٠٨ - ١٨٧٢) اخطب الثلاثة . وكان دفاعه عن قضية الوطن بالقلم اكثر مما كان بالسيف . وهذه الخطبة التالية القاها مازيني في ميلان سنة ١٨٤٨ تأييداً لشهداء كوستنسا الذين قتلهم الاعداء ويحاول فيها الخطيب اثارة الوطنية في نفوس ابناء بلاده . قال :

عند ما ندبني شبابكم لكي افوه ببضع كلمات تقديساً لذكر بانديره واخوانه الذين قضوا شهداء في كوستنسا خامرني الظن بأن بعض الذين سيسمعونني سيمهينون بي وقد أخذهم الغضب قائلين ، « دعنا من رثاء الموتى فإن التكريم الذي يليق بشهداء الحرية هو ان نظفر في المعركة التي شرعوا في القتال فيها . فان كوستنسا التي ماتوا فيها لا تزال مستعبدة والبنديقية التي ولدوا فيها لا تزال محوطة بالاعداء . فلانشرع في تحريرهما ولا ندع يمر بأفواهنا قبل تخليصهما سوى كلمات الحرب »

ولكن خطر بيالي شيء آخر . فأني تساءلت : لماذا لم نظفر للآن؟ ثم لماذا بينما نحن نقاتل للاستقلال في الشمال تموت الحرية في الجنوب؟ ثم لماذا بدلاً من أن نقاتل في حرب كان يجب ان نثب وثبة الاسد نحو جبال الالب نرانا الان وقد مضى علينا اربعة اشهر ونحن ندب

ديب العقرب المترددة قد حيطت بحلقة من النار؟ وكيف تنقلب نهضة امة قد شملها احساس قوي سريع الى جهد المريض الجازع يتقلب في ياسه من جنب الى جنب؟

اجل . لو اننا كنا ارتفعنا الى قداسة الفكر الذي مات من اجله هؤلاء الشهداء . ولو كان لواء ايمانهم المقدس يتقدم شباننا نحو المعركة . ولو كنا نحس ذلك الاتحاد الذي كان قويا في قلوبهم . ولو كان هذا الاتحاد يجعل من كل فكر من افكارنا عملا ويخلق من كل عمل من اعمالنا فكراً . ولو كنا ادخرنا كلماتهم الاخيرة في قلوبنا وتعلمنا منهم ان الاستقلال والحرية وحدة لا تنفصل وان الله والامة أو الوطن والانسانية كلمتان لازمتان لكل اناس يسعون في أن يكونوا امة متحدة . ولو كنا نعرف ان ايطاليا لن تعيش عيشاً حراً حتى تصير مملكة واحدة يزيها حبها لابنائها والمساواة التي تشملهم ويعظمها احترامها للحق الابدي وتستغرق جهوداتها الالمانية العليا فتصير بذلك اشبه بكنيسة ادبية بين امم اوربا . اجل . لو فعلنا ذلك لما كنا الآن في حرب بل لكان النصر يرفرف علينا . ولما كانت كوستنسا تحتفل بشهادتها خفية وسراً ولما كانت منعت البندقية من اقامة اثر لذكراهم . ولكننا الآن نهتف لاسمائهم لا نحامرنا الشك في مستقبلنا ومصيرنا ولا نغمننا سحبات الكآبة . ولكننا الآن نقول لأرواحهم : « ابتهجوا فان ارواحكم قد تجسمت في اخوانكم . فهم جديرون بكم »

ان الفكرة التي عبدوها لم تشرق للآن على اعلامكم بطهارتها وكما لها . وهذا البرنامج السامي الذي خلفوه للجيل الايطالي الناشئ هو برنامجكم . ولكن المذاهب الكاذبة المنبوذة التي سكنت الى

قلوبكم قد شوهت هذا البرنامج بل فتته ومزقته اربا . واني التفت ذات اليمين وذات الشمال فأرى جهود الجماعات وتقانيها وهي تتراوح بين الغضب تسخو فيه بنفوسها وبين الدعة تطمئن اليها فتزل عن مقامها . وما هو ان نسمع صوت الحرية حتى تطن في آذاننا كلمات العبودية . ولكن اين هي نفس الامة ؟ واين هو الاتحاد في هذه الحركة المختلفة الاشكال والجهود ؟ بل اين هي الكلمة التي يجب أن تسود على جميع النصائح التي تسدى الى الجمهور لاستهوائه أو استغوائه ؟ فاني أسمع أقوالا وعبارات هي بمثابة الافتئات على سيادة الامة . فهناك من يقول : « ايطاليا الشمالية » او « عصابة الولايات » او « اتحاد الامراء » ولكن ايطاليا أين هي ؟ اين هي البلاد التي تجمعنا والتي حيا فيها شهيدنا بنديره ... ؟ اننا ونحن في نشوة الانتصارات الاولى قد نسينا المستقبل ونسينا معه تلك الفكرة التي ألهمها الله اولئك الذين تألموا . وقد عاقبنا الله على نسياننا بتأخير انتصارنا . واذكروا يا اخواني ان هذه الحركة الايطالية هي بحكم الله حركة اوربا بأجمعها فاننا نهضنا لكي نسدي الى العالم الاوربي ضمانا لتقدمه الادبي . ولكن لا يمكن احياء أمتنا ورميها بالاكاذيب السياسية أو اطماع الاسر المائلة أو نظريات الوصوليين . وذلك لأن الانسانية إنما تحيا وتتحرك بالايمان وما المبادئ العليا الا نجوم هدى ترشد اوربا نحو المستقبل . فلتوجه نحو اجدات اولئك الشهداء الذين ماتوا في سبيلنا ولنستلهمهم نجد في عبادة ايمانهم سر الظفر والانتصار الا ان ملائكة الظفر وملائكة الاستشهاد اخوة وانما ينظر الاولون الى الارض ويتطالع الآخرون نحو السماء وعندما يحين

الحين وتتلاقى نظراهما بين الارض والسماء يزدان هذا العالم بحياة جديدة اذ ينهض شعب من مهد القبور . . .

احبوا ايها الشبان المثل الاعلى . احبوه واكرموا . فان المثل الاعلى هو كلمة الله . ففوق جميع الاقطار بل فوق الانسانية يوجد الوطن الروحي . مدينة النفس . حيث يؤمن الجميع بجرمة الفكر وكرامة النفس الخالدة وهم بهذا الايمان اخوان . وسبيل هذا الاخاء هو الاستشهاد . ومن هذا المستوى الاعلى تصدر المبادئ التي يكون بها فداء الامم . فانهمضوا لأجل هذا المثل الاعلى ولا تجعلوا سبب نهضتكم نقاد صيركم أو آلامكم أو خوفكم من المكافاة . واذكروا ان الغضب والكبرياء والطمع وشهوة الثراء عدة الغالب والمغلوب على السراء . وانتم لو هزمتهم عدوكم بهذه العدة اليوم فانكم مهزومون بها في الغد وانما ميزتكم في المبادئ اذ ليس لعدوكم سلاح يفلها . وعليكم ان تعودوا الى حماسكم الاولى والى احلام نفوسكم العذراء ورؤيا شبابكم الاول اذ فيها روائج الجنة التي تبقى في النفس من لدن تقفها الله فيها . واحترموا فوق كل شيء ضميركم ولا تنطقوا الا بالحق الذي زرعه الله في قلوبكم وارفعوا العلم الذي يعلن ايمانكم عند ما تستغلون مع غيركم لتحرير ارض الوطن

ان ما اقوله لكم هو ما كان يقول لكم شهداء كوستنسا لو كانوا للآن احياء بينكم والآن اشعر كأن هاتفا من ارواحهم قد استجاب الى حبنا فهي الآن تطيف بنا فادعوك الى ضم هذه الارواح اليكم كنزاً تدخرونه في وسط هذه العواصف التي تهددكم والتي سنتغلب عليها بقوة اسمائهم التي تلتفت بها شفاهنا وايمانهم الذي يجر قلوبنا كان الله معكم ولنزل بركاته على ايطاليا

خطبة لبت

كان وليم بت (١٧٥٩ — ١٨٠٦) خطيباً وابن خطيب نزع به العرق الدساس الى احتراف حرفة والده لورد تشاتام فصار زعيماً سياسياً كبيراً وخطيباً مصقلاً . وكانت مهمته التي ارصد لها حياته ووقف عليها بمجهوداته مكافئة نابليون . فقد الب على هذا الجبار الفرنسي دول اوربا وهياً له الجيوش والاساطيل . ولا يعلم ماذا كان يكون مصير العالم لو لم يخضد بت شوكة نابليون في بدايتها

وقد اقى هذه الخطبة عن « الخطر الفرنسي » بمناسبة الشطط الذي تناهت اليه الثورة الفرنسية وانتصارات نابليون الحربية . وكان البرلمان الانجليزي قد تهيأ لمنح روسيا امانة لكي تخلص اوربا من فرنسا . قال امام اعضاء البرلمان الانجليزي :

ان لنا من عزة النفس والولاء السامي وسجاجة الخلق وشرف الروح ما يعمر قلوبنا ويملاً نفوسنا بهجة فتمتاز بذلك على سائر الأمم ونجد في هذه الصفات ضماناً يؤمن بلادنا ويجعلها في حرز من من غزو المعتدين . اما بخصوص هذا الشيء الذي يقلق بال بعض الاعضاء - وهو تخليص اوربا - فاني لن اسهب في ذكر تفاصيله . فلن اقول انه يجب تخليص اوربا مما تعانيه الآن او مما تنتظر وقوعه في المستقبل او من عدوى المبادئ الكاذبة او من هموم هذا الزمن القاتلة او من انحلال الحكومات وموت الاديان وتهدم النظم الاجتماعية وغير ذلك مما سيلازم انتصار الجمهورية الفرنسية - اذا كانت لسوء حظ البشر ستنتصر على الرغم مما يصرف من الجهود في مكافئها . كلا لن اقول م يجب تنجية اوربا وتخليصها لأنه من السهل ان يجمع الانسان جميع الاخطار التي تتعرض لها اوربا فيجد انها بأجمعها عائدة الى وجود الحكومة الفرنسية وقوتها .

واذا كان ثمت من يصرح بأن هذه الحكومة ليست جائرة فهو مخطئ، اشد الخطا وجاهل بجهل حقيقة هذه الحكومة . ان جورها هائل كربه تقبض على حياة الخاضعين لها و ثروتهم فتصرف بها وتبذلها ضخمة لاطماعها وقسوتها وظلمها . ان هذه الجمهورية الفرنسية قد حيظت بسياج من الجرائم وهي انما تحتفظ بوجودها الآن لأنه ينظر اليها بعين الخوف والرهبة فلا يقترب من حصونها الكافرة احد الا ويرند فازعا

وعلى هذا المبدأ لا أظن أن العضو الموقر يخالفني في أن تأمين بلادنا هو غاية هذا الكفاح الشرعية . وفي هذا القدر ما يكفي لجمل كلامي مفهوما . اما سؤال العضو الموقر : « هل تريد الحكومة متابعة الحرب حتى تنهزم الجمهورية الفرنسية ؟ وهل نيتها ألا تعامل فرنسا مادامت جمهورية ؟ » فجوابي الصريح عليه اني اقول ان آرائي تعدو حدود البلاد الفرنسية . فاني افكر في سلوك فرنسا ومبادئها وخلقيها . وانظر في هذه الاشياء فارى فيها خراب الامم التي حالقت هذه الحكومة . وعلى ذلك اقول انه ما دامت هذه الكتلة الضخمة المؤلفة من الجنون لم تتغير تنيراً كاملاً . وما دام خلق هذه الحكومة باقياً كما هو . وما دمت لا استطيع ان اقول وانا مؤيد براي جميع الناس ان فرنسا لم تعد تزدري حقوق الامم الاخرى . وانها لا تدبر التدابير لبناء امبراطورية كبيرة . وانها قد اهدت الى حكومة تحتفظ بهذه العلاقات التي بينها وبين الامم الاخرى والتي لا يمكن اقواماً متحضرين ان يعيشوا آمنين بدونها والتي هي ايضاً مصدر مجدهم وذكرهم — اقول اننا لا يمكننا ان

نتعامل مع فرنسا ما دامت هذه الشروط غير متوافرة فيها
والوقت الملائم للمناقشة في الصلح هو الوقت الذي يمكنكم
فيه أن تثقوا بالوصول الى صلح شريف يعيد الى اوربا نظامها
القديم متزاناً وطيداً ويعيد الى كل دولة تدخل في المفاوضات تلك
المكانة التي تضمن استقلالها كما تضمن الامن العام في اوربا
هذا هو اعتقادي الذي لا أخشى الجهر به اعرضه على اذهان
الطبقات المفكرة في العالم البشري . فاذا لم تكن قد سمعتم السفسطة
الفرنسية وأزاعت ابصارهم فاني واثق من انهم سينصرونني في
اصراري على خطتي . واني ارجو رجاء حاراً أن تنظر الدول
المشتبكة في هذا الكفاح الى هذا الموضوع كما نظرت اليه . وارجو
على الخصوص ان يكون هذا هو نظر امبراطور روسيا وهو ما لا
اشك فيه . وعلى ذلك اطلب من هذا المجلس ان يوافق على المشروع
الذي عرضته حكومة جلالة الملك بخصوص اعانة روسيا

خطبة لولبرفورس

كان ولبرفورس (١٧٥٩ — ١٨٣٣) أحد أعضاء البرلمان الانجليزي
وقد أُرصد حياته لغرض واحد لم يعده الى غيره استغرق جهوده فعاش لهذا
الغرض ومات بعد أن تحقق أكثره ولم يبق الا أقله . فقد قام في ذهنه منذ
صباه أن الرق جور بالغ يجب قعه ومحوه . وكان الزوج في انجلترا الى عهده
« عبيداً » يباعون ويشترى ببيع السلع . ففضى ولبرفورس عشرين سنة في
اقتناع الامة والبرلمان بضرر النخاسة حتى اقتنع كلاهما بصحة مذهبته . فأنهى
البرلمان الرق في سنة ١٨٠٧ . ثم أخذ في اقتناع الامة بضرر النخاسة في
المستعمرات . وعرض مشروع الالغاء في البرلمان وقرىء القراءة الثانية ثم لم

تمض ثلاثة أيام حتى مات ولبرفورس . والقطة التالية مختارة من احدى خطبه عن الغاء الرق . قال :

اني مقتنع بأنه مهما اختلفت آراؤنا فاننا اليوم متفقون بجمعون . فاني لا أستطيع ان أعتقد بأن مجلس العموم الانجليزي سيصدق على هذه التجارة الجهنمية أعني تجارة الرقيق في أفريقيا . لقد مضى علينا وقت جهلنا فيه طبيعة هذه التجارة ولكنها قد تكشفنا لنا أساليبها الآن وظهرت عارية بجميع صنوف فظاعاتها . والحق أنه لم يظهر في العالم نظام شبيه بهذه التجارة من حيث أنها حافلة بالقسوة والشر . فهي تصل الى أبعد مدى في العدوان الملح والشر المصنفي وهي تستهين بالمازاحة وتجل عن المقارنة لأنها فريدة في تفوقها الممقوت

ولكني يا سيدي الرئيس أراني مقتبلاً اذ تقدم الجمهور البريطاني في هذه الفرصة وأعلن عن شعوره بوجه صريح بعيد عن الابهام في هذا الشأن . ولست أستطيع الأداء عما خامرني من السرور لفوز قضيتنا حتى صارت الأمة تنظر الى مسعانا نظر الموافقة والود بدلا من المقاومة وعدم الثقة السابقين . وقد كان من أثر هذا الشعور أن ارتفع المستوى الأدبي في البرلمان . اذ مهما ظن الناس او تحدثوا عن الخلافات الحزبية في البرلمان وتفشيها تفشياً مطلقاً فإن الأمة البريطانية بل سائر الأمم المحدقة بنا قد عرفت بأن هناك من الموضوعات ما هو فوق الأحزاب . فهناك الرباوة العليا التي ترتفع اليها بعيدين عن هذه النزاعات والخلافات التي يثيرها سافي السهول . واذا كنا نعيش ونحيا في جو حافل بالأنجحة والسحب تلعب بنا الاف الرياح المتعاكسة والتيارات

المتضادة فانا في هذه القضية نحيا الآن في طبقة عليا يكتنفها هواء صاف هادئ نقي قد خلص اليها من كل ما يثير القلاقل « كالصخرة العصماء ترتفع مشمخة نحو السماء فلا يبلغ مجهود العاصفة أن ينال نصفيها . تطيف بها حول صدرها سحب تمخر الأجواء ولكنها لمن تبلغ الرأس حيث أشعة الشمس الأبدية قد استقرت واطمأنت » فعلى هذه الرباوة العليا اذن يجب ان نبني « كعبة » الخير والبر وعلينا ان نوطد الأساس في الحق والعدالة وليكن منقوشاً على بابها « السلام والبر لجميع الناس » وهنا يجب ان تقدم باكورة نجاحنا وان نرصد حياتنا لخدمة هؤلاء التعساء تضطرم في احشائنا حماسة سخية تقتضي منا اصلاح ما جلبناه من الأذى على هؤلاء المساكين . فلنأسون الجراح التي فتنناها . ولنبتهج بأننا الوسيلة السعيدة لوقف السلب والخراب وبأننا قد ادخلنا الى تلك البلاد المترامية الأطراف بركات المسيحية ورفاهيات المتحضرين وحلاوة الحياة الاجتماعية . واعتقادي انه ليس بين من يسمعون من لا يرحب بقدوم هذا العصر السعيد ومن لا يشعر براحة العقل وسلوى النفس عند ما يفكر ويتأمل في هذه الخواطر الجميلة

خطبة لانجرسول

بعد انجرسول (١٨٣٣ — ١٨٩٩) من الطبقة الاولى بين مفكري الاميريكيين وخطبائهم وكان من خصوم المسيحية ولكنه كان على الرغم من ذلك محبوباً من الجماهير يتوافدون لسماع خطبه فيأخذ في اقناعهم (أو اغوائهم ؟) حتى يستهويهم بالفاظ وعبارات « لها انفاذ الموسيقى وإيقاع الاشعار حتى يكاد نثره يقرأ شعراً لما في تأليف جملة من الايقاع ». وهو مع كفره بالاديان ليس في اللغة الانجليزية من الخطب ما هو أحفل بالروح الدينية من خطبة القاها

عند وفاة أخيه تنبض بالمعطف والمحبة وتثبت أن النجرسول كان يؤمن بالحياة الاخرى . قال :

اخواني . اني سأفعل الآن ما وعدني به كثيراً هذا الفقيد ان يفعله لي . هذا الفقيد الذي كان أخاً وزوجاً وأباً فثبات في ضحوة الرجولة ولما يبلغ ظهيرتها والظل لما يزل يميل الى الغرب انه لم يحز في طريق الحياة تلك الأعلام التي تدل على انه قد بلغ اقصاها ولكنه شعر بالاعياء فانتحى جانباً من الطريق والتي عبثه على الأرض متوسداً اياه فأخذه نوم لا تكدره احلام واطبق جفنيه . فثبات وذهب الى عالم صامت عالم التراب وهو بعد متعلق بالحياة يطرب للعالم

ولعله من المفضل الأحسن ان تصطدم السفينة بالصخرة المختفية فتغوص في لحظة الى القرار تحت الأمواج المصطخبة والسفينة بعد في اسعد ساعات سفرتها تقبل الرياح اشرعها وتسكب الشمس اشعتها عليها لأن مصير السفينة الى التحطم سواء أكان ذلك في ارض الساحل ام في وسط البحر . وكل حياة بغض النظر عما اذا كانت حافلة بالحلب مزدانة بالسرفور ستنتهي في الختام الى مأساة بها من الحزن والظلام ما هو حري بأن ينسج من لحمه الموت وسداه

لقد كان هذا الرجل الشجاع الرحيم صخرة وسندياناً اذا عصفت عواصف الحياة ولكنه كان زهراً وكرماً اذا انجابت السحب وصحت السماء . وكان صديقا للنفوس الجريئة يرتفع الى القمم وينبذ تحت قدميه انحرافات بينما كان يتفجر من جبهته فجر ذهبي لعصر رائع

كان يعشق الجمال وكانت تنهمل دموعه اذا ما مس نفسه جمال اللون أو جمال الشكل أو روعة الموسيقى وكان ينصر الضعيف والمسكين والمظلوم وييسط يده برأ بالفقراء . وقد ادى ما عهد اليه من الخدمات العمومية بقلب ولي ويد طاهرة

وكان من عباد الحرية واصدقاء المظلومين . وكمن مرة سمعته وهو ينشد هذه الانشودة : « لاجل العدالة اقيموا كلكم معبداً » وكان يؤمن بأن السعادة هي خير ما في العالم وأن العقل هو الشعلة الوحيدة وان العدالة هي احق ما يعبد وان الانسانية اليتيم الاديان والمحبة افضل الكهان . فكان وجوده مما يزيد افراح اصدقائه ولو ان جميع الذين افادوا منه مصلحة حضروا اليوم الى قبره واهدى كل منهم اليه زهرة لنام هذه الليلة تحت عرم من الازهار

ان الحياة واد ضيق بين جبليين قاحلين من الابدية . ونحن انما نحاول عبثاً ان نخترق بصرنا هذين الجبلين . ونصيح صيحات عالية فلا يجيبنا غير صدى اصواتنا . ومن شفاه الموتى الخرساء لا تخرج لنا كلمة ولكن في ليل الموت هذا يرى الامل نجماً ويسمع الحب المنصت حفيف الاجنحة

وهذا الذي ينام الآن امامكم نوم الموت شعر وهو في النزع باقتراب الموت نخاله عودة الصحة فهمس كلمته الاخيرة : « حالي احسن الآن » فلنؤمن على الرغم من الشكوك والتحكات والخاوف والدموع ان هذه الكلمات العزيزة تصدق على جميع الموتى

واليكم انتم المصطفون من الاصدقاء الكثيرين الذين كان يحبهم وقد جئتم الان لكي تؤدوا هذه المهمة الاخيرة للفقيد نقدم رماده

خطبة لما كولي

كان ما كولي (١٨٠٠ - ١٨٥٩) من ادباء انجلترا المدودين « ما مس شيئاً الا زانه . فليس هناك ما يضارع ما كتبه ما كولي من المقالات الساحرة المتوهجة . وليس هناك من التواريخ مثلما الفه ما كولي من حيث القدرة على فتنة القارئ . وقد قيل عن اسلوبه انه يتسم بالقوة والنشاط والجزالة والوضوح وفوق ذلك تلك السمة التي قل وجودها الان وهي صحة اللغة »

وقد القى الخطبة التالية في سنة ١٨٤٦ عن « المعارف السطحية » قال :

ان من الناس الذين احب أن أتكلم عنهم بالاحترام والوقار من تعثره المخاوف التي لا اساس لها عما يسمونه « المعارف السطحية » فهم يقولون ان المعارف الجديرة بأن تسمى بهذا الاسم هي من البركات الانسانية وهي حليفة الفضيلة وبشيرة الحرية ولكن مثل هذه المعارف يجب أن تكون عميقة . فالجماعة التي قد شدت طرفاً من الرياضيات وطرفاً آخر من الهيئة وآخر من الكيمياء وقرأت شيئاً من الشعر وأصابت شيئاً آخر من التاريخ — مثل هذه الجماعة يقولون عنها أن وجودها مخطر بالمصلحة العامة . فالمعرفة السطحية في رأيهم شر من الجهل . وهم يستندون في زعمهم هذا الى قول بوب « اشرب حتى ترتوي والا فلا تذق » فالجرعة الصغيرة تسكر ولكن من عبّ افاق . . . واني اعترف بان هذه التخوفات لم تعترني يوماً ما وهذه الطمأنينة انما يبعثني عليها عدم استطاعتي التمييز بين المعرفة السطحية والمعرفة العميقة لانه ليس عندنا من المعايير ما نقيس به عمق المعارف . والقائلون بهذا التمييز يتوهمون وجود حد فاصل بين العميق والسطحي من المعارف

اشبه شيء بالحد الفاصل بين الحق والباطل . اما انا فلست اجد هذا الحد . هبنا تحدثنا عن رجال العلم العميق فهل نعني بذلك انهم قد بلغوا قرار العلم ؟ هل نعني انهم قد عرفوا كل ما يمكن معرفته ؟ بل هل نحن نعني انهم يعرفون الآن ما سيعرفه المبتدئون من الجيل القادم ؟ اننا اذا قارنا بين الحقائق القليلة التي نعرفها وبين ما نجعل من الحقائق التي لا تحصى لاعترفنا بأننا كلنا سطحيون ولكان فلاسفتنا أول من يقر بأنهم سطحيون . ولو فرضنا اننا سألنا عالماً مثل نيوتن عما اذا كان يعتد معارفه عميقة حتى في تلك العلوم التي لم يكن له فيها منافس لأخبرنا بان حاله كحالنا . فكلانا مبتدئ . وهذا الفرق الذي بيننا وبينه يزول عند ما يقارن بمدار الحقائق التي لا تزال مجهولة . كما يزول الفرق بين الواقف في سنجع الجبل والواقف على القمة اذا قورن بالمسافة التي تفصل الجبل عن النجوم الثابتة

فيظهر لكم من ذلك أن أولئك الذين يخشون المعارف السطحية لا يعنون بتلك المعارف ما يمكن ان يسمى سطحيّاً عند المقارنة بما لا يزال مجهولاً . لأن جميع المعلومات الانسانية كانت ولا تزال وستكون سطحية اذا نحن قصدنا الى هذا المعنى . فما هو اذن المعيار الذي يصح ان نتخذه لقياس المعارف وهل يجب أن يكون واحداً في جميع البلدان وفي جميع الاوقات

لقد كان « راموهون روى » يعد بين الهندود من اعمق الناس معرفة بالثقافة الغربية على انه لو وجد في هذا المعهد لعد من السطحيين الذين لا يؤبه لهم . وكان سترابو يعد بحق منذ ثمانية عشر قرناً من اعمق الجغرافيين في حين ان المعلم الذي يجهل اسم اميركا الان

يكون مضحكة بين البنات . وماذا نقول الان عن معارف عظماء الكيمائيين في سنة ١٧٤٦ أو عظماء الجيولوجيين في سنة ١٧٤٦ ؟
فالحقيقة الراهنة ان الانسان من حيث العلوم التدريبية في تقدم مطرد . ولكل جيل بالطبع صفوفه المتقدمة وصفوفه المتأخرة ولكن الصفوف المتأخرة في الجيل الجديد تأخذ مكان الصفوف المتقدمة في الجيل السابق

انكم تذكرون قصه جوليفر . فقد تحطمت به سفينته في بلاد يسكنها اقزام صغار فكان بينهم عملاقاً يخطو على اسوار عاصمتهم واذا انتصب فاق طول قامته منائر معا بدهم . فكان يجر اسطولا ملوكياً وكان يعد ساقه فيمر تحتها جيش الملك يحمل الرايات ويدق الطبول . فاذا افطر التهم احد اهرائهم واذا تعشى اكل قطعاً من مواشهم فاذا عطش عمد الى دنان النبيذ فشر بها جملة . ثم يسيح سياحته الثانية فيجد نفسه بين اناس يبلغ احدهم في القامة ستين قدماً فينبما كان يحتاج وهو في بلاد الاقزام الى ان يحمل الناس على يديه ويضعهم عند اذنه لكي يسمع ما يقولونه له اذا به تفعل به العمالقة ما كان يفعله مع اولئك الاقزام . يتفرج السيدات بمشاهدته وهو يقاتل الجرذان والضفادع والزناير . ثم يأتي قرد فيختطفه ويتسلق به احدى المداخن فاذا بلغ القمة ارداه فيقع في صحفة من القشده يسبح فيها ويخرج ناجياً بنفسه

لقد كان هذا الرجل في بلده الاصلية مثل سائر الناس ذا قامة اعتيادية فلما صار في بلاد الاقزام صار عملاقاً وعاد قزما بين العمالق . وهكذا الحال في العلوم . فعمالقة احد البصور قد يكونون اقزام عصر آخر

خطبة للورد رسل

كان لورد جون رسل (١٧٩٢ — ١٨٧٨) أحد رؤساء الوزارة الانجليزية وكان من أكبر زعماء حزب الاحرار في القرن التاسع عشر تحت رايته نشأ غلادستون وعلى يديه اشتد ساعد الاحرار حتى صاروا قوة يحسب لها المحافظون حسابها . ومن مآثره اصلاح طرق الانتخاب للبرلمان وكانت الاصوات تباع في زمنه بالنقد جهراً وكانت دواثرها لا تتناسب عدداً ومن ينتخب منها . وهو أيضاً صاحب الفضل في الغاء المكوس الجمركية على الحبوب الواردة لاجلجرا

وكان في الخطابة وسطاً لا يأتي بالدون ولا يرتفع الى الجيد الناصع ولكن خطبه كثيرة وأكثرها يتعلق بالشئون السياسية . وقد اتى الخطبة التالية في معهد الميكانيكيين في ليدس وموضوعها « قيمة الصدق في الاداب » قال :

ان سمة هذا الموضوع تجعلني اشعر بضيق الوقت اذا حاولت ان ابحث بعض فروعها . ولكن لي كلمة اجدني جريئاً على ان اقولها لكم وهي جديرة بان يعتبرها كل من يتصدى لدرس الآداب . ففي الادب عدد لا يحصى من التأليف تختلف من حيث الذوق ومن حيث الصيغة . فمنها الرزين ومنها الزاهي . ومنها ما يتطوح مع الخيال ومنها ما لا يحيد عن المنطق . ولكنها جميعها تحتاج الى شرط واحد هو في اعتقادي شمول الصدق لها . لقد قال أحد المؤلفين الفرنسيين ان الجبال ليس سوى الحقيقة وان الحقيقة وحدها هي الجميلة وان الحقيقة يجب ان تنبسط على الاساطير الخيالية . وهذا قول حق . لأنني أعتقد انه لا يمكننا أن نقيس الادب الخيالي وننقده تمام النقد الا اذا صدق تمثيله للطبيعة ولعلي أحسن الافصاح عما اريد اذا ضربت لكم مثلاً او

مثلين . فقد عاش في القرن الماضي شاعر قد ذاع صيته واشتهر بحق
بجزالة الخيال وقوة الاحساس أعني به : ينج . فانه على الرغم من
مواهبه لم يكن موفقاً في صدق الاداء . فقد قال في احدى
قصائده : « ان النوم مثل هذه الدنيا سريع الى زيارة من يبسم
لهم الحظ . بينما هو يهجر البائسين . ولا يقع الا على الجفون التي
لم تكدرها الدموع »

فاذا انتم حققتم النظر في هذه الكلمات رأيتم ان الشاعر قد خلط
شيئين معا . فقد خلط بين اولئك المجدودين الذين نالوا حظهم
من هدوء البال وكمال العافية وبين اولئك المجدودين الذين حصلوا
على الثراء . فانظروا الآن معي تجددوا ان اولئك الذين لم ينالوا حظهم
من هذه الدنيا ورأوها قد تنكرت لهم والذين لم يبتسم لهم الحظ
يهنأون بالنوم اللذيذ أكثر مما يهنأ به من يفوقونهم رتبة او ثروة
ولا شك في انكم تذكرون شاعراً آخر صادق التمثيل للطبيعة
أعني به شكسبير . فهو يذكر في احدى قصائده بحاراً صغيراً قد
اخذه النوم وهو في مكانه المزروع على الصاري تحفه رياح العاصفة .
بينما الملك لا يستطيع النوم في فراشه الوثير . فهذا هو الشاعر الذي
لا يعدو حقائق الطبيعة

فاذا أنتم نظرتهم في هذه الاعتبارات وقستم الشعر بهذا المقياس
وعولتم عليه ايضاً في درس التاريخ وغيره حصلت لكم قوة التمييز
وصرتم على بينة مما تقرأون فتعرفون عندئذ ما اذا كان جديراً
بانتباهكم واعجابكم او انه كثير الاغلاط غير جدير بالالتفات

خطبة للورد بيكونسفيلد

كان بيكونسفيلد (١٨٠٥ - ١٨٨١) يهودياً « طالب دنيا » نشأ على دين موسى فرأى اهل ملته مكروهين محرومين من بعض الحقوق المدنية فتقمص بلباس المسيحية ودخل البرلمان . فكان قريع غلادستون . كلاهما على طرفي تقيض وكلاهما يرمي الى غاية تختلف عن غاية الآخر . كان غلادستون حراً يقول بالديمقراطية . مسيحياً يخلص الايمان للمسيحية . وكان رجل ايثار ونبيل في العواطف اذا اهتاجته فاضت على لسانه وحياً يستطير لب الانجليز فيأتمرون بما أمر وينتهون بما نهى . وكان بيكونسفيلد على عكس ذلك . كان محافظاً يكره الديمقراطية ويحشاها . يهودي القلب في مصلاح المسيحي . لم يكن للعواطف عنده شأن تدفعه اثرته الى تجسم المشاق لكي يرضي كبرياءه . فكان لذلك يتخذ هيئة خاصة في لباسه وفي مشيته يروض نفسه على الكتابة والخطابة حتى بلغ فيهما شأواً عظيماً . ولم يكن المثل الاعلى في جميع أطوار حياته غايته لانه لم يكن له من غاية سوى مصلحته الذاتية . ولو لم يعيش في القرن التاسع عشر لكان هذا القرن خيراً واحسن أثراً في السياسة للشرق والغرب مما كان . فهو الذي جاهد غلادستون في منح ايرلندا استقلالها . والاستعماريون الانجليز يذكرون ويشكرون له صنيعه في جبل ملكة انجلترا « امبراطورة » على الهند

قال في احدي خطبه عن « اخطار الديمقراطية » :

اعتقد انه من الميسور أن نزيد عدد الناهخين في البلاد اذا بنينا هذه الزيادة على مبادئ لا تتعارض ومبادئ الدستور فلا يكون الانتخاب من حقوق الافراد بل امتيازاً يمتاز به الفرد لما اكنسبه من فضائل او لما له من ذكاء أو اجتهاد او استقامة ويستعمله للمصلحة العامة . فاذا أنتم اطرحتم هذه القاعدة ورضيتم بالنظرية القائلة بان لكل شخص الحق في الانتخاب ما دام لم تحكم عليه أحكام تحرمة هذا الحق فانكم بهذا العمل تهدمون أساس الدستور وتهدمونه بكيفية تسقط كرامة الامة

ان بين المشروع الذي عرضناه وبين ذلك الذي عرضه العضو المحترم فرق ما بين الحكومة الارستقراطية اي الحكومة المؤلفة من نخبة الامة وبين الحكومة الديمقراطية . واني أرتاب كثيرا في ما اذا كانت الديمقراطية توافق هذه البلاد . ومن حق هذا المجلس ان يعرف عند النظر في هذا المشروع ان ما يدعى اليه انما هو الاختيار بين المحافظة على الدستور الراهن أو قبول الديمقراطية وعلى المجلس أن يتذكر أن ما يعرض عليه الآن له قيمته من الثمن . فان شعبنا له صفات خاصة . وليس في العالم الآن أمة تعيش في مثل الظروف التي نعيش فيها . مثال ذلك ان لنا كنيسة قوية قديمة ذات اوقاف ثمينة ومع ذلك نعيش في حرية دينية تامة . ولنا نظام لا يختل ترافقه حرية مستوفاة . وعندنا ضياع واسعة تشبه ضياع الرومانيين ومع ذلك لنا نظام تجاري يفوق ما كان للبندقية وقرطاجنة مجموعتين . ومع هذه المتناقضات وهذه الخواص التي تتسم بها بلادنا نعيش في كنف حكومة لا تعتمد على القوة . فليس لنا جيوش مرابطة . كلا انما نحن تحكمنا مجموعة من التقاليد القديمة التي احتفظ بها آباؤنا جيلا بعد جيل علما منهم بأنها تخلد العادات وتقوم مقام القوانين وماذا فعلنا بهذه التقاليد ؟ أنشأنا بها أكبر امبراطورية في العصر الحاضر . وجمعنا من رؤوس الأموال مقادير تشبه ما يذكر في الأساطير . وأنشأنا نظاما من الاعتماد في الصناعة والعمل ليس له شبيه في التاريخ من حيث السعة والتراكب . وهذه الأعمال العظيمة لا تتناسب، وثروة البلاد وعناصرها الأصلية . فاذا أنتم هدمتم اساس هذه العظمة فازكروا أن انجلترا لا يسعها ان تبدأ من جديد إن هناك بلادا قد قاست آلاما مبرحة وتعرضت لأخطار

هائلة . ها كم الولايات المتحدة التي نزلت بها من المحن في أيامنا هذه ما سمعتم عنه . فقد رأيتم هناك حرباً أهلية يتناحرف فيها الاخوان عاشت مدى أربع سنوات . ولكن هذا الزمن على طوله وعلى ما كان فيه من عناء وخراب وكوارث لم يكن لمنع الولايات المتحدة من البدء ثانياً لأنها في حال تشبه تلك الحال التي كان يعيش فيها أسلافنا في حرب الورود (سنة ١٤٥٥) عند ما كان السكان لا يزيدون على ثلاثة ملايين نفس والبلاد تحتوي على ما لا يحصى من الأرض البكر والكنوز المعدنية التي لم تستغل بل التي لم تكشف بعد . وها كم فرنسا . فقد قامت في تلك البلاد ثورة في أيامنا هذه غير ثورة أخرى حدثت في عصر آبائنا . وكانت كلتاها انقلاباً حقيقياً غير قاصر على تغيير الأحوال السياسية والاجتماعية . فقد أقتلعت مؤسسات الأمة اقتلاعاً ومحيت فروق الهيئته الاجتماعية بل بلغ التغيير حد ابدال الاسماء والأعلام . ولكن مع كل ذلك استطاعت فرنسا ان تبدأ من جديد . وذلك لأن لها متسماً من الأراضي الزراعية في اوربا وسكانها كانوا ولا يزالون محدودي العدد يعيشون عيشة غاية في السذاجة .

ولكن انجلترا . هذه البلاد التي نعرفها ونعيش فيها ونزهي بها ليس في مقدورها ان تبدأ من جديد . ولست أعني بذلك انه اذا فشلت في انجلترا القلاقل ذهبت حضارتها وأصبحت خراباً ياباً . كلا . فان ذكاء الامة يعود فيأخذ في الظهور ويبقى شيء من الاخلاق ولكن انجلترا هذه التي نعهد بها فيها من مآثور الآباء وبأس الابناء وبما فيها من الاموال والنظم التجارية تزول . . . وأنا ارجو ان

الجلس عند ما يدرك أن المشروع يراد به طعن دستور البلاد لن يأذن بالتقدم خطوة واحدة نحو الديمقراطية إذ عليه ان يحافظ على النظام الحاضر الذي نعيش فيه على أرض إنجلترا

خطبة لغلادستون

تاريخ غلادستون (١٨٠٩ — ١٨٩٨) هو في الواقع تاريخ إنجلترا في القرن التاسع عشر أو على الأقل تاريخها في ثلثيه الأخيرين . فليس هناك مسألة مهمة تتعلق بسياسة البلاد في هذه المدة لم يكن لرأيه أثر فيها . وكانت الميزة التي أتمت بها شخصيته وجعلت الشعب الانجليزي يتقاع اليه اخلاصه . فلم يكن يعرف « دهاء » السياسيين أو أساليب المواربة وطرق الغش والتمويه وكان لسانه ترجمان قلبه . « ولم يكن له من يعدله في المناقشات البرلمانية في تاريخ البلاد وكان صوته بطبيعته جميلاً قوياً نافذاً يرن على أوتار جميع العواطف وقد كان مرانه الطويل في مجلس العموم سبباً في تنشئة مواهبه الى أقصى حد . وكانت طلاقة لسانه تبلغ به حداً فاحشاً بحيث تحمله فصاحته أحياناً الى غاية بعيدة ولكن المستمعين له لم يذنب يظهر عليهم مع ذلك انهم يسأمون الاصغاء اليه » وقد اخترنا القطعة التالية من خطبة القاها في جلاسجو في سنة ١٨٦٥ عن « الحروب والاستعمار » قال :

اذا رجعنا الى تاريخ الانسان في العصور الاولى نجد انه كان يعيش بلا قوانين تحدد حقوق الافراد فكان اول ما يحول بخاطر الفرد اذا أراد أن يصلح من شئونه ويزيد ثروته ان يغير على جاره وياخذ منه عنوة ما يملك . فكانت القرصنة والغزو في العصور الاولى يقومان مقام الحروب في العصور الحديثة . تسألون لماذا ؟ فلننظر في عبر الحرب

في الحرب فريقان لا يمكن أن يكون كلاهما على صواب بل يمكن أن يكون كلاهما مخطيء . واني اعتقد انه اذا نظر مؤرخ نزيه

في عدد عظيم من الحروب التي نشرت الخراب في العالم - بصرف النظر عن ذلك البمض الذي لا يشك فيه والذي سلت فيه السيوف في شأن الحق والعدل - فإنه يجد ان كثيراً منها قد أثاره الطيش والشهوات والطمع من الجانبين وان نتائج هذه الحروب كان الندم ولات ساعة مندم عند كلا الفريقين

ففي تاريخ العالم حروب دينية . وقد جزنا نحن هذا الطور . ولكنني لست واثماً من انه لم يكن لتلك الحروب ما يبررها من التعللات التي نجدها في الحروب الأخرى المدونة في التواريخ . فذلك الجنون الذي قاد الامم الى الحروب الدينية هو الذي ساقها بعد ذلك الى حروب أخرى غير دينية . فقد جرت حروب بين اعضاء الاسر المالكة ينازل بعضهم بعضاً ويسفكون دماء الامم التي يتقاتلون من أجل الاستئثار بالتسلط عليها . واعتقادي اننا قد جزنا هذا الطور ايضاً . وهناك حروب أبدي مدي وأخطر أثراً مما ذكرنا وهي تلك التي تهاج لأجل التوسع والامتلاك . ولست أشك بان بواعث هذه الحرب طبيعية في الانسان ولكنها بواعث اجرامية خطيرة واني شديد الاسف لما اجد الآن في أيامنا الراهنة من ان الرغبة في الامتلاك والتوسع لا تزال حية في قلوب امم تعيش في أقدم بلاد اوربا حضارة

ولكنني أريد أن ألفت نظركم الى الكيفية التي صارت بها هذه الرغبة في الامتلاك والتوسع سبباً في سفك الدماء واثارة الحروب بدرجة تفوق ما كانت عليه قبلاً . فانما كان ذلك وقت أن شرعت الدول الأوروبية في الاستعمار . كأنما قد ظهر لهم ان هذه الدنيا قد ضاقت بهم . لقد كنا نظن عند ما ننظر الى سعة هذا العالم

وعندما نجد ان قليلا منه مأهول الآن . وأقل منه كان مأهولا قبلا منذ قرن او قرنين من الزمان نرى انه لم يكن هناك ما يدعو الى الشجار لأن في هذه السعة مندوحة عنه . ولكن الاستعمار على الرغم من ذلك كان سبباً في الحروب الدموية مع جيراننا . وكان أساس هذه الحروب تلك الشهوة القديمة - شهوة التوسع وامتلاك الارضين . وبما ان احوال اوربا كانت قد استقرت واطمأنت ولم تجد الدول متسماً لمرضاة شهواتها في التوسع فيها كما كانت تجد لو كان الوقت وقت همجية وفوضى ذهبت بسلاحها وجيوشها عبر المحيط الاطلسي فنشبت هناك الحروب من أجل التوسع والامتلاك وهذا كان من شر أغلاط الانسان واليه تعزى أكثر حروب القرن الماضي . ولكن لو عرف آباؤنا كما نعرف الآن نعمة التجارة والتبادل الحر للبضائع لكانوا اذن في غنى عن جميع تلك الحروب . اذ ماذا كانوا يقصدون من تلك الحروب ؟

كانوا يرمون الى الاستعمار ولكن الغاية البعيدة التي كانوا ينظرون اليها في الاستعمار لم تكن الامتلاك فحسب وانما كانت زيادة ارباح الامة من التجارة بين المستعمرات وبين الدولة المالكة لها . ولهذا لم يكن خطأ الاستعمار قاصراً على أمة واحدة فان جميع الامم سواء في ارتكاب هذا الخطأ

هكذا كان خطأ اسبانيا في مكسيكا وخطأ البرتغال في البرازيل . وخطأ فرنسا في كندا ولوزيانا . وكان خطأ انجلترا في استعمارها الهند الغربية والشرق . وكان جماع الخطا في اعتقاد الجميع بانه متى استعمرت احدى البلاد القاصية صارت تجارتها وارباح هذه التجارة

وقمّا على الدولة المالكة لهذه البلاد دون أن ينال غيرها منها شيئاً . وكانت الحروب نتيجة هذا المذهب . لأن جميع الدول صارت تعتقد ان الاستعمار لا قيمة له ما لم يقصر امتياز التجارة على الدولة المالكة ومستعمراتها . ومن هنا نشأت أطماع الدول في الغارة على مستعمرات غيرها للحصول على هذا الامتياز

لقد قضى ذكاء الانسان المضلل في ذلك الزمن الذي أشرت اليه أن تكون التجارة التي يجب أن تكون سبيل الرابطة بين بني البشر سبباً في إثارة الحروب وتبريرها هنا في بلادنا وغير بلادنا ببرها عند الشروع فيها ونتمجد بها عند ختامها فناخذ من الجار مستعمرته ونعتبر هذا العمل توسيعاً للمعاملات التجارية وترقية للصناعة في بلادنا . لقد كان هذا خطأ مخطراً جنوبياً . وهو أحرى بهذه الصفات اذا اعتبرنا اننا نزعم اننا قد اقلعنا عن الطرق القديمة التي مارسها الانسان في العصور الاولى - طرق الغزو والنهب وملنا الى الصلح والسلام . ولكنني أرتاح الآن الى القول بأننا قد افلتنا من هذا الزعم الخادع . أجل ليس من الحكمة ان تفخر على آبائنا . لقد كانت أخطاؤهم تنسل اليهم انسلالاً فلا يلحظونها ولا يقدرّون جرائرها . ولعلنا نحن أيضاً في هذا المركز تتسرب الينا الاخطاء فلا نحس بها . وحقيق بنا أن نتواضع عند ما نقارن انفسنا بالبلاد الاجنبية الآن أو بالدول السابقة في العصور الماضية وان نقنع بالحمد عند ما نرى خطأ قد صحح وعلينا أن نصمم بالألا تعود هذه الاخطاء الى الوجود بل علينا أن لا نني عن معونة اولئك الذين لا يزالون يعتمدون صحة هذه الاوهام . ولست في حاجة الى القول بخصوص مستعمراتنا انها لم تعد سبباً في الحروب لاننا قد انتهينا الى الاعتقاد

بأن عظمة هذه البلاد لا تتأكد من حيث العلاقة مع هذه المستعمرات إلا اذا جعلناها تتمتع بجميع الحقوق والميزات التي تتمتع نحن بها . واذا اتفق أن وجدنا عدداً كبيراً من السفن الاميركية تتجر في كالكوته فلن يكون في هذا ما يهيج فينا عواطف الحسد بل على العكس نمتلىء سروراً . لان معنى هذا زيادة ثروة الامبراطورية الهندية وسعادة أهلها وكلما زادت هذه الثروة وهذه السعادة عاد علينا ذلك بالرجح بواسطة التجارة

خطبة لبسارك

كان بسارك (١٨١٥ — ١٨٩٨) « رجل الدم والحديد » جمع شمل الدوليات الالمانية العديدة تحت علم واحد هو علم الامبراطورية بقيادة بروسيا وكان رأسه من أضخم الرؤوس كما ثبت ذلك بعد تشریح جسده عند وفاته . فاذا كان ذكاؤه يعزى الى ضخامة هذا الرأس أو لا يعزى اليها فالواقع أنه كان من أذكي السياسيين . يدس الدسائس ويدبر الحروب بمهارة الالبسة . فحارب دانتاركا والنمسا وفرنسا وتغلب عليها وفي سنة ١٨٧١ في عقر دار المهزوم في فرساي توج ملك بروسيا امبراطوراً على المانيا . فلما تولى الامبراطور غليوم (الذي يعيش الان منفياً في هولانده) حسده على عظمته ورأى فيها ما يكسف ضوؤه فأخرجه من الحكومة

والقطعة التالية مختارة من خطبة ألقاها بمناسبة مشروع الدستور الالمانى الذي قدمه البرلمان الثوري ولم يكن هذا المشروع وفق هوى بسارك لانه لم ينص على سيادة بروسيا . قال :

ايها السادة . لقد آلمني أن أرى هنا بروسيين بالحقيقة لا بالاسم فقط يعضدون مشروع الدستور هذا بقوة وحماسة . ولقد شعرت بالهوان والصفار كما يشعر بهما الالوف من أبناء وطني عندما رأيت ممثلي الامراء الذين احترمهم في مقاماتهم الرسمية الشرعية ولكني

لا أدین لهم بطاعة أو ولاء قد صاروا بهذا الدستور سادة ذوي سلطان . ومما زاد مرارة هذا الشعور اننا في افتتاح المجلس رأينا المقاعد مزينة برايات تخالف رايات الامبراطورية الالمانية بل كانت على العكس من ذلك مدة السنتين الماضيتين شارة الثورة والتمرد . وهي رايات لا يحملها في ولايتنا باستثناء الديمقراطيين سوى بالجنود . يحملونها طاعة الاوامر والاسى ملء قلوبهم

أيها السادة . انكم اذا لم ترضوا الروح البروسية في هذا الدستور فاني اعتقد انه سيبقى حبراً على ورق . واذا أنتم حاولتم أن تسوموا البروسيين الاذعان لهذا الدستور فانكم ستجدون منهم ما وجدته الاقدمون من جواد الاسكندر ، بوكيفالوس ، الذي كان يحمل مولاه ويسير به جريئاً مبهجاً بينما هو كان يقذف الفارس الذي يتطال الى امتطاء صهوته ويلقيه على الرغام يتمرغ بذهبه وفروه وسائر حليه وملابسه . ولكن يعزيني الان اعتقادي الراسخ بأن الوقت لن يطول حتى تنظر الاحزاب المختلفة الى هذا الدستور كما نظر الطبيبان في أسطورة لافونتين الى جثة المريض الذي كانا يعودانه . اذ يقول أحدهم : « لقد مات . ولقد تنبأت بذلك منذ رايته » . فيقول الآخر : « لو انه استمع لنصيححتي لما مات »

خطبة لجون برايت

كان جون برايت (١٨١١ - ١٨٨٩) من احرار الانجليز ساعد غلادستون الايمن بعضده في كل مشروعاته وينافح عن سياسته . وكان خطيباً مفوها « قد منحه الله عطية الصوت اذا خطب سمعت منه موسيقى فصيحة تغور الى اعماق الشجن وترتفع الى قم الغضب »

وقد اخترنا القطعة التالية من خطبة له القاما في سنة ١٨٥١ عن عبء
الانظمة الحربية وما تكلف الامم من باعظ النفقات . قال :

اني أعتقد ان عظمة الامة لا تدوم الا اذا ثبتت على أسس
الاداب ولست أبالي بالعظمة الحربية أو الذكر الحربي . وانما
احق بالمبالاة والعناية أفراد الامة التي تعيش في ظهرايتها وأحوالهم .
انكم تعرفون انه ليس في انجلترا من هو أبعد مني عن قول السوء
في التاج والملوكية . ولكن اعلموا ان التيجان والصولجانات
والابهة الحربية والمستعمرات الواسعة والامبراطوريات العظيمة
هي كلها في رأي هباء كالهواء لا تستحق النظر والاعتبار الا اذا
كانت الامة حاملة على نصيب كاف من الرفاهية والرضى
والسعادة . فان الامة لا تتألف من القصور والآطام والابهاء
والدور الفخمة . فالأمم في جميع البلاد تعيش في الاكواخ واذا لم
يضيء الدستور هذه الاكواخ واذا لم تصل السياسة الرشيدة اليها
وينتطبع أثرها على أحوال سكانها وشعورهم فثقوا بانكم لم تتعلموا
بعد واجبات الحكومة

لقد حكى لنا أقدم المؤرخين ان الاسكيثيين كانوا في زمنه
أكثر الشعوب ميلا الى الحروب وانهم قد رفعوا صولجانا على
منصة رمزا «مارس» اله الحرب ولم يشيدوا لأحد من الآلهة مناسك
الا لهذا الاله . والآن أراني اتساءل عما اذا كنا نحن قد تقدمنا على
هؤلاء الاسكيثيين . اذ ماذا ننفق الآن على البر والتربية والاداب
والدين والعدل والحكومة المدنية وما هو هذا الذي ننفقه في جانب
نفقاتنا الحربية التي تقدمها ضحية على منسك مارس ؟
منذ ليلتين خطبت طائفة كبيرة من المستمعين في هذه القاعة .

وكانت هذه الطائفة مؤلفة الى حد عظيم من ابناء وطنكم الذين ليس لهم حقوق سياسية لا تبدو أنوار الفجر حتى يشرعوا في الانكباب على أعمالهم لا يتحولون عنها حتى المساء . ليس لهم من الاسباب والوسائل ما يعينهم على تفهم هذه المسائل المهمة . اما الآن فقد وفقت الى اسماع طائفة أخرى . فانكم تمثلون تلك الطبقة التي امتازت بتربية أوفى وحصلت على قدر أكبر من الذكاء في فهم بعض المسائل وفي ايديهم النفوذ والسلطة . . . ان في مقدوركم تكوين الاراء وايجاد السلطة السياسية ولن يخطر ببالكم فكر حسن عن هذا الموضوع تفضرون به الى جيرانكم . ولن تحدث بينكم وبين من يجتمعون بهم مناقشة تدلون فيها برأيكم حتى تؤثروا على سير حكومتكم اثرأ سريعاً محسوساً

وهل تسمحون لي بان أطلب اليكم ان تعتمدوا كما أعتد أنا اعتقاداً راسخاً ان القوانين الادبية لم تسن للافراد بل هي ايضاً قد كتبت للامم مهما كبر شأنها ، مثل هذه الأمة التي نحن أفرادها . واذا سخرت الامم بهذه القوانين الادبية ورفضت طاعة ف هناك العتاب الذي لا مفر منه . وقد لا يقع بها العقاب على الفور . بل قد لا يقع في حياتنا ولكن ثقوا بأن ذلك الشاعر الايطالي قد قال حقاً ونطق عن وحي نبوة عند ما قال : « سيف الله لا يتعجل ولكنه لا يتأخر »

خطبة لبوكر واشنطون

كان بوكر واشنطون (١٨٥٨ — ١٩١٥) زنجياً ولد في حجر العبودية في الولايات المتحدة الاميركية . فلما النى الرق وجد نفسه صبياً معمداً .

فالتحق بأحدى الكليات يخدم فيها ويتعلم . ثم ترك الكلية مشيعاً بصداقة جميع الذين عرفوه . وتعين ناظراً لأحدى مدارس الزوج وكانت مكتباً صغيراً ليس به سوى ثلاثين تلميذاً . فأخذ في ادارة المدرسة بهمة ومثابرة مدة عشرين عاماً يعلم فيها شباب الزوج ويمدّهم وينتفهم حتى صار عدد تلاميذه ١١٠٠ تلميذ وصارت قيمة مبانى مدرسته وأموالها أكثر من مائة الف جنيه . قال عنه أحد الاميركيين البيض : « لقد عاش بيننا رداً طويلاً من الزمن نبيل اميركي ذو بشرة سوداء ولد عبداً وضعاً فرفع نفسه بقوة الخلق العظيم حتى صار وطنياً مكرماً يعجب به كل رجل ذي أريحية في كل مكان »

وكان واشنطنون خطيباً مطبوعاً يخطب كما يتكلم فلم يكن يزين الفاظه بعبارات البديع أو يلجأ الى الحلاوة لان دعوته لم تكن ترمي الى الاغراء أو الاغواء فان غايته كانت الحق واقناع سامعيه به . وقد اتى الخطبة التالية في أحد المعارض في سنة ١٨٩٥ . قال :

ان ثلث السكان في جنوب الولايات المتحدة من الزوج . فليس ثم مشروع يقصد به اصلاح الاحوال المادية أو الادبية او المدنية لهؤلاء السكان يمكن واضعيه ان يهتموا فيه شان شعبنا الذي ننتمي اليه . واني ايها الرئيس والمديرون انما أنقل اليكم عواطف سواد الشعب الزنجي عندما أقول انكم عنيتم بتمثيل رجولة الزوج تمثيلاً سخياً في هذا المعرض الفخم في جميع ادوار تقدمه . وهذا العمل سيزيد الصداقة التي تربط شعبي الولايات المتحدة متانة أكثر من اي عمل آخر منذ تحريرنا

وليس هذا كل الفوائد التي سنجننها من هذا المعرض . فان فيه فرصة قد اتاحت لنا لكي نفتتح بيننا عصرأ جديداً للتقدم الصناعي . لقد بدأنا حياتنا في عهدنا الجديد ونحن منمورون بالجهل والغرارة لم نكسب علماً ولا تجربة . فلم يكن غريباً أن نبدأ من القمة لا من القاعدة . فصرنا نطمع في الحصول على مقعد في البرلمان أو في

مجلس الولاية التي نعيش في كنفها ونؤثر هذا على شراء العقار أو على محصيل الفنون الصناعية . فكانت السياسة والخطابة تغويننا فنزع اليها ونهمل الزراعة أو صنع الالبان

لقد حدث مرة ان احدى السفن الضالة في عرض البحار لمحت سفينة أخرى موالية قد ارتفعت لها على ثبج الامواج . فارسلت اليها اشارة عن صاريها تقول : « الماء . الماء . نحن نهلك من العطش » فجاءها الرد من السفينة الاخرى : « القوا دلوكم حيث أنتم » فاعادت السفينة المنكوبة اشارتها : « الماء . الماء . نحن نهلك من العطش » فجاءها الرد ثانياً : « القوا دلوكم حيث أنتم » وتكررت الاستغاثة مرة ثالثة ورابعة فكان الرد لا يتغير . وأخيراً رأى ربان السفينة المنكوبة أن يستمع لاشارة السفينة الاخرى . فالتى دلوه ورفعها اليه واذا بالماء عذب رواء واذا بالسفينة تمخر عباب نهر الأمازون عند مصبه . فالى اولئك الافراد الذين تجمعني واياهم الوحدة القومية والذين يطمحون الى ترقية احوالهم في بلاد أجنبية والذين يبخسون قيمة تحسين العلاقات الودية بينهم وبين جيرانهم من البيض اقول : « القوا دلوكم حيث أنتم » القوه وصادقوا جميع الناس الذين تعيشون بينهم كائنة من كانت الشعوب التي ينتمون اليها

أقول القوا دلوكم في الزراعة والصناعة والتجارة والخدمة المنزلية وسائر الصناعات . وبهذه المناسبة يجب ان تتذكروا انه مهما كانت خطايا أهل الجنوب وذنوبهم نحو الزوج ففي بلاد الجنوب وحدها يمكن للزنجي أن يجد الفرصة السانحة لكي يندمج في العالم التجاري . وهذا المعرض لسان ناطق بهذه الفرصة . وان اعظم

ما نتعرض له من الاخطار هو اننا في وثوبنا من العبودية الى الحرية قد ننسى انه يجب على سواد الشعب الزنجي أن يعيش بكديده . أو ننسى ان رقينا سيكون بنسبة اكبارنا وتمجيدنا للكدر والكدر وبنسبة ما نصرف من مهارتنا وأذهاننا على الصناعات الوضيعة . وان رقينا سيتوقف على التميز بين الحقائق والاهام في هذه الحياة وبين ما هو نافع مقيم وبين ما هو زينة زائلة . ولن يرقى شعب حتى يتعلم ويعرف ان افلاح الارض فيه من الشرف والجاه ما في كتابة الشعر . ويجب ان نبتهى من القرار لا من القمة . ثم لا ينبغي أن تلهينا ظلاماتنا عن انهاز الفرص

اما اولئك البيض الذين يؤثرون قدوم الاجانب ذوي الألسنة والعادات الغريبة لكي يشتغلوا معهم في اسعاد بلادهم على الزوج فاني أقول لهم كما قلت لاهباء قومي : « ألتقوا دلوكم حيث انتم » الغوه بين الالمانية الملايين من الزوج الذين يعيشون بينكم والذين لا تجهلون أخلاقهم وعوائدهم . الذين قد بلوتم أمانتهم وحبهم وقت عبوديتهم عندما كانت خيانة أحدهم تعني خراب البيت باجمعه . القوا دلوكم بين هؤلاء الناس الذين حرثوا أرضكم واحتطبوا لكم من غاباتكم وبنوا مدنكم ومدوا لكم السكك الحديدية وأخرجوا لكم الكنوز من بطن الارض وكانوا سبب رقي بلادكم — الذين فعلوا كل ذلك دون أن يلجأوا الى اضراب او اثاره حرب بين العمال واصحاب الاعمال . انكم ان فعلتم ذلك وعاونتم افراد قومي وشجعتموهم كما يفعلون الآن في هذا المرض وتناولتم رؤوسهم وأيديهم وقلوبهم بالتربية والتعليم وجدتم منهم من يشتري أرضكم

الفائضة فيمتلئ بور أرضكم بالازهار والانوار كما تمتلئ مصانعكم بالعمال

وأنتم في عملكم هذا ستأكدون في المستقبل كما كنتم في الماضي من وجودكم ووجود اسراتكم محوطين بأودع الناس واصبرهم وأكثرهم أمانة وأقلهم استياء في هذا العالم . وكما قد برهنا لكم على ولائنا لكم في الماضي نربي اولادكم ونرعى امهاتكم وآباءكم وهم في فراش المرض وتبعهم الى قبورهم أحياناً وعيروننا تفيض بالدموع فكذلك في المستقبل سنقف الى جانبكم وسترون منا برأ لا يجارينا فيه اجنبي ترتخص فيه الحياة في سبيل الدفاع عنكم وتشترك حياتنا بحياتكم في الصناعة والتجارة والدين بحيث تتحد مصالح الشعبين . وفي مقدورنا أن نفصل في الاشياء الاجتماعية كما تنفصل اصابع اليد ولكننا نصير كاليد كتلة واحدة متحدتين في جميع الشؤون الاساسية الخاصة بالتقدم المتبادل

خطبة لروزفلت

كان روزفلت (١٨٥٨ — ١٩١٩) رئيساً للولايات المتحدة الاميركية « وكان يتسم بالهمة التي لا تني . فادام هناك شيء جدير بأن يعمل فهو عنده ينهض به دون اكتراث للعوائق . . . وكان يضيف الى نشاطه الجسدي والعقلي نشاطاً أدياً لا يمكن لرجولة الرجل أن تتم بدونه . وكان من سمات أخلاقه شرف المقصد واحساس رفيع بالواجبات العمومية . . . ان روح الحضارة الاوربية الحقيقي كان متمثلاً تمثيلاً كاملاً في تيودور روزفلت » وقد اتى الخطاب التالي في سنة ١٨٩٩ في مدينة شيكاغو . قال :

أيها السادة : اني في مخاطبتي اياكم وانتم رجال أكبر مدينة في الغرب ورجال الولاية التي خرج منها لنكولن وجرانت وأنتم

الذين تمثلون احسن تمثيل الصفات الاميركية في الخلق الاميركي لا أريد ان احدثكم عن مذهب الدعة الخزية . بل سيكون كلامي عن مذهب حياة الكفاح . حياة الكد والجهد . والعمل والنزاع . أريد أن أعظكم برفع اشكال النجاح الذي لا يناله رجل الدعة ولكن يحصل عليه ذلك الرجل الذي لا يحجم عن المخاطر او المشقات او الكد المضمن وينال في الختام من كل هذه الاشياء نصراً عظيماً

ان حياة الدعة حياة الهدوء التي تنشأ من عدم الطموح الى تأدية الاعمال العظيمة او من عدم التندرة على الكفاح هي حياة غير جديرة بامة او بفرد . اني أطلب من الامة الاميركية ما يطلبه كل اميركي ذي كرامة من نفسه ومن أبنائه . فمن منكم يرضى بان يعلم أبنائه بانه يجب ان يكون للدعة والهدوء المحل الاول من اعتبارهم وان يكونا الغاية التي يطمحون الى تحقيقها ؟

انكم يا اهل شيكاغو قد جعلتم بلدتكم هذه عظيمة . وأنتم يا اهل اينواس قد قمتم بنصيبكم في رفع اميركا الى مقام العظمة لانكم لا تقولون بالدعة ولا تمارسون مذهبها . انكم تشغلون بانفسكم وتطلبون من اولادكم أن يشتغلوا مثلكم . فاذا كنتم ميسورين وكنتم تستحقون ثروتكم فانكم ستغرسون في نفوس ابناءكم انهم وان كانت لهم أوقات فراغ فلا يجب ان يقضوها في الكسل . لان أوقات الفراغ اذا أحسن استعمالها عادت باكبر الفوائد . لان الغني الذي لا يضطر الى الكد لمعاشه يجب عليه ان يقضي وقت فراغه في الابحاث العلمية او الادبية او الفنية او في الاستكشاف الجغرافي او التاريخي . فان هذه كلها اعمال

تحتاج اليها هذه البلاد ونجاحها جدير بأن يرفع شأن امتنا
 اننا لا نعجب برجل الدعة الذي يجفل من العمل . ولكننا
 نعجب بالرجل تتجسم فيه الجهود الظافرة . ذلك الرجل الذي
 لا يؤذي جاراً والذي يبادر الى معونة الصديق ولكنه مع ذلك
 حاصل على صفات الرجولة اللازمة في الانتصار في معارك الحياة
 القاسية . وليس من ينكر مشقة الفشل ولكن شر من الفشل ألا
 يحاول الانسان النجاح . وفي هذه الحياة الراهنة لا نحصل على
 شيء ما الا بالجهود . ومن ليس في حاجة الى جهد في وقته الراهن
 كان في حاجة اليه في الماضي وقد اختزن منه حاجته للمستقبل .
 فانما يتحرر الانسان من قيد الاضطرار الى العمل لانه هو أو آباؤه
 قد عملوا في الماضي ونجحوا . فاذا كانت هذه الحرية قد احسن
 استعمالها واذا كان صاحبها لا يزال يشتغل شغلاً من طراز آخر
 كأن يكون كاتباً أو قائداً أو يشتغل بالسياسة او بالاستكشاف
 فانه بعمله هذا يثبت جدارته لثروته . أما اذا كان يعتبر خلو باله من
 هموم الكدح للمعاش فرصة للتمتع بضروب اللذات فانه عندئذ
 يصير عالة على الناس ثم هو مع ذلك يجعل نفسه عاجزاً عن المنافسة
 والجهاد مع اخوانه اذا دارت الدوائر وتطلبت منه الاحوال ذلك .
 فان حياة الدعة ليست مما يرغب فيه لانها تعجز الذين يمارسونها
 عن العمل الجدي في هذا العالم

وكما يسري هذا على الفرد فكذلك يسري على الامة . وانه
 لمن الا كاذب السافاة ان يقال ان الامة التي لا تاريخ لها تكون
 سعيدة . فاسعد منها مرتين بل ثلاثا تلك الامة التي تباهي بتاريخ
 مجيد . والاقدام على جلائل الاعمال ونيل الفوز المجيد وان تحلل

ذلك حبوط المسعى خير من أن يعد الانسان في صف اولئك الضعاف الذين لا يتمتعون كثيراً ولا يتألمون كثيراً لانهم يعيشون في غبشة الغسق فلا يعرفون ظفراً او هزيمة . ولو ان الاميركيين الذين كانوا يؤمنون بالاتحاد في سنة ١٨٦١ كانوا يعتقدون ان السلام هو غاية الاماني وان الحرب والنزاع شر الاشياء ولو انهم عملوا بما آمنوا لكننا قد وفرنا دماء الالوف ومئات الالوف من النقود . ثم كنا الى جانب هذه الدماء وهذه النقود نوفر على النساء أحزانهم وخراب بيوتهم وكنا وفرنا على بلادنا تلك الايام السوداء عندما كانت جيوشنا تسير نحو المعركة فكانها تسير نحو الهزيمة فتملأ قلوبنا خزيًا وأسفا . كان في مقدورنا ان نتجنب جميع هذه الآلام بان نحجم عن القتال والكفاح . ولكننا لو كنا قد فعلنا ذلك اذن لصرنا ضعافاً انكاساً غير جديرين بالوقوف في مصاف الدول العظمى . فلنشكر الله انه مزج دماء آبائنا بالحديد . اولئك الرجال الذين نصرروا لنكولن وآمنوا بحكمته وساروا الى القتال تحت راية جرات . فعلينا نحن أبناء الرجال الذين ارتفعوا الى مستوى تلك الايام العظيمة . نحن ابناء اولئك الابطال الذين ساروا بالحرب الاهلية الى الفوز النهائي . علينا ان نشكر الله لان نصائح الصالح قد ردت وان الآلام والخسائر والاحزان قد قوبلت دون خور . لان ختام هذه الحرب قضى على عبودية الزنوج وعاد الاتحاد وظهرت الجمهورية الاميركية العظيمة ملكة متوجة بين الامم

وليس علينا نحن ابناء هذا الجيل ان نواجه مثل هذه المهمة التي وقعت على كواهل آبائنا ولكن لنا نحن ايضاً مهماتنا وويل

لنا اذا لم نؤدها . فلسنا نستطيع - حتى لو أردنا - ان نعيش كما يعيش الصينيون تبلى أجسادنا وعقولنا في دعة لا نهتم لما يحصل خارج حدود بلادنا نتخبط في المبادئ التجارية لا نغنى بالحياة العليا حياة الاماني والمكد والاختطار نقصر جهدنا على حاجات يومنا الجسمية . حتى نرى في احد الايام كما رأت الصين ان الامة التي تعيش في هذا العالم عيشة الدعة والسلام والبعد عن الطرق الحربية تنهزم امام الامم التي لم تفقد صفات الاقتحام والرجولة . فاذا نوبنا نية صادقة أن نكون امة عظيمة فعلينا ان نمثل دوراً عظيماً في هذا العالم . وليس من المستطاع ان نتجنب مواجهة المسائل العظمى . وكل ما علينا ان نقر على نوع هذه المواجهة ان حسناً وان سيئاً

خطبة للرئيس ويلسون

كل من يذكر الحرب الكبرى يذكر أيضاً ويلسون (١٨٥٦ —) أحد أساتذة جامعة برنستون ثم رئيس الولايات المتحدة . وقد قال أحد فلاسفة الاغريق ان الامم لن تسعد حتى تصبح قادتها فلاسفة وفلاسفتها قادة . فلما صار ويلسون الى مركز الرئاسة تطلع الناس ليروا ما سيجنونه من سياسة الفياسوف . وحدث في عهده أكبر أزمة كابدها الضمير البشري في تاريخ الانسان . وهي الحرب الكبرى . وكانت في لها حرباً مادية تستحقها الاطماع السافلة في امتلاك المال والمقار . فلم تكن تختلف عن حروب التوحشين الافريقيين الا من حيث الكمية لا من حيث النوع . ولكن الامم المتحاربة أرادت أن تجند المواظف وتعبى القلوب . فاخترعت الفاظاً لم تكن مأثوفة في الحروب السابقة مثل الحق والعدل وما اليهما . فاغتر بها الفلاسوف ويلسون وزج بأتمته في هذه الحرب ونال النصر ثم جاء السلم ففالتة الهزيمة . فقد حاطه ساسة أوروبا وأخذوه بأساليهم حتى خرج من قاعة المفاوضات في النهاية ولم يوح لمبادئه نصيراً

ولكن يكفي ويلسون فخراً أن يتهم عليه مسيو كليمانصو فيقول فيه
 « أنه يظن نفسه أنه المسيح »
 وخير للناس أن يخذعوا بالمبادئ العليا ويمتقدوا أنهم يؤمنون بها وأن
 تحقيقها مستطاع مثل ما فعل ويلسون من أن يؤمنوا بالحقائق وينزلوا عند حد
 الاطماع البشرية كما فعل مسيو كليمانصو
 وفي ما يلي يرى القاريء مثالا من خطب ويلسون وموضوعه : « الحرية
 الجديدة » . قال :

مهما أكثرنا من التفكير في حادثة استكشاف اميركا فان هذه
 الحادثة لا تزال تشير خيالنا وتهتاجنا . فقد سلفت قرون كان وجهه
 اوربا يتجه فيها نحو الشرق . فكانت طرق التجارة ودوافع
 النشاط تسير نحو الشرق . وكان المحيط الاطلسي أشبه شيء بالباب
 الخلفي للمنزل . ثم فوجيء الاوربيون باستيلاء الأتراك على
 القسطنطينية ووقوفهم سداً حائلاً بين اوربا والشرق . فكان على
 اوربا اما أن تتجه نحو وجهة أخرى واما أن تقف مشلولة الحركة
 لا تجد منفذاً لنشاطها . وفي النهاية أقدم الناس على هذا البحر
 الغربي المجهول مجازفين بارواحهم وعلم سكان الارض عندئذ ان
 أرضهم تبلغ ضعف ما كانوا يعتقدون . ولم يجد كولبوس كما كان
 ينتظر حضارة الصين بل وجد قارة غير عامرة . ففي هذا الجزء
 من العالم على هذا النصف الآخر من الكرة الارضية اتيسح للانسان
 في تاريخه الحديث ان يؤسس حضارة جديدة لها ميزة التجربة
 الجديدة

فمثل هذه الفرصة الفريدة جدرة بأن تحرك العواطف عند
 جميع من يتصورون في غرابتها وفي قيمتها . فقد يستطيع الانسان
 ان يؤلف آلافاً من التواريخ الخيالية لهذه الارض ولكن لا يبلغ

خياله الى اختراع قصة يكون فيها نصف العالم مغبوءاً حتى ينضج الزمان ويتهيأ للشروع في ايجاد حضارة جديدة . فقد كان طمع ربان سفينة في الاهتداء الى طريق بحري سبباً في امتياز أدبي للانسانية . فقد قدر للانسان ان يؤسس هيئة اجتماعية جديدة في هذه الارض الميمونة التي لم يقترب منها انسان كما كان يقول السباح الا ويبتعث بهواء الغابات الملهبة بالازهار ويطرب لخبر المياه الصافية التي تنساب بين اشجارها

فهذا النصف الآخر من الكرة الارضية كان راقداً ينتظر مس الحياة - حياة من العالم القديم حتماً ولكنها قد طهرت من الادران وعولجت من الاعياء لكي تليق بطهارة العروس العذراء

فكل هذا يستطير الخيال كانه رؤيا عجيبة بل تحفة جميلة لا يسخو الزمان بمثلها مرة اخرى

والآن نتساءل : ماذا كان في ما كتبه اولئك الناس الذين أسسوا أميركا مما يروج مصالح اميركا بالذات ويعود عليها بالفائدة وحدها دون غيرها ؟ هل تجدون الاثرة مكانا في هذه الكتابات ؟ كلا . فانهم انما كانوا يكتبون خدمة للمبادئ الانسانية ولتحرير الانسان . فقاموا بمقاييسهم الادبية هنا في اميركا على دعائم الأمل شعلة تستضيء بها أمم العالم وتشجع منها . واخذ الناس يأتون الى شواطئ هذه القارة وهم يحدوهم رجاء لم يكونوا يعرفونه من قبل وثقة لم يكونوا يجرأون على الشعور بها من قبل ثم وجدوا هنا عدة أجيال مكاناً قد انتشرت فيه الطمأنينة والامن وعرضت فيه لهم الفرص وصاروا فيه مستوين . وعسى الله - في هذه الاحوال المرتبة التي تحوطنا الآن - يلهمنا ان نرجع الى تلك المقاييس

ونقوم بمثل تلك الاعمال المجيدة التي يزدان بها ذلك العصر السعيد
لقد مرت بذهني مراراً عديدة صورة لتلك الشروط التي
تتألف منها الحرية . ولييانها لكم افرض أني اريد ان ابني آلة
قوية واني في اقامة أجزائها قد جمعتها من غير مهارة او لباقة بحيث
اذا اردت ادارتها وتحرك احد الاجزاء وقف في سبيل حركته
جزء آخر فينتهي الحال بوقوف الآلة . فخرية هذه الاجزاء تنحصر
في اجتماعها على أحسن شكل وتآلفها على أحسن وجه . فاذا
أردت من كابس الآلة البخارية أن يسير باكمل حريته فليس عليك
سوى أن تضمعه بحيث يأتلف بسائر أجزاء الآلة فلا يتعارض واياها
عند الادارة . فليست حريته في أن يكون منفرداً في عزلة على
حدة بل في وضعه وضعا ملائماً موافقاً بيد ماهرة في جسم الآلة .
فالحرية الانسانية هي كذلك تنحصر في الملاءمة والتوفيق بين المصالح
الانسانية والنشاط الانساني

فهل نحن في هذا المعنى الجديد محتفظون بالحرية في هذه البلاد
التي هي رجا هذا العالم ؟ فالجواب على ذلك يقيناً هو اننا قد سرنا
شوطاً بعيداً نحو الخيبة التي تجلب الحسرة والاسى للنفس . ونحن
الآن في خطر الوقوع في الخيبة انتامة الا اذا أمضينا نيتنا نحو الغاء
المظالم الدقيقة الخفية ووضعنا لكل منها العقاب الذي تستحقه
واياكم وخدع أنفسكم عن مبلغ نفوذ المصالح الكبرى التي تتحكم
في رقينا ومدى قوتها . فان لهذه المصالح من القوة والنفوذ ما يجعلنا
نرتاب في ما اذا كانت حكومة الولايات المتحدة تستطيع ان تتحكم
فيها . فاذا انتم تهاونتم واكتسبت هذه المصالح صفة دائمة لنفوذها

لصار عندئذ اصلاح الحال من الحال

اني أومن بالحرية الانسانية كما أومن بنميد الحياة . وليس في رعاية أصحاب المصانع للامة تلك الرعاية المؤسفة وفي تنازلهم للنظر في مصالحها ما يسير بالانسان نحو الخلاص . اذ ليس للأوصياء مكان في بلاد الاحرار لأن تلك السعادة التي تأتي عن طريق القوام لا يرجى لها دوام او بقاء

ان الاحتكار الذي يرمي اليه أصحاب المصانع يؤول الى قتل جهود الافراد . واذا ألح المحتكرون في الاحتفاظ بقوتهم فانهم سيقبضون بأيديهم على دفة الحكومة . ولست آمل أن يضبط هؤلاء الناس انفسهم لأنه اذا كان في البلاد أقوياء قادرين على أن يمتلكوا زمام الحكومة فهم هؤلاء الاقوياء . وعلينا نحن أن نستقر على قرار ونعقد نيتنا على وضع أيدينا على الحكومة . وهذا لا يكون الا اذ كنا رجالا بل رجالا عظاماً

ويجب علينا أن نزرع الشعور اللطيف والرحمة في قلوب الناس وذلك بان نجرد السياسة والاعمال والصناعة من جمود الاحساس والقسوة . فيجب أن تكون السياسة من الامور التي يستطيع رجل شريف أن يمارسها راضياً لأنه يعرف ان رأيه له من المكانة في القانون مثل ما لرأي جاره وانه ليس لرئيس المصنع او للمصالح الصناعية المختلفة تأثير عليه

خطبة للويد جورج

ولد لويد جورج في سنة ١٨٦١ واشتغل وكيلا للدعوى في ويلز وفي سنة ١٨٩٠ دخل البرلمان عضواً في حزب الاحرار وفي سنة ١٩٠٥ صار وزيراً للتجارة واحتفظ بمركز الوزارة الى ان جاءت سنة ١٩١٦ وكانت الحرب الكبرى في عنفوانها . فصار رئيساً للوزارة ورفع مستوى الجهود الحربية في إنجلترا وبقي في الرئاسة الى أن عقد الصلح على يده . ولويد جورج هو بلا مرأى « رجل الجماهير » يسائرهم ولا يقودهم الا عقد ما لا يجد خطراً في القيادة . بغيرهم وقد يفويهم . ولكنه اذا عاد الى نفسه وتبين خطأ رجوعه . وقد يكون رجوعه بعد أن تفوته الفرصة . ولكن الدم نصف التوبة . فقد أغوى الجمهور الانجليزي بضرورة محاكمة امبراطور المانيا وكسب الانتخاب بهذه الصيحة الحبيثة . ثم ندم فلم يذكرها ثانياً . وعقد صلحاً مع المانيا يقضي بفنائها . ثم ندم . فالف كتاباً يدعو فيه الى حياة المانيا من فرنسا . والخطبة التالية القاها بمناسبة دعوة صلح عرضتها المانيا حوالي سنة ١٩١٧ لم ترق الحكومة الانجليزية . قال فيها :

أقف اليوم في مجلس العموم وانا مثقل باروع تبعة يستطيع حملها أي انسان باعتباري الوزير الاول للتاج وفي وسط أكبر حرب خاضتها هذه البلاد وهي حرب يتوقف ايضاً عليها مصيرها . وقد تاكدت تبعة الحكومة وزادتها فداحة تلك التصريحات التي القاها الوزير الالماني وها انا ذا أتناول امامكم هذا الموضوع الآن . وقد جاء تنا على أثر هذه التصريحات التي القيت في الريحشتاج مذكرة من سفير الولايات المتحدة تتضمن هذه التصريحات دون أي تعليق من حكومته . . .

ولقد سرني غاية السرور ان فرنسا وروسيا قد أجابتا على هذه التصريحات الجواب الاول . وهما بلا شك لهما الحق في أن يجيبا

الجواب الاول . فارت العدو لا يزال في ارضها وضحاياها أكبر الضحايا . وقد نشر هذا الجواب في جميع الصحف وأنا أقف هنا بالنيابة عن الحكومة لكي أوازرهاتين الحكومتين في جوابهما مؤازرة صريحة . وهنا يجب أن أقول ان الرجل او الرجال الذين يتحملون تبعه تطويل مدة حرب هائلة كهذه الحرب بدون سبب وجيه انما يرتكبون جريمة لا تغسلها عن انفسهم بحار من الدموع . ثم ان رجلا او رجلا يكفون عن الحرب لما نال انفسهم من السأم والجهد قبل ان نحقق الاغراض العظمى التي دخلنا الحرب من اجلها انما يرتكبون انما من الجبانه والعار لا يعدله أي اثم آخر . وهنا يليق بي ان اقتبس من ابراهام لنكولن كلمة قالها وهو في ظروف مثل هذه التي نعاينها الآن : « لقد دخلنا ونحن نتوخى تحقيق غرض شريف وستنتهي الحرب عند ما يتحقق هذا الغرض . وادعو الله ألا تنتهي الحرب الا في ذلك الوقت » فهل نحن نحقق هذا الغرض بقبولنا دعوة وزير المانيا ؟ هذا هو السؤال الوحيد الذي يجب ان نلقيه على انفسنا

فشروط الصلح التي نقبلها هي كما قال مستر بونارلو : « رد المسلوب والتعويض والضمان بالا يحدث ما حدث من المانيا » ولكن لكي لا تتسرب الاغلاط - ومن المهم ألا تتسرب الاغلاط في مسألة موت ملايين وحياتهم - يجب أن أقول ان ما نطلبه هو رد المسلوب باجمعه . والتعويض التام . والضمانات الناجمة . فهل نطق وزير المانيا بكلمة تدل على انه يقبل هذه الشروط ؟ فهل المع الماعاً الى رد المسلوب ؟ وهل اقترح شيئاً بشأن التعويضات ؟ وهل قال شيئاً يدل على ضمان المستتبجل من أن

تحدث فيه مثل هذه الحرب الفظيعة تفاجيء بها ألمانيا الأمم عند ما تجدان الفرصة سانحة ؟ كلا . فان مادة خطبته وأسلوبها ينكران القواعد التي لا يمكن لصلح ما أن يقام على غيرها . فهو لا يعرف للآن ولا يشعر ان ألمانيا قد جنت على حقوق الأمم الحرة . فاصغوا الى قوله هذا : « ان دولتي الوسط لم تحيدا عن الاعتقاد لحظة واحدة بأن احترام حقوق الأمم الحرة لا يتناقض ومصالحهما الشرعية وحقوقهما » . فنتى عرفنا احترام حقوق الأمم الأخرى عند ما دخلت جيوشهما في بلجيكا ؟ لقد قيل ان ذلك كان دفاعا عن النفس . فلعل الألمان قد رأوا انفسهم مهددين بمخطر غزو الجيوش البلجيكية الحرارة لبلادهم فغزواهم بلجيكا وأحرقوا بلدانها وقراها وذبحوا الآلاف من سكانها كباراً وصغاراً واسترقوا بعد ذلك من بقي من الأحياء . فما هو الضمان لحي لا تعاد مثل هذه الأفاعيل حتى اذا تعاقدنا في صلح علمنا ان هذا الصلح قد ختم روح الحرب البروسية . وهل نحن نستطيع اذا لم نحاسبهم على ما جنوه من الفظائع في البر والبحر أن نصافح اليد التي ارتكبت هذه الأثام دون أن يدفع التعويض عنها ؟ ان علينا ان نطالب بالتعويض وقد شرعنا في ذلك . اننا تكلفنا كثيراً في هذه الحرب فنحن مضطرون الى الحصول على التعويض حتى لا نترك لاولادنا هذا الميراث السيئ

واذا كنت في هذه الحرب لم أكتثرت للدعوة الحزبية فذلك لأنني قد تحققت منذ اللحظة التي هدرت فيها المدافع وصبت الموت على بلاد صغيرة وديعة ان الألمان قد تحددوا الحضارة وقد أوقفونا حيال مسألة تعدوا الاعتبارات الحزبية . وهي مسألة يتوقف على

تسويتها حفظ الناس في المستقبل عند ما تتساقط الاجزاب الراهنة كالاوراق الجافة الميتة . فهذه اذن هي المسالة التي يجب أن تبقى ماثلة امام الامة وذلك لكي لا تعترى الشكوك عقائدنا ولا التردد قضيتنا . وفي كل حرب طويلة يجيء وقت ينسى فيه الناس وهم في وغرة القتال وحدة الشهوات ذلك القصد السامي الذي ادخلوا الحرب من اجله . فان هذه الحرب نزاع لاحقاق الحقوق الأئمية والشرف وحسن النية بين الدول . وهذه هي الطريق التي تؤدينا نحو السلام على الارض والارادة الحسنى بين الناس . فقد هدمت الاسوار التي كد في بنائها اجيال من الناس لكي يصدوا بها تيار الهمجية ولولم تدخل بريطانيا بقوتها الى هذه الثغرة التي انفتحت في اوربا لغمر هذه القارة فيضان من التوحش والجبروت المطلق

ان انتصار بروسيا يدع الانسان في حماة من الفظائع ويقضي على روح الانصاف بين الأمم وعلى نمو هذا الشعور الذي يقضي بحماية الضعيف من القوي كما يقضي ايضاً على هذا الشعور الاقوى بان للعدالة شيئاً ينصرها اسمى من الشره وأن انتهاك حرمة المعاملة الحسنة بين الأمم الكبيرة او الصغيرة يجلب على المنتهك العقاب العاجل الصارم . وهذا هو السبب في انني منذ بداية هذه الحرب لم اضع نصب عيني سوى قصد سياسي واحد قد جاهدت في سبيله وهو تخليص النوع البشري من اعظم نكبة نزلت به توشك ان تقضي على سعادته

فهرس الكتاب

صفحة	
٣٤	خطبة المأمون
٣٦ »	نحر الذين بن لقمان
٣٠ »	ابن الزكي
٤٦ »	لاديب اسحق
٥٦ »	لمصطفى كامل
٦٥	خطب اسعد زغلول باشا

الجزء الثاني

عيون الخطب الافرنجية

صفحة	
٧١	خطبة بر فليس
٧٤ »	لديموسبينيس
٧٧ »	لشيشرون
٧٩ »	للقديس برنار
٨١ »	ابوسويه
٨٤ »	لأفيلون
٨٦ »	لكرومويل
٨٩ »	للمارات
٩١ »	للأمارتين
٩٢ »	لأفكتور هييجو
٩٤ »	لكوشت

الجزء الاول

عيون الخطب العربية

صفحة	
٣	نبذة في تاريخ الخطابة العربية
٦	خطبة لقس بن ساعدة
٦ »	للنبي
٧ »	لابي بكر
٨ »	لأعمر بن الخطاب
٩	خطب أعلي بن إبي طالب
١٣ »	لأعواوية بن إبي سفيان
١٦	خطبة لزياد بن أبيه
١٨ »	لإيزيد بن معاوية
١٩ »	لأحمد بن الوائد
١٩ »	لأطارق بن زياد
٢١ »	لأعمر بن عبد العزيز
٢٢	خطبة لأقطر بن الفجاءة
٢٥	خطب لأحجاج
٢٨ »	لابي حمزة
٣١	خطبة للمنصور الخليفة العباسي
٣١ »	الخليفة المهدي
٣٣ »	لأهارون الرشيد

» ۹۸	افامبتا	» ۱۲۲	للورد رسل
» ۱۰۲	للنكوان	» ۱۲۴	للورد بيكونسفيلد
» ۱۰۴	لكافور	» ۱۲۷	لغلا دستون
» ۱۰۸	لمازيني	» ۱۳۱	لبسمارك
» ۱۱۲	لبت	» ۱۳۲	لجون برايت
» ۱۱۴	لواهر فورس	» ۱۳۴	لبوكر واشنطون
» ۱۱۶	لانجر سول	» ۱۳۸	لروز فيلت
» ۱۱۹	لماكولي	» ۱۴۲	لارئيس ويلسن

ملحق الهلال

الخط

تأليف

الدكتور نقولا فياض

عضو المجمع العلمي العربي في الشام

عنيت بنشره

إدارة الهلال بنمصر

سنة ١٩٣٠

تمهيد

الخطابة ضرب من الكلام يراد به التأثير في الجمهور من طريق
السمع والبصر معاً . وهي فطرية في الانسان كالغناء والنطق ولهذا
تجد آثارها عند الاقدمين في كتب الهند المقدسة وكتب مصر وفارس
والصين . ولا ريب ان الاعمال العظيمة التي خطت على جبين الدهر
من بطولة وكرم ومجد كان الدافع اليها خطب الافراد الذين امتازوا
بسرعة الخاطر وقوة العارضة وجرأة الفكرة وذلاقة اللسان . فمن
ابطال اميروس الى الاسكندر وقيصر ، الى بطرس الناسك وتوما
الاكوييني ، الى لوثر وكلفن الى ميرابو ودانتون وروبسيير ، الى دزرييلي
وغلادستون وتيارس وغامبتا ، الى جوريس بالامس وموسوليني اليوم
لا تزال البلاغة أداة الاقناع والعامل الأ كبر في انهاء المهم وتنبيه
العزائم وإذكاء الشعور بها آثار سولون حماسة الاثينيين غاضوا غمرات
الموت لاسترجاع «سلامين» ، وبها كان شيشرون يقود الشعب الروماني
المعلق بشفتيه من دار القضاء الى السوق ومن السوق الى دار القضاء
وبها اسكت ابو بكر أهل المدينة واخذ هياجهم بعد موت النبي
وبها اندلعت نيران الثورة الفرنسية فغيرت شكل الاجتماع ولولاها لما
سحرت الاديان عقول البشر ولا كان لها ابطال وشهداء في بدو
ولا حضر

والذي يتبادر الى الذهن ان قوة كهذه لا بد ان تكون قد اشغلت

القرائح والعقول وكانت موضوع الدرس العميق والبحث المستطيل . على أن الواقع بخلاف ذلك ومن بواعث العجب والأسف قلة الكتب التي خضت بها وندورة المحفوظ منها بين أيدينا ولا سيما عند العرب وهم كما نعلم من أخطب الأمم

ولم تبلغ حاجة الانسان الى التكلم في الاندية والجماهير مبلغها اليوم فان الرقي يسير بالانسان نحو التوسع في الاشتراك بالحكم وقد اصبحت المعاملات الاجتماعية اكثر تشعباً وتداخل بعضها في بعض تداخلاً لم يسبق به عهد واتسع نطاق التعليم وانتشرت أثار الثقافة مما جعل كل طبقة من الناس على كسب دائم من المؤثرات الخطائية

وكثير من الناس لم تؤهلهم المدارس الى تعلم الخطابة أو التمرن عليها وهم مع ذلك في افتقار شديد الى هذا السلاح لتعدد الفرص الداعية الى حمله من حفلات سياسية او عمرانية او غير ذلك

فضلا عن هذا فان المحاماة التي هي من أعظم المهن وأوسعها خدمة للمجتمع تتطلب البلاغة قبل كل شيء وليس في برنامج الدروس التي يتلقاها طلبة الحقوق ما يختص بتعليم الخطابة فاذا لم يتسن للطالب أن يستوفي حظه من هذا القليل فانه يختم دروسه ويحمل شهادته وهو لا يزال فقير المادة في الكلام قصير الحجة في الجدل لا يستطيع مع كل ما درس ووعى أن يجاري زملاءه القادرين في الدفاع عن الارملة واليتيم والمظلوم ولا أن يسمع في ندوة القضاء كما يقول هنري رويير « صوت الرحمة البشرية والعدل الانساني »

ثم ان الحكم الدستوري الذي تتمشى نحوه كل الامم يحتاج الى سلاح البلاغة والناخب يؤثر المتكلم الفصيح على سواه ولهذا تجد

كثيراً من المحامين على مقاعد النيابة في كل البلدان . وليس الوزير ان حقت سوى عام يدافع أمام المجلس عن واجباته وعن معاونيه وشركائه في المسؤولية . ما الفائدة من انتخاب مزارع مثلاً لوزارة الزراعة أو جندي للحرية أو تاجر للاشغال ؟ حسب الوزير أن يأخذ من كل علم بطرف على شرط أن يكون فصيح اللسان عذب البيان ليست الحاجة الى البلاغة مقصورة في الحياة السياسية على الحد الدستوري بل تمتد الى الدكتاتورية وربما كانت الوسطة الاولى التي تمهد لصاحبها طريق الرئاسة فان موسوليني أو مصطفى كمال أو لينين لم يستطع الانتصار على الحكم السابق الا بالكلام أولاً وعلى الجملة فان فوائد الخطابة أكثر من أن تحصى وهي تعم الكاتب والتاجر والسياسي والقائد والعالم والمربي وكل من كتب له أن ينزل الى ميدان الحياة ويدخل معترك الاجتماع ذلك ما حدا بي الى تأليف هذا الكتاب واضعاً فيه كل ما وقفت عليه في كتب القوم على ندورها أو عرفته بالاختبار ولا أدعي به القدرة على أن أخلق ديموستيناً أو شيشرونًا غير اني واثق انه يساعد القارئ على تحقيق رغبته في أن يكون يوماً من أبطال المنابر وقد أردت به على الخصوص خدمة المدارس على انه لا يخلو من اللذة والفائدة للمحامي والخطيب . والله من وراء كل علم

القسم الاول

البلاغة عليها وعملا

تعريف البلاغة

ان تعريف البلاغة صعب ككل تعريف . جرب مثلاً أن تعرف الذكاء أو الجمال أو الحكمة فقد تظن للوهلة الاولى ان ذلك سهل المنال ولا تلبث بعد الامعان أن تتبين خطأ ظنك فترى انه أسهل عليك أن تدرك الاشخاص أو الاشياء المطبوعة بطابع الجمال أو الذكاء أو غيرها من أن تحمل جوهر هذه الصفات عينها . كذلك البلاغة فاننا نفهم بلا تعب ان هذا الرجل أو هذا الخطاب بليغ ولكن الفهم شيء والتحليل شيء آخر

جاء في البيان والتبيين للجاحظ : قيل للفارسي ما البلاغة قال : معرفة الوصل من الفصل

وقيل لليوناني ما البلاغة قال : تصحيح الاقسام واختيار الكلام وفي العمدة لابن رشيق سئل بعضهم ما البلاغة قال : قليل يفهم وكثير لا يسأم

وقال آخر : هي إجاعة اللفظ واشباع المعنى

وقال آخر : معان كثيرة في الفاظ قليلة

وسئل بعض الاعراب من أبلغ الناس قال : أسهلهم لفظاً وأحسنهم

بديهة .

وقال غيره : البلاغة هي الإيجاز في غير عجز والاطناب في غير خطل

وقال عبد الحميد بن يحيى : هي تقرير المعنى في الافهام من أقرب

وجوه الكلام

وقال ابن المعتز : هي البلوغ الى المعنى ولما يطل سفر الكلام

وقال الخليل : هي ما قرب طرفاه وبعد متناه

وأشد المبرد في صفة خطيب :

طبيب بداء فنون الكلام لم يعي يوماً ولم يهذر
فان هو أطنب في خطبة قضى للمطيل على المزر
وان هو أوجز في خطبة قضى للمقل على المكث

قال أبو الحسن الرماني: أصل البلاغة الطبع . وقال غيره هي تقصير

الطويل وتطويل التقصير يعني بذلك القدرة على الكلام

وقال أبو العيناء البليغ من أجزأ بالقليل عن الكثير وقرب البعيد

إذا شاء وبعد القريب وأخفى الظاهر وأظهر الخفي

قال البحري في وصف بلاغة عبد الملك الزيات :

ومعان لو فصلتها القوافي هجنت شعر جرول وليد

حزن مستعمل الكلام اختياراً وتجنبن ظلمة التعقيد

وركن اللفظ القريب فأد - ركن به غاية المراد البعيد

وقال بعض المحدثين البلاغة : هي اصدار المعنى الى القلب في أحسن

صورة من اللفظ

ومن أقوال الثعالبي: أبلغ الكلام ما حسن إيجازه وقل مجازه وكثر

إيجازه وتناسبت صدوره وأعجازه وأيضاً: البليغ من يحوله الكلام على

حسب الأماني ويخطط الالفاظ على قدر المعاني

وسئل الكندي عن البلاغة قال: ركنها اللفظ وهو على ثلاثة أنواع

فنوع لا تعرفه العامة ولا تتكلم به، ونوع تعرفه وتتكلم به، ونوع تعرفه

ولا تتكلم به وهو أحدها

قال معاوية بن أبي سفيان لصحار بن عياش العيدي ما هذه البلاغة

التي فيكم قال: شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا فقال له رجل

من عرض القوم يا أمير المؤمنين هؤلاء بالبسر والرطب أبصر منهم
بالخطب فقال له صحر أجل والله أنا لنعلم ان الريح لتتقحه وان البرد
ليعقده وان القمر ليصبغه وان الحر لينضجه

وقال رجل للقباني ما البلاغة قال : كل من بلغك حاجته وأفهمك
معناه بلا إعادة ولا حبة ولا استعانة فهو بليغ قالوا قد فهمنا الاعادة والحبة
فما معنى الاستعانة قال أن يقول عند مقاطع كلامه اسمع مني وافهم عني
أو مسح عشونه أو يفتل أصابعه أو يكثر التفاته من غير موجب أو
يتساعل من غير سعة أو ينهر في كلامه قال الشاعر :

مليء بيهر والتفات وسعة ومسحة عشون وقتل الاصابع
وهذا كله من العي

وفي كتب الافرنج تعريفات شتى للبلاغة تقتصر على بعضها
قال لاهارب : البلاغة هي التعبير الصحيح عن عاطفة حقيقية
وقال تين : هي فن الاقناع

وقال : سورن هي الفكرة الصائبة أولا والكلمة الملائمة بعد ذلك
وقال بسكال : هي تصوير الفكر

وقال لابرويارد : هي نعمة روحانية تولينا السيطرة على قلوب الناس
وعقولهم

وقال دلامبر : هي فن اظهار الشعور

وقال فيري : هي حدة التصور وقوة التصوير

وقال لا كوردير : هي الروح التي تفلت من قيود المادة وترك
الصدر الذي يفلتها لترتمي في صدور الآخرين

وقد سمي شيشرون البلاغة. حركة النفس الدائمة . وأقام منها سنك
الهاك مجهولا في صدر الانسان . وجعلها كانتيليان الواسطة للحصول على

الحقيقة ووضعها كنار في القلب والتصور . وعرفها مارموتتل بأنها
فطرة قبل أن تكون فناً . ومثلها الاقدمون بهيئة إله يخرج من فيه عند
الكلام سلاسل ذهبية ترعني على السامعين فتربطهم بها

ولابن المقفع وصف طويل للبلاغة قال : البلاغة اسم جامع لمعان
تجري في وجوه كثيرة فمنها ما يكون في السكوت ومنها ما يكون في
الاسماع ومنها ما يكون في الاشارة ومنها ما يكون في الحديث ومنها
ما يكون في الاحتجاج ومنها ما يكون جواباً ومنها ما يكون ابتداءً ومنها
ما يكون سجعاً وخطباً ومنها ما يكون رسائل فعامه . هذه الابواب الوحي
فيها والاشارة الى المعنى والايجاز هو البلاغة . فأما الخطب بين السماطين
وفي اصلاح ذات البين فالأكثر في غير خطل والاطالة في غير امال
وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك كما أن خير أيات الشعر البيت
الذي اذا سمعت صدره عرفت قافيته

كل هذه التعريفات تنطبق على البلاغة الا انها لا تؤدي منفردة
كل ما في البلاغة من معان ولو أردنا أن نجتمع بين هذه الاقوال
ونؤلف منها حداً يني بتفسير البلاغة ويعرفها حسبما يراد منها في هذا
العصر وكما يجب أن يتصف بها خطيب اليوم لاضطررنا الى التمييز بين
البلاغة الكتابية والخطابية لانه متى كان الفكر صادقاً والتعبير موافقاً
فقد بلغ الكاتب ما يريد . وأما الخطيب فيحتاج الى شروط أخر لأن
من يتكلم ليس كمن يكتب وقد قلنا في صدر هذا المقال ان المراد من
الخطابة التأثير في الجمهور من طريق السمع والبصر فكان من الواجب
ارضاء هاتين الحاستين والدخول عليهما بما يقتضيه العطف والايناس
وهذا ما يحملنا على اضافة معنى آخر عند تعريف البلاغة ليس هو

الاقناع كما يقول تن بل كما يريد لا كوردير من ادخال عاطفة القائل في
نفس السامع واذن يمكننا تعريف البلاغة هكذا : صدق التفكير وحسن
التعبير وقوة التأثير
وسيرى القارئ فيما يلي من فصول هذا الكتاب قرب هذا
التعريف من الحقيقة

يقول المثل لا تعدم الحسنة ذاماً وكذا البلاغة فقد وجد من عاب بيانها وأنكر احسانها فقال بعضهم: ان ضرر البلاغة أكثر من نفعها لأنها تسدل على الحقيقة ستاراً من الالفاظ البراقة والمعاني الخلابة فتظهر الحق في صورة الباطل والباطل في صورة الحق

وقال آخر: البلاغة تفعل بالتأثير لا الاقناع لأنها تخدر حاسة النقد وتقيم أمرها بالاكرام بما تسوق اليه من تهيج الاعصاب وكلما زاد عدد السامعين زاد تهيجها فكان سلطانها أعظم تأثيراً وأبعد مدى

وقالوا: هي الأصل في كل عدااء والسبب لكل بغضاء ومن قديم الزمان الى الآن لا تزال حرب اللسان سابقة لحرب السنان وقالوا أيضاً: هي اداة نفاق لرجال السياسة يعملونها في كل ناد ويهيمنون منها في كل واد

وهذا بعض ما قيل في ذم البلاغة ولكنه على حد ما يقال في ذم الماء لانه يفرق والنار لانها تحرق أو ذم الدواء لأنه من جوهر سام ولو كان من ورائه الشفاء

وقد قيل عن الحضارة والرقى مثلما قيل في البلاغة فاشهروا افلاس العلم وعجز الارتقاء لانه لا يزال على الارض شقاء

واذا كانت البلاغة تستعمل احياناً سلاحاً للباطل فمن العدل أن يتخذها الحق ليحارب بها الباطل ولهذا جعل الاقدمون اللسان في اعلى مقام من الشرف وأدنى مكان من الامتهان

والحقيقة التي يجب ان تعلم وتقال هي ان البلاغة ليست تجارة كلام بل فناً خطير الشأن عزيز المذهب غايته تهذيب النفوس واصلاح الاخلاق وتنوير الازهان وكبح جماح الشهوات ودعم النظم والقوانين ورد الناس الى الصلاح وهديهم سواء السبيل

من هو الخطيب

هل يولد الانسان خطيباً كما يولد شاعراً أو بعبارة أصح هل يحتاج الخطيب الى ذلك الوحي الآتي من اعماق النفس كأنه انفجار باطني أم يكفيه العلم والممارسة ليجد سبيلا الى عقول الناس وقلوبهم ؟

من المعلوم ان النطق عمل منعكس من اعمال النفس البشرية كالصمت أو غيره فكما تجد من الناس من تخرسه مشاهد الوجود الرائعة فيقف منها موقف الدهشة والذهول لا يطيق حركة ولا يحتمل صوتاً تجد بعكس ذلك من لا يستطيع السكوت عما يحيش به صدره من مختلف التأثيرات كأنما هو يريد ان يشرك بها كل من حوله من حي وجماد . قال الاستاذ كركوس في كتابه فن التكلم في الجمهور ما معناه : تصور راعياً يسوق أنعامه في الحلاء وقد حيته ابتسامة الفجر وهو يفتح للشمس قصره الذهبي أو ناجاه الشفق الوردي وهو يخلع على الكون رداء السكون وانظر أي أثر يكون لهذا المشهد في نفسه فقد يقف صامتاً جامداً مأخوذاً بروعته وجلاله أو يتناول مزماره وينفخ فيه طرباً وزهواً أو اذا كان خطيباً يزفع رأسه وعينه ويدعو اليه قوى الوجود الخفية باحثاً عنها في الريح العاصفة أو الموجة الثائرة أو الفصن المائل مع الهواء أو الصخرة الصماء

فالخطيب اذا هو الذي تهزه المؤثرات الطبيعية فيتردد صداها فيه بالوحي ينزل على لسانه والبلاغة تدفق في يانه

هذا التعريف يختص بالبلاغة الفطرية ، وهي اليوم لا تكفي وحدها لمبلوغ الغاية من التأثير والجلوس على عرش الأشناع والقلوب . ذلك لأن اتساع دائرة المعارف الانسانية وتعدد وسائل البحث والاختبار قد جعلنا موقف الخطيب صعباً فهو يحتاج إلى ذخيرة من العلم كان الأقدمون في غنى عنها لافتقاره غالباً إلى إقامة برهان وتأيد حجة ودفع اعتراض واقناع فئة من الناس قد نضجت عقولها فهي لا تقبل بالكلام يرسل على عواهنه سواء أ كان هذا منها عناداً ودعوى أم رغبة بالعلم واستزادة من الفائدة

فالخطيب الذي يجمع إلى استعداده الذاتي وذكاؤه الفطري اضطلاعاً واسعاً ويكون موفور الحظ من العلم واللغة ليستطيع التكلم في كل موضوع بسهولة ورشاقة واقناع كما يقول شيشرون فهو المصقع البليغ الضارب على أوتار كل فؤاد

لا بد إذن للخطيب من الدرس والمطالعة لأن الحياة كما يشهدها ويقرأها هي ميدان عمله وليس فيها شيء لا يحتاج أن يسمعه أو يبحه أو يعالجه ولأن الروح كما قال فولتر نار إذا أنت لم تطعمها لتزيد وتقوى تناقصت وخبت

لقد أتى على الانسان مئات من السنين وهو يكتب ويخطب فما غادر الشعراء من متردم ولم يبق فكرة لم تمر بخاطر ولم تجر على لسان كما قال زهير

ما أرانا نقول إلا معاراً أو معاداً من قولنا مكروراً
فلا يجب أن يكون هذا مدعاة إلى شعور القارئ بقصوره عن

أن يأتي بأحسن أو بأكثر مما أتاه السلف بل ليذكر أن كل جيل من الناس ينظر الى الحياة نظرة خاصة به مستقلة عن نظرات غيره وهكذا يتجدد الحياة ومع الحياة يتجدد العمل فإذا جاز لنا أن نقول ما ترك الأول للأخ شيئاً فقد جاز لنا أن نقول أيضاً لقد ترك الأول للأخ كل شيء.

وللمطالعة شرائط لا بد من اتباعها إذا أردت أن تثمر وتنتج نتاجاً مفيداً وهي : أن تكون بتأن وترولاً إفراط ولا تفريط فالذين يفترضون الكتب افتراساً إن صح هذا التعبير لا تثبت قوة الاختراع فيهم أن تضعف والبداهة أن تضعع ولهذا لا تجد أدنى نسبة بين عدد الكتب التي يقرأها الرجل ودرجة ثقافته . أما من يتخذ القراءة ضرباً من التسلية ووسيلة لقتل الوقت فيقرأ كما يدخل متقلاً من كتاب إلى آخر دون ترتيب ولا نظام ولا غاية معينة فهو يستفيد القليل دون الكثير ولا يحفظ مما يقرأ إلا بقدر ما تحفظ العين من الصور المتحركة التي تتعاقب أمامها

كانت المطبوعات في القديم نادرة فكانوا يقرأون الكتاب الواحد مراراً ولا يعلن الرجوع اليه كلما قضت الضرورة وقد توالى أعصر والكتب المقدسة وحدها مرجع الخطباء المصاقع يجدون فيها ما أرادوا من وحي وإلهام . ولا ريب أن الاكتفاء بمطالعة كتاب مفيد ومراجعته خير من تقليب كتب عديدة لم تتضح فائدتها بعد

وعلى الجملة فالدرس والمطالعة أمران لا بد منهما لفارغ المنبر وقد قال الجاحظ : لا يحتاج في الجهل الى أكثر من ترك العلم وفي فساد البيان الى أكثر من ترك التبصر

تكلّمنا عما يجب أن يكتسبه الخطيب ليساعد القطرة ويزيد رأس ماله وينمي فيه قوة الاختراع ونأتي الآن على صفات أخرى لا تكتسب بالدرس وإنما هي تتعلق بالمزاج والاخلاق والتربية الادبية على الخطيب أن يكون .

أولاً - رابط الجأش ساكن الجوارح لا يأخذ منه الغضب ولا يفرغ عنده الصبر فإن الذي لا يكون سيداً على أهواء نفسه لا يستطيع أن يتحكم بأهواء سواه . وإذا احتاج إلى الغضب فليكن غضبه خطايا ، فكما ان للمثل يجتهد أن يجعل تمثيله طبيعياً مطابقاً للواقع ولا يمنعه ذلك من طلاء وجهه بالدهان فالخطيب يقدر أن يخلع على سحته ما يريد من اللامخ دون أن يمس إخلاصه أو يخل بموقفه الطبيعي

ثانياً - أن يكون بسيكولوجياً أي نقاباً صادق الحس ملهماً عجيب الفراسة بعيد مطارح النظر يدخل الى أعماق القلوب ويقف على مكونات الصدور ليخاطب كل فئة على حسب هواها ويحمل عليها على أقدار منازلها فلا يكلم سيد الامة بكلام الامة ولا الشباب بكلام الشيوخ ولا العمال بكلام أصحاب المال ويكون له فضل التصرف في كل طبقة

ثالثاً - أن يكون سلساً لين العريكة متضعا يمتزج بمن يخاطبهم ويقرب ما بينه وبينهم فيكون في الظاهر خادماً لهم وهو السيد للطلق . ويجاريهم في أهوائهم كلما قضت الحال لأنه لا يطاع الا اذا عرف أن يطيع كربان السفينة يلين للريح ويسايرها ليسلم بمركه فلا يتحطم دون الشاطئ .

رابعاً - أن يكون حاضر الذهن فلا يتجاوز في القول ما يسمعه

وكما أحس نبوة من النفوس عنه أو ملة للقلوب منه ألقى اليهم نعمة
جديدة وطلع عليهم بفكرة غير منتظرة فيمنع التأؤب والملل ويعيد
الانتباه الى مقره ويملك عليهم سمعهم وشعورهم لأن في الخروج من
معهود الى مستجد كما يقول الجاحظ استراحة للفكر ورياضة للخاطر
خامساً - أن يكون حي الجنان صادق البيان ليحرك من الأعماق
عواطف الحرية والانسانية والتقوى والفضيلة الراقدة في قلب كل انسان
ويمثل أمام تلك العيون المستعرة الناظرة اليه صور المجد والوطنية
ويبعث الكهربائية في نفوس سامعيه فيثيرم بإشارة من يديه ويهدئهم
بنظرة من عينيه

من الناس من تجتمع فيه هذه الصفات أو أكثرها ولا يوفق مع ذلك الى الاجادة في الخطابة لعيوب خلقية تمنع عليه سهولة المخرج أو جهارة النطق أو تكميل الحروف واقامة الوزن كالجلجلة (التردد في الكلام) والتمتمة (التمتع في التاء) والفأفأة (التمتع في الفاء) واللثغة واللفف وهو أن يدخل الرجل بعض كلامه في بعض والحبة وهي ثقل الكلام دون أن يبلغ به حد الفأفأة والتمتامة والحكمة أي نقصان آلة النطق وعجز أداة اللفظ فلا يسمع الصوت تماماً

أكثر هذه العيوب تبدأ في الصغر وأسبابها التعجل في الكلام وعدم التروي والتدقيق في التفكير والحجل الذي يستولي على المتكلم فإذا كبر زادها ظهوراً عدم التمرين والعادة والتقصير في درس الموضوع الذي يراد الكلام فيه أو في الاستعداد له أو في استظهاره وليست معالجتها بعيدة المنال ولا اصلاحها مستجيلاً فقد كان ديموستين ضعيف البنية والصوت فلما اعتزم الخطابة أخذ يقوي رثتيه وصوته بالصياح وهو يصعد الجبال الوعرة أو أمام شاطئ البحر مغالباً صخب الأمواج بمايدلك على انه بالتريية والتمرين وجهد النفس وأخذ للسان قد تجيب الطبيعة ويصلح التعهد ما أقصد الاهال

وأعم هذه العيوب وأكثرها شيوعاً اللثغة التي يحول بها اللسان من السين الى التاء ومن الراء الى الفين أو الياء وقد كان ديموستين يسعى الى سترها بوضع حصى في فيه عند الكلام وتكلف مخرج الراء على حقيقتها - وروى الجاحظ عن واصل بن عطاء انه كان قبيح اللثغة شديعها فحاول اسقاط الراء من كلامه وإخراجها من حروف منطقته فلم يزل

يكابد ذلك ويغالبه ويناضله ويساجله ويتأني لستره والراحة من هجته
حتى انتظم له ما حاول واتسق له ما أمل . قال الجاحظ وكان واصل
طويل العنق جداً وفيه قال بشار الأعمى :

مالي أشايح غزالا له عنق كنتنق الدو ان ولي وان مثلا
عنق الزرافة ما بالي وبالكم أتكفرون رجلا أ كفروا رجلا
فلما هجا واصلا وصوب رأي ابليس في تقديم النار على الطين وقال :
الارض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار

قال واصل بن عطاء : « أما لهذا الملحد المشنف المكتنى بأبي معاذ
من يقتله ؟ أما والله لولا أن الغيلة سجية من سجايا الغالين لبعثت اليه
من يبيع بطنه على مضجعه ويقتله في جوف منزله وفي يوم حفله ،
فتجنب الراء في كل الجملة وحين لم يستطع ان يقول بشار وابن برد
والمرعث جعل المشنف بدلا من المرعث والملحد بدلا من الكافر .
وقال لبعتت اليه من يبيع بطنه ولم يقل لأرسلت اليه وقال على مضجعه
ولم يقل على فراشه

وقد يفسد النطق عند الكثير من الخطباء بفساد طريقة التنفس
وجهلهم أصولها وقد شرحنا هذا في القسم الثاني من الكتاب ، أو لعله
في اللسان أو الشفاه أو في الاسنان من نقص أو تكسر
وخلاصة القول ان التغلب على هذه العاهات لا يتعذر على الحكيم
الصبور بالتمرين والحيلة والانتباه الدقيق والتأني في تلفظ الحروف
وما اليه

الانشاء الخطابي

للكتاب انشاء خاص ولل كلام انشاء آخر ومن يجيد الواحد قد يجيد الثاني بل ربما كان تناقض بين الاثنين فان السواد الاعظم من مشاهير الكتاب لم يكونوا خطباء وبخلاف ذلك قلما تجد بين الخطباء من لا يعد كاتباً

واذا كان الكاتب غير الخطيب فليس ذلك فقط لانه لا يعرف ان يتكلم كما يعرف ان يكتب بل لأن كتابته لا توافق المنبر فان المكتوب ينال بالنظر ويذاق بالفكر أما المقول فهو لا يصل الى القلب الا اذا مر في الاذن وللاذن احساس يجب ارضاءه ونعومة يحاذر من تخديشها والشعور الذي يثيره السمع ليس كالذي تولده القراءة فضلاً عن ذلك فان عقلية الجمهور المحتشد في مكان عمومي تختلف عن عقلية الفرد المعتزل في غرفته

إذن يوجد انشاء للسمع كما يوجد انشاء للقراءة فما هي اصول هذا الانشاء وقواعده ؟

قال ابن المعتز والشيباني ان البلاغة بثلاثة امور ان تغوص لحظة القلب في اعماق الفكر وتتأمل بوجوه العواقب وتجمع بين ما غاب وما حضر ثم يعود القلب على ما عمل به الفكر فيحكم سياق المعاني والأدلة ويحسن تنضيدها ثم يديه بألفاظ رشيقة مع تزيين معارضها واستكمال عاسنها

هذه الاركان الثلاثة التي تقوم عليها البلاغة هي ما يسميه الافرنج في تقسيمهم بالاختراع أو الابداع والتنسيق والتعير

فالاختراع هو استنباط الوسائل (*) الخليفة باقناع السامع
وتحريك عواطفه

* هذه الوسائل يقال لها الأدلة وتسهيلا لاستخراج هذه الأدلة قد وضع
الاقدمون من اليونان جدولا لما يمكن استعماله منها وأطلق العرب عليه اسم
مواضع قال ابن سينا ان الحجج في الجدل والخطابة تكتسب من المواضع فن طلب
الاقناع وهو لا يعلمها كان كحاطب ليل يسمى على غير هداية لا لبخل في
الموضوع بل لتقص في الاستعداد

وهذه المواضع تتناول (١) الحد (٢) التجزئة (٣) الجنس والنوع
(٤) العلة والمعلول (٥) المقدمات والتوالي (٦) الظروف (٧) المقابلة والمثابة
واليك بيانها بإيجاز نقلا عن المرحوم الاب شيخو اليسوعي

الموضع الاول : الحد

هو تعريف الشيء بجنسه وفصله كقولك الانسان حيوان ناطق أو بمميزاتة
وخواصه كقولك العقل وزير مرشد من أطاعه نجاة أو بالسلب والايجاب
كقول الشاعر

ليس من يقطع طرقا بطلا انما من يتقي الله البطل
أو بالتشبيه كقول ابن العربي
كتابي فيه بستانى وراي ومنه سمير نفسي والنعم

الموضع الثاني : التجزئة

هي تقسيم الكل الى أجزائه كما تقسم الكائنات الى حيوان ونبات وجماد
أو الحياة الى طفولة وشباب وكهولة وهرم فيثبت الخطيب للكل ما يثبت
لأجزائه كقول أبي العتاهية يصف أن الموت يعم البشر ولا يرد غاراته أحد
ما يدفع الموت أرجاء ولا حرس ما يغلب الموت لا جن ولا أنس
للموت ما يعد الاقوام كلهم وللردى كل ما شادوا وما غرسوا
أو ينفي عن الكل ما ينفيه عن الأجزاء كالو اراد أن ينفي السعادة عموما
في الدنيا فينفيها أولا في أشياء الدنيا من مال وجاه وغير ذلك . أو يقر

والتنسيق هو تنسيق وربط اجزائها بعضها ببعض وترتيبها ترتيباً
جميلاً بحيث تكون أبين غرضاً وأحسن في النفوس وقعاً (** *)

لواحد ما أنكره على بقية الاجزاء كاثبات تهمة القتل متلاً على واحد بعد نفيها
عن سائر المتهمين . أو يقرر لاجزاء الكل ما نفاه عن جزء واحد
كقول الشاعر

الاكل شيء ما خلا الله باطل

الموضع الثالث : الجنس والنوع

الجنس يدل على كثرة مختلفي الانواع والنوع على كثرة مختلفي الاشخاص
مثلاً : الحي جنس يشمل أنواع الانسان والحيوان والنبات والانسان نوع
يشمل الرنجمي والابيض وغيرهما والاستدلال بالجنس والنوع طريقتان الاولى
أن تطلق حكماً على الجنس ثم تثبته للنوع كما لو اردت أن تبين أن القناعة
محمودة فتثبت أولاً أن الفضيلة محمودة لان الفضيلة جنس يشمل القناعة. والثانية
أن تنفي عن النوع ما تنفيه عن الجنس

الموضع الرابع : العلة والمعلول

العلة على أربعة أنواع : الفاعلية وهي المؤثرة في المعلول كالبناء بالنسبة الى
الدار والغائية وهي ما كان لاجلها البناء كسكنى الدار هو الغاية من تشييدها.
والمادية وهي ما تألفت منه اجزاء الشيء كاللحجارة والخشب في بناء الدار
والصورية وهي ما قامت به ماهية الشيء كصورة الدار تميزها عن غيرها من
المساكن كالقصر والحجعة والكوخ

والاستدلال بالمعلول هو إن أردت أن تثبت حكماً لامر أو تنفيه عنه أن
تعدد مفاعيله الحسنة أو السيئة التي يستدل بها على صلاح العلة أو فسادها
اذ لاشيء في المعلومات الا وهو في عللها فتبني حكمك على مقتضى ذلك لترغيب
الجمهور فيه أو ورده عنه

الموضع الخامس : المقدمات والتوالي

المقدمات ماسبق المقصود والتوالي ماعقبه مثلاً ان أردت أن توجب السرقة
على انسان أمكنك ذلك بما تقدم العمل من اختفاء السارق أو تجسس وسوابق
التهمة وبما تلا العمل كاغتنائه بعد الفقر وانفاقه عن سمة وغير ذلك

والتعبير هو افراف المعنى في القلب الموافق والباسه الحلة اللاتقة به
ليصل الى قلب السامع من أقرب طريق وأسهل سبيل

الموضع السادس : الظروف

هي العوارض الطارئة على الامر المقصود فتلبسه لبوسها وتخرجه عن هيئته ونوعه وان لم تكن عن جوهره وحقيقته مثلاً : حادث قتل فانه لا يتم الا في زمن ومكان محصورين وبهيئة معلومة وبغاية محدودة وعن أشخاص معروفين فالزمن والمكان والهيئة والغاية وصفات الاشخاص كلها ظروف خارجة عن الامر لا تمس جوهره لانها تتغير والقتل يبقى قتلاً لسكنها تغير صورته وتخرجه من نوع الى نوع فيكون اما تعدياً واما دفاعاً واما غير ذلك

الموضع السابع : المقابلة

هي في اصطلاح الحكماء امتناع وجود شيئين في موضوع واحد من جهة واحدة كالجهل والعلم والزهد والطمع وما شاكل فانها تتناقى في موضوع واحد فان كان زيد مثلاً برأ بابيه فينكر عقوقه له وفائدتها زيادة جلاء الموضوع كما يقول الشاعر وبضدها تبين الاشياء والاحتجاج بالمقابلة على ثلاثة وجوه (١) أن تثبت أحد المتقابلين فتنتفي الآخر كقول علي بن أبي طالب يبطل زعم قريش في جهله لامور الحرب : قالت قريش ان ابن أبي طالب شجاع ولكنه لا علم له بالحرب . لله أبوهم ! وهل منهم أحد أشد مراساً وأطول تجربة مني لقد مارستها ابن عشرين وهائذا قد نيفت على الستين . (٢) أن تنفي أحد المتقابلين فتثبت الآخر كقول الشاعر

وكيف تريد أن تدعى حكيماً وأنت لكل ما تهدي تبوع

(٣) أن تستنتج من متقابلين نتيجتين متباينتين مثاله مقابلة الطرطوشي عدل السلطان وجوره

الموضع الثامن : المشابهة

هو عرض أمر على آخر ليتخذ منه دلائل على المقصود فان قلت حياة الانسان كسحابة استدلت على فناؤها وهي على ثلاثة وجوه (١) ان تعرض

ولكن هذا التقسيم يشعل الكاتب والخطيب معاً ولا يبدأ الفرق بين الاثنين الا عند الركن الثالث فان تعبير الخطيب يتبع الذوق وما

المقصود على ما هو أكبر وأكثر فتستدل على صحة ما هو أقل أو أصغر كقول أبي عبيدة يدعو أهل الشام الى فتح مدينتهم للعرب « لا يغرنكم عظم مدينتكم وتشديد بنيانكم وكثرة زادكم وهول أجسامكم فانا نزلنا بلاداً أخصب من بلادكم وفتحنا أمصاراً محصرة ومدائن أحرز من مدينتكم وخرج علينا أعلاج موفوزة أقواتهم مدرعون مترسون لا يقر لوجههم قرار فهوى نجمهم وذهب أماننا ريجهم ورددناهم على الاعقاب » . (٢) أن تمكس الآية كقول الغزالي يثبت أنه لا عجب من قصور الانسان عن ادراك الكمالات الآلهية اذ لا يدرك الحقائق الطبيعية نفسها وهي أقرب منه :

أنت أكل الخبز لا تعرفه كيف يسري فيك أو كيف يحول كيف تدري من على العرش استوى لا تقل كيف استوى كيف الوصول . (٣) أن يعرض المقصود على ما يشبهه بالمساواة كقول علي أحب لغيرك ما تحب لنفسك واكره له ما تكره لها

هذه هي المواضع التي يرجع اليها في كل بحث يراد الدخول فيه وهي ذاتية أي تستفاد من الموضوع نفسه كما ترى ولكن هناك مواضع عرضية تستفاد من التقاليد بالاستشهاد بالتواريخ والكتب المقدسة وأقوال المشرعين والحكم السائرة وما الى ذلك انتهى

(**) أما التنسيق وهو الركن الثاني من أركان البلاغة فهو الذي يقسم الخطبة الى ثلاثة أقسام المقدمة والاثبات والخاتمة

فالمقدمة تتناول براعة الاستهلال وتبيين الموضوع بصورة اجمالية واستمالة الحضور واسترعاء سمعهم وقد كان العرب يفتتحون خطبهم بالحمدلة ثم يردفون بالسلام على أنبياء الله وأصفياه ويأتون بفصل الخطاب وهو أما بعد . أما اليوم فقد استغنى أكثر الخطباء عن هذه التقاليد مكتفين بمقدمة وجيزة فيها ثناء أو اعتذار أو تنويه باهمية الموضوع أو غير ذلك من الاستشهاد بمثل سائر أو حكمة دائرة مما يشوق الحضور ويحملهم على الاصغاء

والاثبات هو عرض القضية وتأييدها بالحجج وتعزيزها بالادلة والرد على مزاعم الخصوم الى آخره والخاتمة هي آخر ما ينتهي الى اذن السامع من كلام الخطيب

يدعو إليه المقام من تقصير الجمل أو تطويلها والتكرار تارة والتسجيع
طوراً وانتقاء الالفاظ الموسيقية الخفيفة على السمع المؤثرة فيه أثراً حسناً
والتحليق في سماء الخيال حيناً والنزوع الى النكتة حيناً آخر مع تطبيق
ذلك على ما يضاف إليه مما يكمله كالاشارات والملاحم والنظرات ونبرات
الصوت وجاذبية الخطيب وسائر ما يمكن الانسان الحي أن يضيفه من
الحياة الى هذا الشيء الحي الذي يقال له خطاباً

وها نحن أولاء نبحت فيما يتعلق بهذا التعبير ونخلع على الانشاء
الخطابي مساحة خاصة جاعلين فصلاً آخر لما نسميه مكملات الخطيب
فيرى القارئ بعد هذا الشرح صدق التعريف الذي وضعناه للبلاغة
في أول الكتاب

ان الكلمات التي تألف منها الجمل هي كججارة الفسيفساء لها لونها الخاص وشكلها المحدود ولكنها تمثل صوراً مختلفة حسب تركيبها وتداخلها بعضاً في بعض . فكما انك قد تجعل من قطع الفسيفساء صورة تدل على القبح أو الحسن والألم أو اللذة وغير ذلك من الاضداد تبعاً للطريق التي تؤلف بها بينها كذلك تستطيع حسب اختيار الالفاظ وتركيبها أن تمثل هذه العاطفة أو تلك تمثيلاً كاملاً أو ناقصاً ولا يتم لك الاتقان الا اذا وقع اختيارك في موقعه وكان لك اللفظ الموافق والتعبير الصادق

قال الفلشندي ان الالفاظ من المعاني بمنزلة الثياب من الابدان فالوجه الصبيح يزداد حسناً بالحلل الفاخرة والقبيح يزول عنه بعض القبح كما ان الحسن ينتقص حسنه برثائه ثيابه وعدم بهجة ملبوسه والقبيح يزداد قبحاً الى قبحه . وقد قال أبو هلال العسكري في كتاب الصناعتين : ليس الشأن في ايراد المعاني لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي وإنما هو في جودة اللفظ وصفائه وحسنه وبهائه ونزاهته ونقائه وكثرة طلاوته ومائه مع صحة السبك والتركيب والخلو من أود النظم والتأليف

من الالفاظ ما هو غم كأنه يجر ذبول الأرجوان أنفة وتنبأ
ومنها ما هو ذو قعقة كالجنود الزاحفة في الصفيح
ومنها ما هو كالسيف ذي الحدين
ومنها ما هو كالنقاب الصفيق يلقيه الشعر على بعض العواطف ليست
من حداثتها ويخفف من شدتها

ومنها ما له وميض البرق
ومنها ما له ابتسامة السماء في ليالي الشتاء
من الكلام ما يفعل كالمقرعة وهو كلام الانتقاد والتنديد ومنه
ما يجري كالنبع الصافي وهو المعد للرضى والغفران
ومنه ما يضيء كالشهب وهو كلام التعظيم
كذلك من الألفاظ ما ليس له طابع خاص فيؤتى به لتقوية الجملة
ودعم المعنى فهو يلائم كل حال

تلك هي الأدوات المعدة لبناء الخطبة تتطلب مهندساً بارعاً ومصوراً
حاذقاً ليؤلف بينها تأليفاً موافقاً ويرصفها رصفاً حسناً ويخلع عليها
برداً جميل النسيج لاعم الديباجة يترجم معنى العظمة أو الجمال أو القوة
كما في حجارة النيفساء . وإذا وقف الخطيب عند انتقاء الألفاظ
ولم يعن بالتأليف والرصف فاته القصد وقصر دون الغاية من البلاغة
لأن الألفاظ حاصلة لكل إنسان دائرة على كل لسان ولا يمتاز جامعها
إلا بفضل تركيبها قال الجاحظ : أنظر إلى قوله تعالى : « وقيل يا أرض
ابلعي ماءك وياسماء اقلعي وغيض الماء وقضي الامر واستوت على
الجودي » وقيل بعداً للقوم الظالمين « وما اشتملت عليه هذه الآية من
الحسن والطلاوة والرونق والمائية التي لا يقدر البشر على الاتيان بمثلا
ولا يستطيع أفصح الناس مضاهاتها . على أن ألفاظها المفردة كثيرة
الاستعمال دائرة على الألسنة فقوة التركيب وحسن السبك هو الذي ظهر
فيه الإعجاز

ان البلاغة لا تقتصر على إفهام السامع كلام القائل وإلا لتساوت
الفصاحة واللكنة والملحون والمعرب وإنما المقصود الإفهام على سنة كلام

البلغاء بأن « يجعل لكل طبقة كلام ولكل حال مقام » وان يخلع
الخطيب من ألفاظه على معانيه حلة نور وضياء ليتسنى للسامعين أن
يشاركوه في تلك الرؤيا الجميلة التي تتجلي في ذهنه وبين تصوراته
ولا يكون الخطيب فيما يقول كالرجل الذي يكثر من الاشارات في الظلمة
ثم هو يتعجب كيف لا يراه الناس

ان الاساس الذي يبنى عليه الانشاء الخطابي هو العاطفة والشعور لأن الغاية الأولى من الخطاب هي أن تنقل ما في قلبك من الاحساسات إلى قلوب سامعيك قال دلامبر : « ان الذي يكتفي بالاقناع دون التحميس فهو متكلم لا بليغ » . وقال رفالور : « ان الأهواء والعواطف هي الخطيب في الجماهير » . وقال ميرابو : « السر كل السرفي البلاغة الخطائية أن يكون الانسان ملتبهاً بالعواطف » . قال الحسين : « وسمع متكلماً يعظ فلم تقع موعظته من قلبه بموضع » : يا هذا ان بقلبك لشرراً أو بقلبي ، يريد ان الكلام الخالي من العاطفة قد يكون مفعماً بالحقائق ، ولا يجد مع ذلك سبيلاً الى النفس

وبما أن الشعور هو اساس الخطبة كانت البساطة أجمل حلة يلبسها الانشاء الخطابي ولا أعني بذلك أن يكون الكلام مبتذلاً عامياً بل أن يوافق الزمان والمكان فللمعاني العظيمة كلام عظيم كما يناسب . ولا يستلزم كون الجمهور من العوام أن ينزل الخطيب بأساليب التعبير عن مقامها بل عليه أن يرفع العامة نحوه لأن الفن فن أينما كان

وبعد العاطفة يأتي الخيال والتصور الشعري لما فيها من حلو الثقيل الذي يسوق اليه التلاعب بالمعاني ونتيجته تجديد الانتباه عند السامع ودفع الملل عنه فضلاً عما يكتسبه الخطاب من جميل الألوان وبديع الزخرفة وجديد الصور كما سترى في غير هذا المكان

ولكن للتصور والخيال حدوداً اذا تعداها الخطيب وقع فيما حاذره ومهما يكن من أهمية الموضوع وجمال الصور المعروضة فان الاسهاب أو الضرب على وتيرة واحدة يتعب السامع ويفضي به الى السأم . ألا ترى ان اطالة النظر الى الغدير الجاري والاستمرار على سماع خريره العذب يفضيان بنا الى النفاس؟ بل ان هدير الامواج المتصاخبة، وزئير الرياح العاصفة ولعلعة الروعود على ما فيها من تهيج الاعصاب تنتهي بنا الى النتيجة عينها اذا طال أمرها وتكرر حتى تألفه الاذن ويأمن منه الحاطر . كذلك انشاء الخطيب اذا ازدحم فيه المعاني الشعرية وتكاثرت فيه صور الخيال ، فان العقل يتعب والانتباه يتبدد ولا يبقى من الخطاب في اذن السامع الا سلسلة أصوات متعاقبة كأنها آتية من أعماق النوم

أما الاكثار من الادلة المنطقية والاغراق في الشرح والتفصيل
والاسهاب في البيان والتعليل فذلك جائز في نثر الكاتب لان للقارىء
ممتسعا من الوقت للتأمل والتبحر بخلاف السامع الذي يتلقى الجملة بعد
الجملة ولا قبل له بالمراجعة أو التوقف بل تراه مضطراً الى اتباع الخطيب
والتقاط أقواله المتدقة على سمعه ولهذا كان من اللازم أن تأتي هذه
الاقوال واضحة صريحة مختصرة تفعل بالجزم والتأكيد أكثر مما تفعل
بالبرهان والمنطق

ان القارىء حر في مواصلة قراءته أو الوقوف للاستراحة والتأمل
وأما السامع فهو معلق بشفتي الخطيب محمول معه في كل ناحية لا قبل له
بالوقوف أو الاعراض دون أن تنفصم عرى الالفه بينهما فيذهب من
الخطاب رونقه أو بعض رونقه ، وتفوت السامع فائدته أو جزء
من فائدته

وبقدر ما يقتصد الخطيب على السامع في الفاظه وجمله يوفر من
انتباهه لادراك معانيه والتأثر بها لان اللغة كما لا يخفى هي في آن واحد
آلة للنقل وعائق دونه

فالانشاء الخطابي يختلف كثيراً عن الرسائل لاضطرار الخطيب
أن يتبع فيه أحوال نفسه والمكان الذي يتكلم فيه والجمهور الذي يصني
اليه فتكون اللفظة في وزن الاشارة والمعنى في طبقة اللفظة فيفصل بين
الجل ويكرر بعض الالفاظ مسهباً هنا موجزاً هناك متمهلاً في بعض
المواضع مكرراً في غيرها واقفاً حيناً يرى ضرورة الوقوف لترك السامع
عجلاً يستوعب فيه ما أراد أن يلقيه اليه أو يقصر انتباهه عليه

على كل حال فان آفة الخطابة التطويل ومهما تكن العبارات متناسقة والانشاء رشيقاً والموضوع شيقاً والخطيب ممتازاً فما منع ذلك أن يكون السامعون بشراً مثله لهم آذان تصم اذا أجهدتها وبصر يكل اذا أتعبه ولا يجب أن ينسى الخطيب ان استعداد الجمهور أو قابليته للاصغاء ليست واحدة فعليه أن يختار أوسط الطرق في شرحه وبيانه . يروى ان ابن السكك جعل يتكلم وجارية له تسمع فلما انصرف اليها سألتها كيف سمعت كلامي قالت ما أحسنه لولا انك تكثر ترداده قال ارده حتى يفهمه من لا يفهمه قالت الى أن يفهمه من لا يفهمه يكون قد مله من فهمه

ان العبرة كل العبرة هي أن يحمل الخطيب عقول سامعيه في تيار العبارات الجميلة الموسيقية فيهر تلك العقول هزّ الطفل في السرير ويملك عليها جهد التفكير ويخدر فيها حاسة النقد ويجعلها في شبه غيبوبة من سكر الفصاحة ثم تأتي كلمة هي الكلمة الفاصلة المنتظرة مدعومة أحياناً بنبرة في الصوت أو ضربة على المنبر فتوقظ تلك النفوس وقد عرفته بعد إنكارها ونازغت اليه بعد نفارها

واللغة العربية قابلة للانشاء الخطابي أكثر من سواها لوفرة غناها بالالفاظ والتشاييه والاستعارات وما فيها من جزالة لفظ وغمامة تركيب ورنه تسجيع وما تقدر عليه من ايجاز واطناب فاذا ساعدها الاسلوب والخيال كانت على لسان البليغ خمرأ تدب في النفوس وسحرأ يسطو على الرؤوس

وربما نزل الانشاء الخطابي أحياناً عن نثر الكاتب في دقة المعنى ومثانة المبني الا ان في فصاحة اللهجة وجمال اللفظ وجهارة الصوت وإجادة الاداء ما يستر هذا العيب فيخرج السامع مأخوذاً بما سمع ولو لم يحفظ منه شيئاً فانه بما أحس به من التأثير ارضياً عما حصل عليه من اللذة

نختم هذا الفصل بذكر ماورد على لسان بشر بن العتم من غاليه
النصائح في تعليم البلاغة قال :

«خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك واجابتها اياك فان قليل
تلك الساعة أكرم جوهرأ واشرف حسبا وأحسن في الاسماع وأحلى
في الصدور وأسلم من ناقص الخطأ وأجلب لكل عين وغرة من لفظ
شريف ومعنى بديع . واعلم ان ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك
الاطول بالفكر والطاولة والمجاهدة وبالتكلف والمعاودة ومهما اخطأك
لم يخطئك ان يكون مقبولا قصداً وخفيفاً على اللسان سهلا وكما خرج
من ينبوعه ونجم من معدنه

« وإياك والتوعر فان التوعر يسلك الى التعقيد والتعقيد هو الذي
يستهلك معانيك ويشين ألفاظك ومن أراد معنى كريماً فليتمس له لفظاً
كريماً ، فان حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن
تصونهما عما يفسدهما ويهجهما وعما تعود من أجله الى ان تكون اسوأ
حالا منك قبل أن تلتبس اظهارها . ولا تن نفسك بملاستهما وقضاء حقهما
وكن في ثلاث منازل فان أولى الثلاث ان يكون لفظك رشيqa عذبا
ونظماً سهلاً ويكون معنك ظاهراً مكشوفاً وقريباً معروفاً إما عند
الخاصة ان كنت للخاصة قصدت وإما عند العامة ان كنت للعامة أردت
والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة وانما مدار الشرف على
الصواب واحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من مقال .
« وكذلك اللفظ العامي والخاصي فان امكنك ان تبلغ من بيان
لسانك وبلاغة قلبك ولطف مداخلك واقتدارك على نفسك ان تفهم

العامّة معاني الخاصة وتكسوها الالفاظ الواسطة التي لا تلتطف عن الدهاء
ولا تجفو عن الاكفاء فانت البليغ التام

« فان كانت المنزلة الاولى لا تؤاتيك ولا تعتريك ولا تسنح لك عند
أول نظرك وفي أول تكلفك وتجبد اللفظة لم تقع موقعها ولم تصر الى
قرارها والى حقها في اما كتبها المقوية لها والقافية لم تحل في مركزها وفي
نصابها ولم تصل بشكلها وكانت قلقة في مكانها نائرة في موضعها فلا
تكرها على اغتصاب الاماكن والنزول في غير أوطانها فانك اذا لم تتعاط
قرض الشعر الموزون ولم تتكلف اختيار الكلام المنشور لم يعبك بترك
ذلك أحد وان انت تكلفتها ولم تكن حاذقاً مطبوعاً ولا محكماً لسانك
بصيراً بما عليك أو مالك عابك من انت أقل عيباً منه ورأى من هو دونك
أنه فوقك فان ابتليت بأن تتكلف القول وتتعاطى الصيغة ولم تسمح
لك الطباع في أول وهلة وتعصى عليك بعد اجالة الفكر فلا تعجل ولا
تضجر ودعه يياض يومك أو سواد ليلك وعادوه عند نشاطك وفراغ
بالك فانك لا تعدم الاجابة والمؤاتاة ان كان هناك طبيعة أو جريت من
الصناعة على عرف

« فان تمنع عليك بعد ذلك من غير حادث شغل عرض ومن غير
طول اهمال فالمنزلة الثالثة ان تتحول من هذه الصناعة الى اشهى الصناعات
اليك وأخضها عليك فانك لم تعشقه ولم تنازع اليه الا وبينكما سبب والشئ
لا يحسن الا الى ما يشاكله وان كانت المشاكلة قد تكون في طبقات
لان النفوس لا تجود بمكنونها مع الرغبة ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة
كما تجود به مع المحبة والشهوة فهكذا هذا »

الخطيب على المنبر



يرى القاريء على هذه
الصفحات صوراً لمواقف
خطابية مختلفة للمؤلف وقد
راعى فيها الموقف والاشارة
كما كتب تحت كل صورة
المباراة المناسبة لموقفها



انا لا أؤيتك يا الهي انما
لم تنقش الدنيا شرائعها ممي؟
يا اله السموات دعها ودعني
أقول تعذيباً يدي
(رواية الدموع والحب)

لو أن الستور جثم
قثم لرايتهم رما فوق رمم
(عيد الستور العثماني)

محكم يا ألهي في نفسي
فقد وضعتها بين يديك
وجعلتها وفقاً عليك
(من خطاب الالم للدكتور
فياض)



فلتبارك الى الابد أيها
الرجل العظيم
(تأبين كرنيليوه نذك
للدكتور فياض)

غير دين الحب لا دين لنا
نحن في البؤس سواء والنسيم
(من قصيدة المستور للدكتور
فياض)



حذار يا قوم حذار
فقد تأتي ساعة تسقط بها
كل هذه الحواجز
(من خطاب للدكتور
فياض)





كفى كفى شاه
سجيناً خيفاً مظلماً
(أديب اسحاق)

أنا ابن الشمس
فكونوا أبناء الظلماء

أفمد هذا تشمجو
ان سميت هنذا اليوم
خيفاً قومياً
(من خطاب للدكتور
قياس)



الا اذا كنا رجلا وليس فينا دم الرجال



رأيت ومن يرى
 رأيت غراب الطائفة
 الأسود بأسطى مباحه
 القلوب
 (من خطابات أنا وأنتم
 للدكتور رياض)

على قدر أهل العزم تأتي العزائم
 (المتني)

يا ليل قف لغرام أن
تطير بنا
من قبل أن تتلى أمانينا
(تعريب البحيرة
للدكتور فياض)



تلك ساعة المعجب يوم
ترون أن بين عشية وضحاها
قد نبئت في هذه النماح
أنياب الذئاب
(من خطاب للدكتور فياض)



واذا كنت يئتنا نبياً
 لا سمح الله كعبسو عندما
 حرمة أبوه من ندى السماء
 ودمم الارض ولم يبق له
 غير سيفه فمصاصك سيفك
 بعصا الرعاة تسود
 وعصا السيادة زعى
 (من خطاب يوم
 انتخاب مطران
 بيروت للدكتور
 فياض)

هنا تجسدت التماسه
 وانت أجل أوابها القبيحة
 ست المرضي للدكتور فياض



فعلت ان الحب وحده
شرارة الوجود يلهب القرائح
كما يلهب الحدود
(خطاب المرأة والشعر
للدكتور فياض)



وخفوق القلب داه مزعج
حير البابي فقالوا : عضي
زعموا الطب عليه قدراً
وأنا أدري فقد جربت بي
(خطاب القلب البشر
للدكتور فياض)

الوقفة

كان الخطباء في القديم يتكلمون وقوفاً إلا في الاحوال العادية البسيطة ولم يكن لخطيب الرومان ما يعيق حركاته فكان مستقلاً عن المنبر لا يجد أمامه ما يستند اليه أو يضايقه

وكان من عادة العرب الوقوف على نشز من الارض أو القيام على ظهر دابة ورفع اليد ووضعها واتخاذ المفاصر بأيديهم والاعتماد على عصا أو قنطرة أو قوس والإشارة بها وأول من عمل المنبر فيهم تميم الداري عمله للنبي وكان قد رأى منابر الكنائس بالشام

أما اليوم فأيان كان الخطيب فالغالب أن يضع أمامه شبه مائدة أو كرسيًا أو غير ذلك وهو لا يحتاج عند الانتداب إلى اتخاذ وقفة طبيعية بعيدة عن التكلف مع اجتناب بعض العادات المستهجنة كوضع اليد على الجنب أو كثرة الحركة والتخبط جثة وذهاباً

وإذا كان في المنبر فائدة للخطيب الحديث العهد بالخطابة لأنه يجد فيه شبه فاصل يحميه من الجمهور فالمقتدر الجسور يتضايق منه ويشعر كأنه مأسور في قفص يضع جداً لحركاته وصوته

على كل حال يجب أن يكون الخطيب في وقفته معتدل القامة آخذاً بصدرة إلى الامام مقدماً رجلاً عن الأخرى لاجل التوازن وراحة التنفس وإسعاد الصوت

ولا بد له قبل الشروع في الكلام من التتظر حيناً لئيم له السكوت

ويكون لديه متسع من الوقت للتعرف الى الجمهور ولا سيما اذا كان
صعوده الى المنبر بعد نزول خطيب آخر عنه فان هذا التريث يساعد
على إلفات نظرم وجمع انتباههم بعد أن يتباعد عنهم صوت الخطيب
السابق ويذهب صده من آذانهم فيكون للكلام الجديد موقع الطف
في القلوب وغالطة أجمل للنفوس

الصورة

لا ريب في ان جمال الملامح واعتدال القامة من الامور التي تساعد على اجادة التأثير غير انها ليست واجبة الوجود وهذا هو ميرابوخطيب الثورة الفرنسية كان من البشاعة على جانب عظيم ولم يمنعه ذلك البلوغ من تأثيره في معاصريه الى أبعد مدى وكذلك دانتون

ذلك لان جمال النفس والعواطف يتجلى عند الكلام في الوجه والعينين وهو الذي يخلع على سحنة المتكلم حلة من الرواء تأخذ بلب السامع فينسى معها قبح المنظر وقد كان أحد أشياع سوكرات يقول لتلميذه : تكلم حتى أراك

وحكي عن كوكلين الممثل المشهور انه لما ظهر على ملعب التمثيل في رواية سيرانو ده برجرالك وهو يحمل أنفاً دونه أنف ابن حرب كاد الضحك يستولي على النظارة فما هو الا أن تكلم حتى ملك الآذان برخامة صوته وبلاغة الشعر الذي كان يلقيه القاء ليس وراءه معلق لطاعن ولا مأخذ لعائب فكانت النفوس تنهادر تحت نفحاته الساحرة كما تنهادر مع النسيم أغصان الشجر

ثم ان في دمامة الخلق مفاجأة تحمل الانسان على الاعجاب بعد التعجب والا كبار عقب الازدراء لان الناس كما قال الجاحظ يقدررون عادة غير ما يضرر الخطيب فاذا بحسن كلامه قد تضاعف في صدورهم ونال منهم أكثر مما لو كان جميل الطلعة

ذكر الجاحظ ان أبا وائلة بن معاوية المزني أتى حلقة من حلق
قريش في مسجد دمشق فاستولى على المجلس ورأوه أحمر دميماً باذ الهيئة
قشفاً فاستهانوا به فلما عرفوه اعتذروا إليه وقالوا الذنب مقسوم بيننا
وبينك ، أتيتنا في زي مسكين تكلمنا بكلام الملوك

الصوت

من المعلوم أن جهازة الصوت وحلاوة نغمته وصفاء رتته من الامور اللازمة لكل خطيب لأن عليها المعول في ايصال كلامه الى آذان السامعين فقلوبهم وقد أسمى الاقدمون الصوت نوراً لأنه يحمل شعلة الضياء الى الازهان وكم من الخطباء الذين يسجرون بصوتهم أكثر من بيانهم

لهذا كان من الواجب على كل من فرع المنبر أن يعنى بصوته عناية خاصة ويدرس درجة استعدادده ومدى اتساعه ومقدرته على احتمال التعب فيصرفه فيما يلائم من وجوه الكلام ولا يجعله فوق طاقته . فإذا كان الخطاب طويلاً والمكان واسعاً وليس في صوته سعة المكان والوقت لم يرتفع به عن طبقة معلومة ولا سيما في بداية الخطبة لئلا يسرع اليه التعب فيقصر عن مدى غايته . فضلا عن ذلك فان عليه أن يتمهل في النطق ليساعد الصوت فلا يفوت الاسماع من مقاطعه ما يضر بالنتيجة ويقف دون المراد

كانت الخطابة قديماً في الأماكن العمومية ولما خطب ارسامنيوس الثاني داعياً الى الصليبية كان الجمع المحتشد عظيماً الى حد أن ضاقت به المدينة فأقاموا للبابا منبراً على أكمة في خارجها وبما أنه لا يمكن لصوت بشر أن يسمع كل هذا الحشد فقد كانت الناس تنقل كلامه من صف إلى صف

وكذا جرى في ارلندا عند ما كانت تتألب الناس لسماع اوكونل

غير أن الكلام في الفضاء يتعب الصوت كثيراً ومهما يستعمل الخطيب من الحكمة والتقن في اسمع صوته لا يسلم من الكلل والعياء . أما في الاماكن المقفولة فمن السهل اجتناب الاجهاد وكل ما يتعب الخنجره على شرط أن يكون شكل البناء في هندسته موافقاً لنقل الصوت فيسهل على الخطيب ايصاله الى كل ناحية

ان سرعة الصوت هي ٣٤١ متراً في الثانية على حرارة ١٦ سنتيكراذاً وكلما خفت الحرارة خفت سرعته فالهواء الساخن هو اذاً أفضل لنقل الصوت وهذا ما يجعل الكلام أولى في الاماكن المحصورة . أما الريح فانها تؤثر في قوة الصوت لا في سرعته

وبعد أن يتبين الخطيب درجة صوته واستعداده ومداء وحالة المكان عليه أن يجتهد في تحصيل أقصى ما يمكن تحصيله من الصوت فلا يتوجه به إلى فوق أو الى الجانبين فيبدد أكثره سدى . وعليه أن يتلاعب به بين صعود وهبوط مغيراً في نبرته ونغمته ووقفاته حسب المعنى والصورة والعاطفة ابعاداً للملل جامعاً بين الصوت الطبيعي والصوت الموسيقي متحاشياً أن يضعف الصوت في آخر الجملة لئلا تنتهي هذه بين شفثيه كأنها تحتضر ولا تصل الآذان إلا مائتة

وسنرجع فيما بعد الى الكلام عن الصوت وطرق تقويته بالوسائل الطبية والقواعد الصحية

الإشارة

لا يخفى أن للإشارة أهمية كبرى لأنها تشارك النطق في نقل الفكر
مستخذة لها البصر سبيلاً فهي اللغة العمومية التي يفهمها كل إنسان
وما تحدثه من التأثير هيبات أن تأتي بمثله لغات العالم

والخطيب البليغ قلما يحتاج إلى الإشارة عندما تتزاحم على شفتيه
خواطر القلب والفكر. ومن الخطباء من لا يستعملها أبداً كما أن منهم
من يفرط فيها وهذا يرجع في الغالب إلى العادات والأخلاق
فالإنكليز مثلاً خلاف الشعب اللاتيني ولهذا عندما ذهب جوريس
إلى لندن للخطابة في جماعة الاشتراكيين لم يجد من النجاح ما تعودته في
بلاده بل كان تعجب القوم منه أكثر من إعجابهم به

على أن الإشارة كما قلنا ضرورية للخطيب بوجه الإطلاق وبها يملك
الانتباه ويصل إلى ما ينبغي من التأثير . والصوت معها يختلف تموجاته
لا يكفي للإفادة والاقناع والتعبير عن معاني اللذة والألم والغضب واليأس
والاحتقار وما إلى ذلك إن لم تساعده حركات اليد وملامح الوجه وبريق
العينين وإشارة الطرف والحاجب

فضلاً عن ذلك فإن حركة الأيدي فيسيولوجية أي أنها لازمة طبعاً
لأنها تساعد على انماء الصدر وإخراج الهواء كلما احتيج إلى رفع طبقة
الصوت كما في حال الغضب أو غيره. ولا يستطيع المرء أن يتكلم بصوت
عال ويداه إلى جنبه دون أن يحس ضيقاً وتعباً

وقد اتفق الفن مع المهجين في الكلام العادي المعتدل كالوصف

مثلاً يجب قلة الحركة وأما في الحماسة وغيرها من مثيرات العواطف
فالحركة الكبيرة الواسعة لازمة لتفريج الصدر المبتلىء هواء فلا ينال
التعب من الخطيب أو صوته

ولكن الأكثر من الإشارة باليد خطل وتبديد لانتباه السامع
فعلى الخطيب أن يفهم ذلك فيقتصد فيها وأن يتخذ الذوق مرشداً ودليلاً
ويجب أن توافق حركة اليد المعنى وتسبقه فإن قلت لأنسان مثلاً
أخرج من هنا فأول ما ينتظره منك أن تمد يدك أو أصبعك نحو مكان
الخروج كأنك تدله عليه

وليست كل الاشارات لازمة في كل حال بل منها مالا حاجة اليه
على الاطلاق ولا معنى له كمد الاصبع أو بسط اليد أو الضرب على المنبر
عند كل جملة أو حرك الرأس أو ما وراء الاذن
وتختلف الاشارة باليد حسب المكان فتكون واسعة في الهواء
المطلق وقد يستغنى عنها في المكان الضيق فيكتفي الخطيب بعلامح الوجه
وحركات الطرف والحاجب

شروط الاشارة باليد

- ١ - أن لا تمر من أمام جسم الخطيب
- ٢ - أن لا تخفي وجهه
- ٣ - أن توافق المعنى فلا تكبر وتتسع لدى الشرح المهادى
- ٤ - أن تكون سريعة في أولها كلما كان الكلام حاداً ملتبهاً
- ٥ - أن تسبق الكلام ولا تأتى بعده
- ٦ - كلما احتيج الى الاشارة بيد واحدة تستعمل اليد اليمنى اذا
كانت الرجل اليمنى الى الامام والعكس بالعكس

عميوب الإشارة

- ١ - الضعف : عند ما لا تأتي مع المعنى ولا تدعمه
- ٢ - الابهام : عندما يحتد الخطيب بلا سبب ويأتي بها غير مطابقة لمعنى الجملة

٣ - المبالغة : عندما يفرط فيها بلا حساب

٤ - الكذب : عندما تأتي مخالفة للفكر والعواطف

قلنا ان الإشارة لغة النطق ولهذا كان لها مثله قواعد فكما تتميز بعض الالفاظ عن سواها ويقف المتكلم عندها لأهميتها تمتاز بعض الحركات فيقف بها عند هذا الطرف أو ذاك الفعل أو تلك الصفة . وإذا اجتمعت صفتان في جملة فالإشارة تكون للصفة الأخيرة كما لو قلت هذا رجل عاق خائن فالإشارة يجب ان تكون للخيانة دون العقوق وقس عليه . وكلما كان تدريج في التصورات كان مثله تدريج في الكلمات وكان مثله تدريج في الإشارة لأنها كما قلنا وأعدنا لغة مكملة للنطق وخدمة له وبدونها لا يكون للخطاب أثره المطلوب

وعلى الخطيب أن يكون طبعياً ويعمل في نفسه شرارة الايمان بما يقول ليؤثر من غير صراخ ولا تصنع . وكل المواعظ والخطب لا تجدي فتىلا اذا لم يعرف قائلها أن يترجم بإشارة أو حركة ما لا يمكن الكلام ان يعبر عنه . وكل من اشارة تغني عن جملة طويلة

السحنة

يجب ان تشارك ملامح الوجه والالحاظ حركات اليد ونبرات الصوت . والا كان الخطيب بارداً لا حياة في بيانه ولا قوة في برهانه .

ان في العيون لغة تمثل الرجاء والامر والتعجب والسرور واليأس والسخرية والاحتقار والغضب والحب وما الى ذلك . وفي ملامح الوجه الشباب والهرم والصحة والمرض والالم والقوة وما شا كل

فالشباب والصحة والغبطة تجدها في ارتفاع خطوط الوجه كما تجد المرض والضعف والالم في انخفاضها وعليه يسهل على الخطيب أن يخلق ملامح الوجه كما يريد لان الصورة البشرية لا تمثل في حال الراحة المطلقة الا خطوطاً مستقيمة . فان أردت أن تظهر انتباهاً بدون تهيج فبارتفاع خطوط الوجه قليلاً، وان أردت اظهار الرضى والسرور زادت الخطوط ارتفاعاً الى أن تبلغ الفرح الاقصى فترتفع الخطوط ارتفاعاً عظيماً . وان أردت أن تظهر قلقاً أو تفكيراً فيكفي أن تخفض الخطوط قليلاً ، أو خوفاً فتزيد خفضها وهكذا الى أن تمثل لك الألم والعذاب بانخفاضها انخفاضاً كاملاً ومتى أضفت الى هذا الانقباض انقباضاً عصبياً فقد عبرت أحسن تعبير عن الغضب والاحتقار والبغض

كل هذه الحركات لا يحتاج الى الدلالة بها في آن واحد ولا يستفيد منها كل خطيب والعبرة في أن يكون مجموع الهيئة مطابقاً معنى الكلام موافقاً فكرة المتكلم قال لاروشفوكولد : البلاغة هي في الصوت والملامح مثلما هي في اختيار الكلام

أما العيون فهي أصدق ترجمان عن العواطف المختلفة الكامنة في كل انسان فان أردت التعبير عن الغيظ أو الدهش أو الإعجاب أو الخوف فتحتها

وان أردت التعبير عن القلق والتواضع والمسكنة قفلتها
أو الجزع والاشمئزاز والرياء وما شا كل أدرتها يمنة وشمالا
أو الدعاء والألم الشديد رفعتها الى السماء
أو اليأس والعار والتفكير والحيرة والحشوع والحياء خفضتها الى الارض

أو الشدة والاثبات والرجاء وغيره أثبتها في مكانها
والظفر والفرح وما اليهما يكسبهما نألقاً وبريقاً كما ان الضعف
والمرض يكسوها جموداً كالزجاج
أما إطباق الجفون عند التكلم أو الشخوص بالنظر الى جهة واحدة
فهذا ما يجب على كل متكلم أن يتحاشاه
وهناك حركات أخرى للرأس والكتف وغيرها نكتفي بالإشارة
اليها لانها تخص الممثل أكثر من الخطيب

هذه هي الشروط التي تجعل للمنبر ذاتاً معينة وكل خطيب حافظ
عليها فقد استوفى حظه من البلاغة وكان له من التأثير أبعد مداه
وأقصى مرماه . وقد وقعت على غير خطبة اشتهر قائلها بعلو الكعب في
الخطابة فلم أجد لدى قراءتها ما يبرر تلك الشهرة مما يدل ان الصوت
وحسن الأداء وهيئة الخطيب هي من العوامل القوية التي تكفي أحياناً
لتزيين المنابر وتعطي وثابها سلطاناً على القلوب

ولا بد قبل الختام من التنبيه الى اللباس وضرورة الاهتمام به لان

جمال الهندام يؤثر حتى في نفس اللابس ولهذا تجد للأفرونج عناية خاصة به ولا يتسامح أحد منهم في إهماله . وقد رأينا تنميا للفائدة أن نورد في آخر هذا الفصل بعض الرسوم التي تستعمل فيها الاشارات وتدل على المواقف التي تنقبض فيها اليد أو تبسط وتطوى الاصابع أو تنشر بالنسبة الى الخطيب والموضوع وما يقتضيه البرهان أو النفي أو التعجب أو الوعيد أو الاستعطاف أو النفور وما شاكل

خلاصة ما تقدم

كن في وقتك بعيداً عن التكلف واجتنب الخروج عن المألوف في
إشاراتك والقائك وحافظ ما أمكن على صوتك الطبيعي ولا تقلد غيرك من
الخطباء والوعاظ والممثلين

وجنب في بداية الخطاب عن التزام نبرة واحدة وحركة واحدة
لئلا تشبه التلميذ في تلاوة درسه لا الخطيب في فيض بلاغته

وأفرغ من نفسك في صوتك وحركاتك لتخلع على كلامك برد
الحياة ولا تنس أن تنوع نبرة الصوت دون أن تخرج به عن الطور
الطبيعي فتتعب سامعك

وعلى الجملة فلتكن البساطة دليلك والطبيعة هاديك فترسل كلامك الى
أعماق القلوب بلا صياح ولا جهد ولا تدجيل

وإذا لم تساعدك الطبيعة فكنت محروماً جمال الطلعة أو اعتدال
القائمة فإن لك ما يغطي هذه العيوب ويستر تلك النقائص بالتمرن على
حسن الالتقاء والعناية بالصوت وتربيته بالرياضة لتأخذ من النغبات العالية
مرتتها والوطيئة قوتها

واياك والاكثر من الإشارة أو الاتيان بحركات مستهجنة وجانب
المنحرفة والسعال وكل ما يدل على الضعف أو يسبب الملل قال الشاعر :

أعوذ بالله من الإهمال ومن كلال الضرب في المقال

ومن خطيب دائم السعال

الخطيب والممثل

ان بين الخطيب والممثل فرقاً واضحاً وبوناً نازحاً ذلك لأن الاول يحتاج إلى علم وإلهام قد يمكن الثاني الاستغناء عنهما . حسب الممثل أن يدرك غرض المؤلف ليقوم بأداء الواجب عليه خير قيام دون أن يكون للوحي دخل يذكر في تمثيله . لا أعني أن الممثل يجب أن يكون خلواً من كل علم بل أريد ان لهذا العلم وهذا الإلهام عنده وجوهاً أخرى بصرفهما فيها . وهو على كل حال لا يرتبط بهما ارتباط الخطيب . ويرى القارئ في بعض هذا الفصل وما يليه مختصر ما وقفوا عليه في كتاب الاستاذ كركو « فن الكلام في الجمهور » مما يتعلق بهذا الموضوع نعم من الممثلين مثل شكسبير ومولير قديماً وساشا كترى لعهدنا الحاضر من جمع بين الحالتين وكان العلم والوحي خير مرشد لهم خلفوا أدوارهم على القرطاس والملعب معاً . مثل هؤلاء يفيدون سوام ويخلعون على نهجهم في التمثيل مسحة خاصة لا تجدها في الآخرين إلا انهم قلائل لا يتجاوزن عدد الانامل

والغالب أن يكون الممثل كسائر الناس ثقافة ولكنه يستطيع أن يدخل في إهاب الذات الخيالية التي أوجدها المؤلف ويمتزج بها امتزاجاً سوياً . بل ترى بعض الممثلين دون سائر الناس في الاحساس والشعور وهم على الرغم من ذلك يجيدون تمثيل العواطف والاهواء الغريبة عنهم وكم من النساء من هن في حياتهن البيتية والاجتماعية أبعد خلق الله عن التأثر وعن كل فكرة للحب والتضحية وتراهن على الملعب يقمن بتمثيل أدوار الحب والتضحية أحسن تمثيل

هذا التناقض لا تجده في الخطيب فان جهد الممثل كما بينا هو أن

يصور ما يريد المؤلف دون زيادة ولا نقصان والبارع من وصل فيه
التصوير الى أبعد غاية وأما الخطيب فهو لا ينفك عن التوليد حتى في
اثناء الكلام وله مطلق التصرف في القلب والابدال والايجاز والاطناب
حسب الاحوال

المجال الذي يتحرك فيه الممثل هو عالم الصور والخطوط ومجال
الخطيب عالم الافكار والمعاني ومهما يكن من ثقافة الممثل والهامة فلا
شأن لهما في اضافة شيء الى الذات الخيالية التي خلقها المؤلف ورسم
حدودها ولا حق له أن يجري على لسان هذه الذات كلمة لم يرد المؤلف
أن يقولها

قد يستطيع الممثل أن يتصور طريقة جديدة لتمثيل أبطال سوفوكل
وشكسبير ومولير وهيكو غير التي عرفناها وألفناها ولكنه لا يكون
في ذلك على وفاق والرأي العام

إذن مجال الممثل هو الخيال والصور والحركات ونبرات الصوت المختلفة وهي أمور يحتاج إليها الخطيب ولكنها ليست كل ما يحتاج إليه فإن غاية الخطيب هي الالفاظ والمعاني التي تتزاحم في خاطره ويحيش بها صدره فيقذفها على لسانه وهي تتطلب حركات وإشارات مختلفة غير أنه لا يضطر الى تأديتها بأمانة الممثل ودقته وجل ما يتحتم عليه هو أن يصور أفكاره ويعبر عنها على وجه لا يضايق السامعين ولا يزعجهم بل يشعر كل من حضر أنه أمام خطيب لا ممثل . وهذا الشعور من جانب الناس هو الذي يشد عرى الالفه بين الخطيب وسامعيه فيندفعون معه في الطريق التي يشقها لهم فلا يكاد المعنى أو العاطفة تنحدر من شفثيه حتى يكون قد تلقفها سمعهم وجنانهم

ربما كان هذا هو السبب في أن يتخاشى الخطيب أن يظهر سهولة عظيمة جداً في كلامه لأنه اذا تكلم بدون جهد ظاهر ومن غير أن ترسم على عيائه تلك السمات الدالة على التفكير والتعب والتأمل فكأنه منقطع عما يقول فيحمل السامع على الظن أنه لا يتكلم باخلاص وشعور بل يلقي درساً استظهره أو يمثل دوراً من الادوار وهو بما يضعف التأثير وينزل بالخطابة عن غايتها

فعلى الخطيب أن يظهر لسامعيه أنه هو نفسه مولد أفكاره فيحس هؤلاء أنهم أمام رجل يقول ويفعل ويبرهن ويحلل وان هناك مسألة عقلية يشتبكون معه فيها وهي ليست من خصائص الممثلين

الخطيب والشاعر

إن سرعة البداهة وقوة التصور وجيشان الخاطر وكل ما يمتاز به الشعراء موجود عند الخطباء ومن الصعب التفريق بين الاثنين فكأن القوة العقلية الواحدة باختلاف وجهتها وتباين أسبابها قد أنتجت عند بعض النوابع تارة بلاغة القلم وطوراً بلاغة اللسان

لا ريب أن اللورد بيرون الشاعر الانكليزي المشهور عندما كان يطوف بجواده فوق شواطئ الليدو وينشد في الفضاء أشعاره الغريبة السامية ويلقي من حوله على الكائنات نظر السيد المعتر بمحتده المباهي بشبابه المفاخر بحال طلعتة ولعان نبوغه وما أعطاه الله من واسع السلطان في مملكة الهوى ، مخضعا لدى قدميه الفلاحة الحائرة والسيدة المتدلة ، منتصرا على مطامع الرذيلة وخاوف الفضيلة ، لا ريب أن ذلك الأمير لم يكن حينئذ شاعراً فقط بل كانت عواطفه الثائرة تتدفق من فؤاد خطيب فترتدي حلة الشعر بعد أن تفرغ في قالب خطابي بما فيها من غزارة وخيال وتصور خلاب

واذا نظرت فيما كتب هيكو أو نظم ظهر لك أنه لم يكن يتخذ غير لغة الخطابة كأنما هو يتمرن على الدور السياسي الذي كان مخبأ له في طيات الزمان

وكذلك لامارتين فقد حرك أوتار قيثارته على منبر السياسة فأفلق خطيباً مثلما أفلق شاعراً

وكما كان بيرون الشاعر خطيباً كان جورس الخطيب شاعراً وقد روى مؤرخوه أنه وهو في العشرين كان يتمشى كالملمهم على شواطئ الكارون مردداً في الفضاء نثره الجميل . وله في كتابه « حقيقة العالم

المحسوس « صفحات شعرية خالصة كانه تحت وميض الالهام وبين عوالم الاحلام يسائل الوجود من كل نواحيه وينحني نحو الارض واضعاً أذنيه عليها مصغياً بروحه اليها كمن يحس أو يبحث عن نبض العالم ومثل جورس كلما نضو فهو في كتابته وخطابته شاعر . لما اشتدت الازمة السياسية بين فرنسا والمانيا وانفجرت مسافة الخلف في حادثة اغدير ذهب جورس الى برلين ليخطب في زملائه الاشتراكيين فأبت الحكومة الالمانية عليه الكلام وأرجعته من حيث أتى . وكان كلما نضو يومئذ يحرر في جريدة الفجر فكتب فيها قطعة خالدة من النثر الشعري نورد للقارىء ما يحضر للذهن من مطلعها

« ان منع الكلام عن جورس يعرض المسوييلو ذلك الستار الذي يقوم من ورائه غليوم الثاني الى سهام الانتقاد المر . ما الفائدة أن يرث الانسان أعظم سلطة عسكرية في العالم وأن يمشي في زرد الحديد ويستل سيف الله الذي لا يفل ويتغنى بالنار والبارود ويملاء الآفاق وعيداً اذا كان يخاف من رجل اعزل سلاحه الكلام . . . يالها من شهادة ساطعة لعظمة الفكر . . . »

والمطلع على حالة السياسة لذلك العهد وما كان عليه غليوم من الحدة والخيلاء يدرك ما في هذه الاسطر القليلة من البلاغة والامثلة كثيرة على وجود العاطفة الشعرية بقوة وغزارة عند الخطباء غير انها ليست واجبة الوجود فكما ان في المصورين من لم يبلغ شأو ليونارد ده فنسي فمن الخطباء من لا يعرف هذا الغليان ويستطيع بكلمة او صورة او صوت ان يحرك العواطف ويثير الاشجان . هكذا كان والدك روسو احد زعماء الفرنسيين في العصر الغابر القائل في احدى خطبه هذه الكلمة المأثورة : يجب على المالك ان يعمل وعلى العامل ان يملك

وفي العرب كثير من الخطباء الشعراء أو الشعراء الخطباء وقد ذكر الجاحظ فئة غير قليلة منهم تقتصر هنا على ذكر بعضهم مثل قس بن ساعدة الايادي والطرماح والكميت وغيرهم . ومن هؤلاء بشار الاعمى وكان شاعراً راجزاً سجاعاً خطيباً صاحب منشور ومزدوج . وكثوم بن عمرو وهو القائل :

اني اسرر هدم الاقتار ما أثرتي واجتاح ما بنت الايام من خطري
أيام عمرو بن كثوم يسوده حياء ربيعة والافناء من مضر
أرومة عطلتي من مكارمها كالكوس عطلها الراى من الوتر
ومن الشعراء الخطباء الذين جمعوا الشعر والخطب والرسائل الطوال والقصار سهل بن هرون الملقب بزجرهم الاسلام صاحب كتاب ثعلبة وعفرة في معارضة كيلة ودمنة

وممنم أعشى بن شيان وهو القائل :

ولا أنا في أمري ولا في خليقتي بمهتضم حتي ولا قارع سني
ولا مسلم مولاي من شر ما جني ولا خائف مولاي من شر ما أجنبي
وفضلني في الشعر والقول انني أقول بما أهوى وأعرف ما أعني
ومن بواعث الاسف ان لا اجد سبيلا الى ايراد امثلة من خطب هؤلاء القوم ولعلي اوفق الى شيء من هذا في آخر الكتاب

ومن أبلغ الشعر الخطابي قصيدة عفيرة بنت عفان وكان بنو طسم قد انتهكوا حرمتها فقالت :

أجمل أن يؤتى الى فتياتكم وأنتم رجال فيكم عدد النمل
أجمل تمشي في الدماء فتاتكم عشية زفت في النساء الى بعل

«فإن أتم لم تغضبوا بعد هذه
 «ودونكم ثوب العروس فأنما
 «فلو اتنا كنا رجلا وكنتم
 «فموتوا كراماً أو أميتوا عدوكم
 «والأغفلوا الدار ثم تحملوا
 «فلموت خير من مقام على أذى
 «فدبوا إليهم بالصوارم والقنا
 «ولا تجزعوا للحرب قوي فإنها
 «فيهلك فيها كل وغل مواكل

فكونوا نساء لا تعاب من الكحل
 خلقتهم لا ثواب العروس وللنسل
 نساء لكننا لا نقر على الذل
 وكونوا كنارشب بالحطب الجزل
 إلى بلاد قفر وموتوا من الهزل
 وللهزل خير من مقام على ثكل
 وكل حسام عذت العهد بالصقل
 تقوم بأقوام كرام على رجل
 ويسلم فيها ذو الجلادة والفضل

الخطيب والخطباء

قلنا فيما مر إن المطالعة لازمة للخطيب لتوسيع دائرة ثقافته وزياد
الآن أن هذه المطالعة يجب أن يكون أكثرها في كتب الخطباء السابقين
والعاصرين . وعلى الخطيب أن يسمع ويرى كيف يخطب سواء سواء
أكان من أشياعه أم أضداده ثم يشرح لنفسه ويحلل ما سمع محاولاً أن
يدرك السبب الذي من أجله نال هذا الخطاب استحساناً أو استهجاناً
وما لذلك من صلة بالبيئة أو الرجل أو الخطاب عينه من حيث المعنى أو
التركيب أو الأسلوب أو الأداء . وما فيه من اسباب أو اقتضاب وهزل
أو جد وغير ذلك مما يدخل تحت هذه المعاني أو يشترك فيها

ان للخطيب ولا سيما النائب والمحامي أضداداً ومنافسين والاضداد
هم بين الجمهور وليس من الصعب أن يتغلب عليهم بالاقناع أما المنافسون فمن
العبث أن يحلم باقتناعهم وقد قال أحد نواب الفرنسيين : « أتى عليّ
أربعون عاماً وأنا أسمع الخطباء فوجدت منهم من غير وجهة تصويتي
ولكن لم أجد من غير رأيي » . ويمكننا قلب الجملة وعكس الآية دون
أن نسيء الى الحقيقة فان من الخطب أيضاً ما يغير الرأي ولا يغير
التصويت

وليس بعجيب أن يصعب على الخطيب اقناع منافسيه فكل يريد أن
يكون لواء النصر معقوداً له لان الخطيب السياسي رجل عمومي وهو في
أكثر الاحيان يعبر عن رأي حزبه فتراه مضطراً الى الثبات في موقفه
حتى النهاية لا يزعه كلام الخصم مهما يكن لئلا يرمى بالخيانة
والخروج على الحزب

وقد يحدث ان أحدم يرى الحق في جانب خصمه فيبقى متشبكاً برأيه

لان هناك مفاجآت غريبة فكم من برهان يبدو ناصعاً ثم بعد تقليبه على وجوهه يتحقق بطلانه . وهذه المفاجآت هي التي تقضي على الخطيب بعدم الاستسلام لبلاغة خصمه بل تجعله ثابتاً في موقفه ولا سيما لانه ليس حراً بل عبد للموضوع الذي يدافع عنه فيجب أن يمضي فيه الى النهاية وبعد أن يقوم الخطيب بالواجب عليه من الدافع يستطيع أن يغلو الى نفسه ويراجع آراءه ويقابل بين مركزه ومركز حزبه ويعتمد ما يوحيه اليه الضمير الذي هو أسمى قاض وأشرف حكم على انه لا يتعذر على الخطيب ولا سيما المحامي بما تهيه البلاغة من وسائل التعبير أن يتخذ لغة لا يرتهن بها الا بقدر ولا تنال من شرفه وحسن احدثه فان لم يستطع مثلاً أن يقول الحق الحق اقول لكم فهو قادر على تحريف العبارة كأن يقول مثلاً موكلي يقول لكم كيت وكيت ولا يعزب على القاضي ما وراء هذا التركيب من تنصل خفي أو عاذرة تدفع اليها الذمة الطاهرة دون أن تضعف من أثر مقاله

فكاهة : كان اثنان من عظماء المحامين في فرنسا يسمعان مرافعة زميل لهم فكان يأتي في عرض كلامه بأدلة قاطعة وحجج دامغة وكان أحد الاثنين خصماً في القضية وعليه أن يرد على هذه المرافعة ويدفع هذه الادلة والحجج فكان رفيقه كلما سمع شيئاً اعجب به في المرافعة يميل نحوه قائلاً هذا صحيح ولا اخالك قادراً أن ترد عليه فيكتفي هذا بهز الرأس كأنه يؤيد كلام صاحبه الى ان قال له هذا الصاحب اراك تشاركني في كل ما اظهره من صواب هذه المرافعة فما عسالك ان تقول بعد هذا وقد اقتنعت منذ الآن فأجابه كلا يا صاح لم اقتنع ابداً ولكني اعلم مالك من النفوذ الادبي عند القضاة واعرف مبلغ احترامهم لآرائك وارايم الآن ينظرون إلينا فاذا عارضتك ظنوا بيننا خلافاً تكون نتيجة خدمة الخصمي فأنا اظهر المواقفة على كل ما تقول ليطمثنوا بعدها الى كلامي ومعارضتي فلا اخسر من قوة دفاعي شيئاً

هنا تظهر بوجه خاص مزية الخطيب من حيث الهدوء والصبر والحلم فيكون كالملاكم يتلقى ضربات خصمه وهوتايت الجنان لا يتزعزع عن موقفه مهما يطلق عليه منافسه من قنابل الغضب او ^{يكسره} كثر له عن نواخذ الشر وسوء النية

لا اقول انه لا يحتاج أحيانا ان يظهر الغضب ويخرج عن طور السكينة لأن التظاهر بالغضب والحدة نوع من الحجاج المقنع ولكن فليكن غضبه خطايا كما ذكرنا قبالا

ومهما يكن الخطيب عظيما مشهورا فان آداب المهنة تقضي عليه أن يكون واسع الصدر كثير الدعة واللطف والتودد نحو زملائه ومنافسه فلا يتعذر عليه ان يجعل كلامه شديداً وانتقاده قارصاً دون ان يمس كرامة احد وهذا ايضا من دلائل المقدرة التي يتصف بها الخطيب البليغ

والمنافسة الحقيقية التي تدفع الخطيب الى الاجهاز على خصمه وتنفيذ مزاعمه بكل ما أوتي من شدة عارضة وفصاحة بيان لا تكون الا في المسائل السياسية والقضائية وأما في غير ذلك كالحفلات الادبية والناظرات العلمية وسواها فالواجب يقضي بالتضامن بين الخطباء حتى اذا عرض للواحد ما يفسد عليه موقفه أو لا يترك لكلامه وقعا حسنا كان للآتي بعده مجال لاصلاح هذا الفساد بالثناء على الخطيب السابق والاشارة بمزاياه مما يساعد على ازالة سيء الأثر دون ان يحس الحضور بهذه المناورة الولائية لان للجمع عقلية تختلف عن عقلية الفرد وحكم الجماعة في مثل هذه الحفلات مقيد بمحادثات الساعة والجمهور مستعد أبداً للحلم والمعذرة والرضى

الخطيب والجمهور

ان بين الخطيب والجمهور صلة نسب وقرابة ولكنها ليست متينة
الأسباب في كل حين وهذا ما يجعل موقف الخطيب حرجاً فان الجمهور
مؤلف من طبقات مختلفة وفيه العالم والأمة والقنوع الذين العريكة
والعنيد الصلب الشكيمة فاذا كان الخطيب ممن ألفوا المنابر واعتادوا على
تلك الوجوه الشاحصة اليهم والعيون المحدقة بهم فقد وجد السبيل ممهداً
أمامه وكان فوزه أكيداً . واذا كان على خلاف ذلك أو هو يخطب
للمرة الأولى فقد عز مطلبه ووعرت طريقه وكان من الواجب قبل
كل أمر أن يستميل الحضور اليه وأن يهيئ نفسه لقبول ما قد
يصدر عنهم من ضجة أو ضحك أو مقاطعة أو غير ذلك ولا سيما اذا
كان في الحفل كثير من العامة كما يحدث في الاجتماعات السياسية أيام
الانتخابات وهذا أمر قليل الوقوع عندنا لعدم توافر الاسباب الداعية اليه
وربما ساء الخطيب قلة الاقبال عليه وعدم امتلاء النادي بالسامعين
فعليه أن يدافع هذا الاثر ويتغلب على غيظه ويلقي خطبته بكل ما أوتي
من حماسة حتى اذا خرج الناس معجبين بما قال كان لخطابه صدى جميل
في المحافل والاندية لا يلبث معه أن يتغير اعتقاد الناس فيه فيأسف من
قصر عن الحضور ويعاهد النفس ألا يدع فرصة تفوته فيما بعد لسماع
هذا الخطيب

ومثل ذلك إذا كان السواد الاعظم من عامة الناس الذين لم تسمح
لهم أعمال الحياة ومطالب الجهاد أن يتوسعوا في الثقافة فلا يكونون هذا
مبشطاً له لانه لا يشق عليه أن يستميلهم ويملك عليهم نفوسهم ولو لم
يعوا كل ما يقول . فان السامع الامي كالفقير الذي يعرف أنه لا يستطيع

أن يلبس الخز والديباج ويروقه مع ذلك مرأى هذا الزهو وربما حصل عليه بالتصور فهو أي السامع يدرك أن في كلام الخطيب ما يسمو عن مداركه أحياناً ولكن يسره أن يسمع ويرى وقد ترضيه من الخطيب بعض الظواهر أو الحركات فتلتي ستاراً على جهله ويمحو من ذهنه اثر العجز الذي هو فيه فيخرج مسروراً مسحوراً لان حكم الجماعات يكون عادة حسب الاهواء والشهوات والتأثيرات النفسانية

وقد يقف خطيبان أو أكثر في ناد فيأتي الواحد بأبلغ ما يمكن ويلم بموضوعة من كل أطرافه ولا يترك شاردة الا قيدها ويقول الآخر كلاماً سطحياً لا يدل على تعمق في الدرس ولا اجتهاد في البحث ولكنه يأتي ببعض النكات المستظرفة فينال من الاستحسان والتصفيق أضعاف ما نال الاول إلا أن هذا الفوز عارض لا يلبث أن يزول عند ما تنقش غيمة التأثير الخطابي وينشر قول هذا وذاك ويطلع القراء على فواها ويسهل لكل في خلوته أن ييدي حكماً صحيحاً بعيداً عن التأثيرات الخارجية

ولا يجوز للخطيب أن يحتقر العامة لان غايته في الغالب هي التهذيب والارشاد والاصلاح ولا يصل اليها بالازدراء بسامعيه بل هو بهذا الاحتقار يخولهم الحق أن يحتقروه . وأول ما يجب عليه في هذه الاحوال أن يتعرف إلى أهوائهم ويحاريهم في مشاربهم أحياناً فقد لا تكون بعيدة عن الصواب وان يصغي الى كلامهم فالحكمة قد تأتي من فم الجاهل وأن يتبع المثل الاعلى الذي يريد أن يرسمه للناس فلا يأنف من عرضه عليهم ولا ييأس من تقرييهم منه

من العقبات التي تعترض الخطيب وهو على المنبر أن لا يفهمه كل انسان فتقوم المعارضة من كل ناحية لان هذا الجمهور المختلف الطبقات والامزجة والتربية والغاية يسري فيه ألف مذهب وألف عقيدة وألف وهم وعلى الخطيب أن يؤلف بين هذه القوى المتباينة ليقودها في طريقه ولا يتم له ذلك الا بالصبر والحلم وطول الاناة والتسامح . وهو يسعى الى ارضاء هذا الجمهور ولكن لا من طريق الاكراه الذي يفضي الى الفشل فاذا دافع عن رأيه فلا يكون دفاعه بمحاولة هدم مذهب سواه فان لكل رأي مظهراً من مظاهر الحقيقة ولم نسمع أبداً أن كل الناس خرجوا من حفلة خطابية راضين مقتنعين . وقد كان والدك روسو يقول عن نفسه: « أنا أطلب من كلامي نجاحاً لا انتصاراً » وهذا ما يجب على كل خطيب أو مناظر أن يضعه نصب عينيه وخطاب انطونيوس في مقتل قيصر أبلغ مثال يقدم على ذلك

وقد تكون المعارضة عن اخلاص أو سوء فهم أو حب بالظهور فاذا أدرك الخطيب ذلك عرف أن يعطي لكل مقام مقالا ولكل جواب حالا

أما المقاطعة فلا يجب أن تخرجه عن جادة الموضوع لأنه لا يخطب
لواحد بل للجماعة ولیمض في كلامه حتى النهاية الا اذا كاحاد الذهن
حاضر البديهة فيرد على من قاطعه بكلمة ثم يعود الى موضوعه . واذا
لم يوفق الى سرعة الرد فليمر بالاعتراض مر الكرام ذلك خير من أن
يقول قولاً لا معنى له أو فيه شذيمة وسباب

لما اعتصب عمال السكة الحديدية في فرنسا وعددهم يربو على ١٥٠ ألفاً
لجأ الوزير بريان الى اصدار أمر بالتعبئة العامة فكانت الوسطة الوحيدة
للتغلب على الثورة والضرب على أيدي المعتصين بدون أن تسفك قطرة
دم . وكان ذلك في اثناء عطلة البرلمان فلما حان انعقاد الجلسة الاولى
للدورة الجديدة كانت الأفكار في غليان والحواطر في هيجان والنواب
تتحفز للوثوب معترضة على هذا العمل الاستبدادي في الظاهر . وجاء
بريان لتقديم الحساب فعلت الأصوات من كل جانب : « ليسقط الدكتاتور
ليسقط الكابورال فوقف في مكانه جامداً الى أن أتيح له فرصة ليرفع
صوته فصاح بهم : « دكتاتور ؟ مسكين أنا . مالكم أيها السادة إلا أن
تقولوا كلمة أو تبدوا إشارة فأترك هذا المنبر بلا أسف وأعود إلى مكاني
في صفوفكم خادماً بسيطاً لهذا الوطن » كلمات وجيزة ولكنها قوية
بمعناها ومطابقتها الحال فجاءت كلمات على الجمر فهمدت حدة الثائرين
وخمدت ثورة الصائحين وأمكن بريان أن ينطلق في حديثه مبرراً عمله
فاذا بالغضب يتحول رضى والجلبة تنقلب سكوتاً والنفور يعود اطمئناناً
وبعد أن كان هدفاً لسهام الناقدين نزل عن المنبر بين الهتاف والتصفيق
ومصافحة المهنئين

ولكن ليس كل الخطباء مثل بريان ولم يؤت سرعة البداهة كل
إنسان وكم من أصحاب العقول الراجحة من يفتقر إليها فقد كان جاك
روسو يقول عن نفسه: «لم أستطع عمري أن أؤتي جواباً موفقاً إلا ربع
ساعة بعد الوقت الملائم».

والمقاطعة في حادثة بريان وقعت قبل أن يتكلم ولا أدري هل تكون
أشد وقعاً لو جاءت في عرض الخطاب فكانت كالصخر الذي يلتقي في
مصب السيل فتتحرف به حيناً عن قصد السبيل . على كل حال ليس
على الخطيب من جناح اذا لم يحضره الرد فوراً ولا يلام إلا إذا حاول
الجواب فقال ما لا معنى له ولا فائدة منه . مثلاً قد يسمع الخطيب
مقاطعة يقول : هذا كذب فيجيبه أنت الكاذب لا أنا مثل هذا
الجواب أفضل السكوت عليه ألف مرة

ومن أجل ما يذكر من المقاطعة عن خطباء العرب ما حكاه صاحب
العقد الفريد عن زياد عن مالك بن أنس قال: «خطب أبو جعفر المنصور
حمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس اتقوا الله فقام إليه رجل من
عرض الناس فقال : أذكرك الذي ذكرتنا به فأجابه أبو جعفر بلا فكر
ولا روية : سمعاً لمن ذكر بالله وأعوذ بالله أن أذكرك به وأنساه
فتأخذني العزة بالاثم لقد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين وأما أنت
فوالله ما الله أردت بهذا ولكن ليقال قام فقال فعوقب فصر وأهون
بها لو كانت وأنا أنذركم أيها الناس أختها فان الموعظة علينا نزلت وفيها
انبت» ثم رجع الى مكانه في الخطابة

ان السكوت والتوقف عن الكلام حيناً خير من الجواب على
المقاطعة اذا لم تأت بمثل هذه البلاغة ولا سيما اذا كان المقصود منها

الاضرار بالخطيب والتشفي . وهذا السكوت الدال على عدم الاكتراث بالمقاطع يعد مقدرة وترفعاً محموداً

وأما اذا كانت المقاطعة للاستفادة والتعمق في البحث فقد يستطيع الخطيب مواصلة حديثه اكتساباً للوقت مع التفكير في الرد في آن واحد الى أن يحضره الجواب اللائق الموافق وهذا من وراء الغاية

ويستحسن بالخطيب حينما يخلو الى نفسه ان يعيد في ذهنه ما جرى في الحفلة وليتذكر موقف الجمهور والمقاطعين وينظر فيما اذا كان قد أحسن التصرف ازاء هؤلاء وأولئك في هذا التفكير درس وعبرة والخلاصة على الخطيب لدى المقاطعة اما أن يرسل جوابه كالسهم اذا ساعده المزاج والخطر واما أن لا يعبأ بها خير من أن يتمتم كلاماً لا هو جواب ولا تتمه خطاب

بقي أن نقول كلمة عن التصفيق فلا يجب أن يغتر به الخطيب لانه لا يدل دائماً على الاستحسان بل كثيراً ما يأتي تأديباً أو عادة أو دفعاً للملل وقد يكون لان الكلام مما يضحك أو اشفاقاً على الخطيب من التعب فكأنه فرصة للراحة . وقد يكون أيضاً لاجل اسكات الخطيب بعد أن أتمهم بالكلام الذي لا طائل تحته

وكما يصفق النظارة أحياناً للممثل اكراماً للمؤلف لاله كذلك يصفق للخطيب لأجل الخطاب بل لنكتة جاءت موافقة لروح السامع أو لاسم عظيم ذكره أو غير ذلك . بل لو لم يكن في التصفيق غير الاستحسان لما كفى ذلك للدلالة على جمال الخطبة ولو أعطي الخطيب أن يتغلغل في القوم ويصغي الى همهم لعاد دهشاً من كثرة ما يسمع من الطعن أو الانتقاد حتى من أقرب أصدقائه وأخلص المعجبين به

وعندي أن مقدرة الخطيب ليست في اثاره التصفيق بقدر ما هي في استجلاب السكوت ، السكوت التام الدال على الاصغاء والخشوع وأن عيون الجمهور شاخصة الى شفثيه وعقولهم متصلة بفكره وقلوبهم خافقة على صوته . وأنفاسهم محبوسة على كلماته . ذلك لان الخطيب يستولي على النفوس أكثر مما يستولي عليها المغني المطرب ولانه ساعة القول يخلق ما في نفسه ويقويه أو يضعفه حسبما يشاء فيسرع ويتمهل ويعلو ويهبط على وزن دقات القلوب . تلك هي مقدرة الخطيب التي تتجلى فيه في ساعة من الوحي مباركة

وبعد الختام فليصفق الناس ما شاءوا للتعبير عن اعجابهم واستسلامهم أما الخطيب فقد سبقهم الى ادراك هذا الاعجاب منهم وشعر به قبلهم

أما المكاء أي الصغير فهو علامة الاستهجان عادة ولكن الكثير
من العامة في الشرق يجهلون معناه فيستعملونه في مكان تصدية الأيدي
فيختلط الحابل بالنابل ولا تعرف المراد منه تماماً

تهيئة الخطاب

من الخطباء من يفكر في موضوعه والقلم بين أنامله فيخط على القرباس كل ما يمر بالخاطر على أمل العود اليه عند التبييض لتنقيح الفاظه وتهذيب عباراته

ومنها من يستعد وهو يتكلم بصوت عال كأنه يملئ على الذاكرة ما تجود به القريحة حتى اذا جاء وقت الكتابة أعادت الذاكرة كلامه وتمثلت لديه الالفاظ والجل التي فاه بها فيتخير منها ما يشاء للصياغة والتعبير ومنها من يستعد وهو صامت كأنه يسمع صوته الباطن بدون أن تحمله تموجات الهواء الى أذنيه

ومنها من يحمد في مجلسه أو يروح ويحيى حيناً ناطقاً وحيناً صامتاً كل ذلك حسب مزاج الخطيب وحالة نفسه والغاية واحدة وهي اعانة الذاكرة وتموينها بالتفكير والتبحر حتى اذا تجلج الموضوع في صورته الكاملة عمد الخطيب الى اختيار القالب الذي يريد أن يفرغه فيه فاذا كان الخطيب ممن يستعدون وهم يكتبون فليس من الضروري أن يهتم كثيراً بالالفاظ اذا لم تقع موقعها ولم تصر الى قرارها لأن الاستعداد يكون في أول الأمر للمعاني دون الصورة والأحسن أن يمضي في كتابته بلا توقف وان خاتته كلمة أو جملة جاوزها الى غيرها دون أن يضيع الوقت في البحث عنها

كذلك اذا كان استعدادة بالتكلم لا الكتابة فان التوقف لدى كل كلمة لا تحضر في حينها أو تركيب لا يصيب مقره يقطع عليه مجرى أفكاره والافضل ان يعتبر نفسه كأنه يتكلم أمام جمهور فلا يتلجلج بل يواصل كلامه كما يجري على لسانه صواباً أو خطأ ومتى انتهى من هذا التمرين

وقعد الى الكتابة أعادت عليه الذاكرة ما سمعت وكان له متسع من الوقت للتفكير فيما فاتته واحضار ما غاب عنه وتهذيب ما وقع عليه وليس هذا مما يستهان به اذا أخذ على نفسه أن يتنبه الى مواضع الضعف في المعنى أو التعبير في سياق كلامه فان الذاكرة تحفظ ذلك وتعيده عليه لدى تبييض الخطاب . فكما يمكن المرء أن يقول في نفسه قبل أن ينام أريد أن أستيقظ ساعة كذا وتلييه الذاكرة فتوقظه في الأجل المضروب، يمكن الخطيب في عرض كلامه عند الاستعداد أن يذكر ويقول هنا يجب التطويل أو الاختصار أو ابدال هذا اللفظ أو تلك الجملة فيبقى هذا الطلب كامناً في العقل الباطن الى أجله المسمى فلا يفوت الخطيب عند تبييض الخطاب أن يتنبه اليه

قد لا يحتاج الخطيب الى كتابة خطبته بعد الاستعداد بل يكتبها بما يسمونه رؤوس اقلام ان كان ممن رزقوا ذهنًا صافيًا وذاكرة قوية ولكن الافضل ان يكتبها ليتعود على تهذيب عباراته وتنميقها وتنسيقها فلا يقع في التكرار الملل أو الضعف الشائن أو السهو المفسد على كل حال لا ندخه له مهما تكن طريقته في تهية الخطاب من أن يتمرن على انتقاء الالفاظ الجميلة حتى تأتيه عفواً بلا جهد وتنساق اليه بلا تعب وهذا التمرين يحمله الكثيرون ومداره ان يجرد الرجل من عقله قوة يضعها شبه حاجز بين الدماغ واللسان فتكون رقيقاً على الفاظه كرقيب الجمارك تفحص كل كلمة قبل أن تختلج بها شفتاه لتسمح بالمرور أولاً تسمح وهكذا يتعود ان لا يلفظ الكلمة التي لا توافقه وهذا الضرب من التمرين يفيد كل انسان فقد تعودنا في حياتنا البيئية والاجتماعية أن نقول في كثير من الاحايين جملاً مجهزة لا تتبدل مما ضيق دائرة التعبير. ألا ترى اننا اذا أردنا مثلاً ان ننهي على خطاب نكتفي بالقول انه بليغ فكأننا في الواقع لم نقل ما يلزم لان هذه الصفة تنطبق على شتى الخطب وكان الاصح ان نذكر كل ما يمتاز به الخطاب ونوضح السبب الذي من اجله يستحق ان يوصف بالبلاغة . وكم من الناس رجالا ونساء يكتفون للحكم على الاشياء بمثل هذه الجمل العمومية فيقولون هذا عظيم وهذا هائل وهذا عجيب وماشا كل كل ذلك اجتناباً للتعب وتخفيفاً للجهد في البحث عن الكلمات المواقفة التي لا تلبينا عادة وهي لو حققت قرية المنال بقليل من هذا التمرين

جاء في العمدة لابن رشيق : العمل هو على جودة الالفاظ وحسن

السبك وصحة التأليف . ألا ترى لو أن رجلاً أراد في المدح تشبيه رجل
لما أخطأ أن يشبهه في الجود بالغيث والبحر وفي الاقدام بالاسد وفي المضاء
بالسيف وفي العزم بالسيل وفي الحسن بالشمس فان لم يحسن تركيب هذه
المعاني في أحسن حلاها من اللفظ الجيد الجامع للركة والجزالة والمندوبة
والطلاوة والسهولة والحلاوة لم يكن للمعنى قد اه : يعني انك اذا
اكتفيت بالقول هذا الرجل كالأسد أو كالبحر أو ما شاكل فكأنك لم
تقل شيئاً

ومثل هذا ما ينظمه الشعراء من قصائد المدح والرثاء فان فيها من
الافصاف ما ينطبق على كل انسان وبالأحرى لا ينطبق على احد وقلما
تجد بينها ما عليه طابع خاص فلا يستطيع نقله من موضعه بل هي تقريباً
كالنقود المستعملة بين ايدي الناس ربيبة العادة والتقليد

هذا داء يجب معالجته والا افضى الى فقر اللغة ونزول اللسان عن
ملكة الفصاحة وحسب الكاتب او الخطيب أن ينتبه اليه ليمرن نفسه
تمريناً خاصاً يجعله في مأمن من الوقوع فيه ويفتح امامه أبواباً جديدة
يدخل منها الى ميدان واسع يحول فيه القلم واللسان جولات لا تمر بحلم

وبعد انتهاء الخطيب من ترتيب خطابه واستيفاء معانيه واختيار
الفاظه وتقسيمه حسب القواعد والاصول كما ذكرنا في الانشاء الخطابي
يبقى عليه الرجوع الى المطلع ليتقنه بوجه خاص ويتفنن في مقدمته تفنناً
مستجباً يأخذ بالباب السامعين ويعدّها إعداداً حسناً للاصغاء اليه
والتقاط ما ينثره على مسامعهم بما وقف على تحضيره وقته وعقله وقلبه .
ثم الى الختام فيعبر عليه نظر المتقد الصارم ولا يدع فيه أثراً
للضعف أو اللبس بل يوفيه حقه من القوة والجلال والبلاغة حتى يترك
في الآذان صدى جميلاً مستطيلاً

والافضل له بعد ذلك أن يستظهر خطبته ليكون فعلها أوقع في
النفوس ولا بد هنا من الفات القارئ الى أمر من الاهمية بمكان فان
استظهار الخطبة لا يقصده القاءها غيباً كما يليق الطالب أمثولة المدرسية
فان هذه الطريقة فضلاً عن انها لا تجلب الاقتناع ولا تجيد التأثير تقف
حاجزاً دون تقدم الخطيب في فنه لانها لا تعود على الاستفادة من موقفه
ومن حالة السامعين وتأثرهم ليزيد أو ينقص من كلامه ويسهب أو
يختصر في شرحه بل تجعله كالتمليذ أو الممثل لا كالخطيب . وكمن
فرصة تعرض للمتكلم في القوم فتوحي اليه معاني جديدة هي بنت
الساعة من تصفيق الناس أو هتافهم أو تمللمهم أو ضحكهم أو مقاطعتهم
أو غير ذلك فاذا كان يلقي خطابه عن ظهر قلبه أي مقيداً نفسه بجملة
المرسوفة لا يغير كلاماً ولا يبدل نظاماً فقد فاته الاستفادة من تلك
الفرص التي قد تقال فيها جملة واحدة مرتجلة فتفعل فعل الخطاب بأسره

الارتجال

الارتجال في اللغة هو الكلام من غير تهيئة أو الابتداء به من غير فكر وقد كان أمراً طبيعياً ميسوراً للعرب قال الجاحظ : وكل شيء للعرب فهو بديهية وارتجال وكأنه الهام وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا اجالة فكر ولا استعانة وانما هو ان يصرف وهمه الى الكلام والى رجز يوم الخصام أو حين ان يمنح على رأس بر أو يحدو يبعير أو عند المقارعة أو المناقلة فما هو الا ان يصرف وهمه الى جملة المذهب والى الممود الذي اليه يقصد فتأتيه المعاني ارسالا وتنثال عليه الالفاظ اثيالا ثم لا يقيده على نفسه ولا يدرسه أحداً من ولده

وكانوا أميين لا يكتبون ومطبوعين لا يتكلمون وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر وهم عليه أقدر وأقهر وكل واحد في نفسه أنطق ومكانه من البيان أرفع وخطباؤهم أوجز والكلام عليهم أسهل وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا الى تحفظ أو يحتاجوا الى تدارس وليس م كمن حفظ علم غيره واحتذى على كلام من كان قبله فلم يحفظوا الا ما علق بقلوبهم والتحم بصدورهم واتصل بعقولهم من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب

أما اليوم فالارتجال نادر بل اذا حققت لم تجد لحقيقته أثرا لان الخطيب العصري لا يستطيع التكلم بما لا يعرف فاذا كان عارفاً موضوعه فالتهيئة حاصلة فعلا بما وعاه ذهنه بالدرس والمطالعة والاختبار قد يراد بالارتجال تركيب الالفاظ وتنسيق الجمل وافراغ المعاني في قالب من التعبير يوافق مقتضى الحال وهذا أيضاً صعب على خطيب اليوم لانا نتكلم عادة غير اللغة الفصحى التي نكتبها فنضطر بحكم الامر الى

إعمال الفكرة عند الخطابة واجهاد الذاكرة ولو قليلا وتوزيع قوة العقل بين النظر في الموضوع والعناية بالالفاظ في وقت واحد وهذا كاف لاضاعة رونق الخطاب والتقصير في اجادة الالقاء . قال الدكتور تولوز وهو من علماء النفس والاخلاق : ان الارتجال آفة الخطابة لانه يلقي المعنى على عواهنه دون أن ينضج بالتفكير ، فكيف اذا أضفت الى ذلك الركافة التي مني بها أكثر الناطقين بالضاد للسبب الذي ذكرناه ومن قرأ مشاهير الخطب التي قيلت ارتجالا وحفظت بالاختزال دهش لما فيها من الضعف والتناقض ولم تخف عليه عيوب الانشاء عند قراءتها على الرغم من وميض البلاغة الظاهر من خلال السطور .

أما اذا كان المقصود بالارتجال جملة قوية تأتي عرضاً في الخطاب رداً على اعتراض أو اسهاباً في البيان أو شرحاً لسؤال في وسع كل خطيب ولكن أن تقال خطبة كاملة من غير استعداد فلا يقصر الخطيب في مادته أو ييانه فهذا ما لا أظنه يتاح لكثيرين

انظر الى خطباء الاقدمين فانهم كانوا يهيئون خطبهم قبل القاها وهذا ما حفظها لنا لان الاختزال لم يكن معروفاً لذلك العهد . وقد كان شيشرون يهذب خطبه ويتمرن عليها قبل ان يلقيها وكان كاتيليان من أساتذة الخطابة عند قدماء اللاتين يرى ان الارتجال لا يتهيأ للمرء الا في أواخر عمره بعد ان يكون قد ذاق الامرين في تعلم صناعة الخطابة . وهذا بوسويه كان يكتب خطبه ومسوداتها لا تزال محفوظة ولما ظهرت الثورة الفرنسية اضطر القوم الى الارتجال في كل ناد وموقف ولكن ذلك لم يمنع ميرابو ان يكتب أكثر خطبه قبل القاها وكذلك روبسبير

وانظر الى خطباء اليوم فلا تجد فيهم من لا يعترف بالاستعداد قبل
التكلم كالحامي لابوري وهنري رويير وفيثاني وجورس وغيرهم ومما
قاله هنري رويير « انا لا اعمل والقلم في يدي ولكني لا اقطع عن
التفكير أينما وجدت ولا يزال دماغي في عمل مستديم فتتوارد الجمل على
خاطري وأرددها في باطني » والله در ابن المعتز حيث قال

والفكر قبل القول يؤمن زيغه شتان بين روية وبديهة
واذا اضطر احد هؤلاء الى الكلام عن غير استعداد كما كان يحدث في
ندوة القضاء او النيابة فللاعتراض او دفع حجة او اقامة برهان او شرح
حادث وهذا سهل لأنه لا يخرج عن موضوع الفقه ودرسه وعالجه غير
مرة بالقلم واللسان

ولا أدري وأيم الحق ما الفائدة من التكلم بدون سابق استعداد في حين أن الخطيب قادر أن يأخذ للامر أهبة وان يفرغ الطوق في لباس موضوعه حلة انيقة فان كانت غايته الباهة فقد أخطأ المرمي لأن ما يعرفه من الموضوع هو كما بينا ضرب من الاستعداد فضلاً عن ذلك فانه من المستحيل أن تأتي عباراته برشاقة وانسجام وتنساق اليه بمثل النظام الذي يكون من وراء الاستعداد

ثم ان ظهور الخطيب بمظهر المرتجل الذي لم يستعد فيه ازدياء بالحاضرين واعتداد بالنفس يقرب من الدعوى الفارغة المذمومة فان هذا الجمع الذي أزعج نفسه وجاء لسماعه وربما كان فيه من أقبل من مكان سحيق غير مبال بالمشقة وبعد الشقة يستحق شيئاً من العناية والاكرام فلا يليق بالخطيب أن يقدم له إلا أحسن ما عنده

وهناك فئة تدعي الخطابة وقد يكون بينها من يحسنها ولكن عيبها التبجح أبداً بعدم الاستعداد كأنه مزية كبرى تشهد لهم بسرعة الخاطر وذلاقة اللسان ولا يفهمون ما في هذه الدعوى الباطلة من جلب اللام أحياناً والجزء دائماً

وقد ذكرنا رأي الدكتور تولوز في ان الارتجال آفة الخطابة لاستحالة التدقيق والتنميق ونضيف اليه أن فيه مجازفة كبيرة لأن الدخول في الموضوع قد يكون يسيراً ولكن الخروج منه عسير والمتكل على قدرته ليفرع المنبر مرتجلاً هو كالحارب الذي ينزل الى الميدان أعزل على أمل أن يستعمل سلاح عدوه أو كالقائد يهاجم خصمه وهو لم يرسم من قبل خطة الهجوم وكم من المرتجلين الذين يصدق فيهم قول الشاعر: ويرتجل الكلام وليس فيه سوى الهذيان من حشد^(١) الخطيب

(١) الحشد أي الاستعداد

لا أريد أن أدخل اليأس الى قلب القارئ الراغب بهذه الصناعة فالارتجال ممكن لقوي الارادة بعد أن تتوافر لديه الوسائل من سعة اضطلاع ومطاوعة قريحة وتصرف روية وحضور ذهن وامتلاك لخاصية اللغة والذي يأمن العثار فيه هو المطبوع الخاذق الواثق بغزارة مبادئه ورباطة جأشه لأن الثقة بالنفس وحدها كافية لأن تنفي عنه كل خاطر يورث اللجلجة والنحنحة والانتقطاع والبهر وما إلى ذلك

وهو وإن يكن أبعد منالا على المتكلمين بالعربية للأسباب التي أشرنا إليها من انفراج مسافة الخلف بين العامية والفصحى فلا يعد مستحيلا ولا سيما في مصر حيث الفطرة كفيلة به بما للمصريين من ألسنة ذلقة وألفاظ حسنة وعبرة جيدة تجعل العامية قريبة من الفصحى فلا تجفل الاسماع منها

وفي الارتجال تظهر مزية المطالعة التي ذكرناها في فصل سابق فاذا كان الخطيب ممن لم يتكلموا على بلاغتهم الفطرية بل اجتهد بتوفير رأس ماله والاكتثار من محفوظه « فقد سهلت عليه مستوعرات النثر وذللت له صعاب المعاني وفاض على لسانه وقت الحاجة ما كمن من ذلك بين ضلوعه » والحاجة في الارتجال تدعو إليها مفاجآت كثيرة ولا سيما اذا كان الخطيب ممن أحرزوا قسطاً وافراً من الشهرة فتتطاول الاعناق اليه أيان وجد ولا يجد مناصاً من تلبية الدعوة بفضل الدرس الطويل وسابق الاجتهاد يستطيع الخروج من هذا المأزق سليم الشهرة عفوفاً الكرامة

بل ان الاستعداد الكامل وتهئية الخطبة بألفاظها ومعانيها قد

لا يقي الخطيب من الدهول والنسيان فيقف على المنبر وقد غاب عنه كل
ما أراد أن يقول فإذا كان قادراً على الارتجال فلا يعدم مخرجاً لطيفاً بل
تأتيه النجدة من حيث لا يدري ويفيض لسانه بالفصاحة جائلاً جولات
طويلة دون أن يشعر السامع بأنه يقول غير ما أعدّه كتابة

وأفضل الوسائل للتمرين على الخطابة والارتجال هو أن ينشأ في
المدارس شبه مجامع علمية لعدد محدود من الطلبة فيطرح عليهم موضوع
المنظرة في الجلسة ويجرب كل واحد أن يقول ما يحضره شارحاً أو
معتزلاً فإن الالفة تمنع الكلفة وتشجع التلميذ على القول بين قوم
أصدقائه وزملائه ومن رتبته سنًا وعلماً فلا يعاب على خطأ ولا
يؤاخذ بتقصير.

وبعد المدرسة على طالب هذه الصناعة أن يتعود الكلام كل صباح
ولو بضع دقائق وإن لا يكتب مراسلة قبل أن يتكلم بمضمونها بصوت
جمهوري

الرج

يقال رتج الانسان يرتج رتجاً اذا استغلق عليه الكلام فلم يقدر عليه
وهي آفة تصيب الخطيب والممثل على السواء . والسبب استعداد خاص
مرجعه في الغالب علم الخطيب بصعوبة الموقف وخوفه من الفشل وتهيبه
الجمهور المصني اليه . ولا علاقة للرتج بمنزلة الخطيب من البراعة والشهرة
بل كلما عظم قدره وذاع ذكره وكان له نباهة في قومه كان أعلم من
سواه بمصاعب الكلام ومبلغ ما ينتظره الناس منه وقد كان ولدك
روسو لا يفارقه الخوف عند التكلم على الرغم من العادة والخبرة
فكانت يداه لا تفارقان المنبر حتى آخر كلمة يلفظها لئلا يشعر بارتجافها

أعراض الرتج

يصيب العقل ضرب من الشلل تجمد به القريحة وتظمم الذاكرة
فتتناول الانسان رعدة يرافقها شبه انحلال في العضل وتراخ في المفاصل
وهن في العزيمة ويتصبب العرق من جسمه ويأخذه دوار في الرأس
وطنين في الأذن . وقد يبلغ هذا الطنين عند بعض الممثلين انه لا يسمع
ما يقول هو نفسه . وتسرع دقات القلب كأنه يحاول الخروج من
الصدر وتعلو الوجه صفرة شديدة وتضطرب وظائف المعدة والامعاء
اضطراباً مزعجاً مؤلماً

وقد يأتي الرتج في منتصف الطريق أي بعد أن يكون الخطيب
ابتداءً ابتداءً حسناً واخذ ينطلق في خطابه بسهولة وتلاعب وانشراح .
كالصاعد جبال الالب يقطع مسافات شاسعة ويحتاز عقبات كأداء دون
جهد كبير واذا به لحادث تافه لا يذكر يحس دواراً قوياً فيضطر الى

الوقوف أو القعود وأحياناً لا يجد الراحة والطمأنينة الا بالاضطجاع
على الثرى . هكذا تكون بداية الخطاب حسنة واصفاء الجمهور تاماً ثم
تعرض حركة او اشارة من احد السامعين سواء أكانت استحساناً أم
استهجاناً فتفسد الموقف على الخطيب فيجد نفسه قد تغير كل التغير وأسدل
على بصره وبصيرته ستار من الظلام تضيع فيه كل حيلة

معالجته

تكون بترية الارادة وأن يذكر الخطيب ان الرتمج ليس عاراً
واذا عد من لم يعرف الرتمج عظيماً فأعظم منه من عرفه وتغلب عليه .
متى يضع الخطيب نصب عينيه هذه الحقيقة ويذكر ان السواد الاعظم
ممن جاء ليسمعه انما جاء لاعتقاده انه يسمع شيئاً لا يعرفه أي انه يعتبر
الخطيب أوسع منه علماً ولو في هذا الموضوع وحده وانه يحترم مقامه
متى يذكر ذلك تهن الامور عليه فيجتهد أن يكون عند ظنهم فيه
وهكذا يستطيع محاربة هذه الاعمال المنعكسة بالارتداد عليها بقوة
الارادة .

ومن الأمثلة الجميلة على الجهد الذي في وسع الخطيب انفاقه لمكافحة
هذه الآفة والانتصار عليها ما ذكره غامبتا عن نفسه قبل اعتلائه المنبر
للمرة الاولى . قال في احدى رسائله الى أبيه : « يوم الخميس سأقف خطيباً
لأول مرة واني لمنتظر هذه الساعة بفارغ الصبر وقلبي يخفق لها ولكن
لا عن خوف أو اضطراب ولن يكون لي في الحياة يوم اسعد من هذا
اليوم » ان للخطوات الاولى في طريق المهنة بهجة خفية فيخال لك ان
الارض تهتز تحت قدميك ويلم برأسك دوار يشبه السعادة ثم يأتي العقل

فيثبت من حولك كل شيء لتمشي نحو شواطئ المستقبل المجهول
لقد رأيت وسمعت في شهور ثلاثة كل ما اطلع فن المحاماة من كبير
وصغير فالحق أقول لك بلا تيه أو خيلاء ان آمالي قد تضاعفت وثقتي
تزايدت . كنت منذ ستة أشهر أرجف فرقا لدى فكرة النضال مع
هؤلاء أما الآن فقد غلبت الجسارة عليّ وما فاز باللذة غير الجسور »
وبما انه لا علاقة بين الرنج ومنزلة الخطيب كما قلنا فلا خطر منه
بل ربما أفاد في بعض الاحوال بما يبعث في المرء من العزيمة لمضاعفة
الجهد والبلوغ الى الغاية

جاء في العقد الفريد ان أول خطبة خطبها عثمان بن عفان أرتج عليه فقال : « أيها الناس ان أول مركب صعب وإن أعش تأتكم الخطب على وجهها وسيجعل الله بعد العسر يسرا ان شاء الله »

ولما قدم يزيد بن أبي سفيان الشام واليا عليها لأبي بكر خطب الناس فأرتج عليه فعاد الى الحمد لله ثم أرتج عليه فعاد الى الحمد لله ثم أرتج عليه فقال : « يا أهل الشام على الله أن يجعل بعد العسر يسرا وبعد عي يانا وأتم الى امام فاعل أحوج منكم الى امام قائل »

وصعد ثابت بن قطنة منبر سجستان فقال الحمد لله ثم أرتج عليه فنزل وهو يقول

فان لا أكن فيكم خطيباً فاني بسيفي اذا جد الوغى لخطيب

ف قيل له لو قلتها فوق المنبر لكنت أخطب الناس

وخطب معاوية بن أبي سفيان لما ولي خصر : « فقال أيها الناس اني كنت أعددت مقالا أقوم به فيكم فخببت عنه فان الله يحول بين المرء وقلبه كما قال في كتابه وأنتم الى امام عدل أحوج منكم الى امام خطيب وأني آمركم بما أمر الله به ورسوله وأنها كم عما نهاكم الله عنه ورسوله وأستغفر الله لي ولكم »

وصعد خالد بن عبد الله القسري المنبر فأرتج عليه فكث ملياً لا يتكلم ثم تهيأ له الكلام فقال « أما بعد فان هذا الكلام يحجي أحياناً ويعزب أحياناً فيسبح عند محبته سبه ويعز عند عزوبه طلبه ولربما كوبر فاني وعولج فنأى فالتأني لمحبه خير من التعاطي لآييه (أي لممتعه) وتركه عند تنكره أفضل من طلبه عند تعذره وقد يرتج على

البلغ لسانه ويختلج من الجريء جناحه وسأعود فأقول ان شاء الله
 وصعد ابو العنيس منبراً من منابر الطائف فحمد الله وأثنى عليه ثم
 قال أما بعد فأرتج عليه فقال أتدرون ما أريد أن أقول لكم قالوا لا
 قال فما ينفعني ما أريد أن أقول لكم ثم نزل فلما كان في الجمعة الثانية
 وصعد المنبر وقال أما بعد أرتج عليه فقال أتدرون ما أريد أن أقول
 لكم قالوا نعم قال فما حاجتكم الى أن أقول لكم ما علمتم فلما كانت الجمعة
 الثالثة قال أما بعد فأرتج عليه قال أتدرون ما أريد أن أقول لكم قالوا
 بعضنا يدري وبعضنا لا يدري قال فليخبر الذي يدري منكم من لا يدري
 ثم نزل

وأتى رجل من بني هاشم اليمامة فلما صعد المنبر أرتج عليه فقال :
 حيا الله هذه الوجوه وجعلني فداها قد أمرت طائفي بالليل أن لا يرى
 أحداً الا أنا اني به وان كنت أنا هو ثم نزل
 وخطب عبد الله بن عامر بالبصرة في يوم أضحى فأرتج عليه فكث
 ساعة ثم قال والله لا أجمع عليكم عياً ولؤماً من أخذ شاة من السوق
 فهي له وثمنها عليّ

نظرة تاريخية

قلنا في صدر هذا الكتاب ان الخطابة فطرية في الانسان ولهذا لم تخل منها أمة حفظ التاريخ آثارها في الماضي البعيد كان بوذا يخضع الجماعات لكلامه المنزل وكانت نبوات اسرائيل تهز الملوك والامم وكانت اليونان حافلة بالبلغاء أي برجال قادرين على تحريك الشعب وانارته لعهد اوميروس وقبل ذلك العهد . ولكن فرقا عظيما بين هذه البلاغة الغريزية التي يولدها وحي الساعة ثم تزول غير تاركة أثرا والبلاغة العلمية التي امتازت بها العصور الراقية حيث كان الخطيب على حظ موفور من الفلسفة والتاريخ فكان يلقي خطابه بعد التفكير ويمكنه أن يكتبه فلا تزيل تلاوته من حسنه شيئا

هذه البلاغة الناتجة عن درس واف وثقافة عالية وتعمرين متصل أوجدتها أثينا في القرن الخامس قبل المسيح ولا بدع أققد كانت أثينا حينئذ في إمكان سام من الحضارة وشرف باذخ

وكانت فرص القول متعددة لان الاعمال الاجتماعية كافة كانت تقضى جهاراً ويجادل فيها أمام الجميع وكانت المسائل العمومية تدرس في مجتمع الامة حيث يحق لكل وطني أن يبدي رأيه وكانت الدعاوى تعرض أمام المحاكم الشعبية فيباح الكلام لمن أراد حق التهم . اصف الى ذلك اجتماعات الادب والعلم التي لم يكن للسياسة ضلع فيها فكانوا يجتمعون للذة الحديث والاستمتاع بخطيب بارع يتحدث اليهم في موضوع ما كالثناء على الابطال الذين يموتون في سبيل الوطن أو غير ذلك

وأشهر خطباء هذا العهد برقليس وازدكرات واشين وديموستين

وقد كان كل من الآخرين زعيما لحزب سياسي فقضيا العمر في عراق
مخدم الوطيس والغاية واحدة هي استقلال الوطن

كان فيليب ملك مكدونيا ينتهز فرصة الخلف القائم بين اليونان
للوصول الى اخضاعهم بالقوة او الحيلة وكانت أثينا منقسمة على نفسها
فقسم عافظ على ماضيه المجيد غير راض عن فيليب ولكنه ضعيف المهم
لما ساور الاخلاق من التخث فلا قبل له بالاقدام على امر ذي خطر .
وقسم يريد التحالف مع فيليب . وكان ديموستين حاملا لواء الحزب
الوطني واشين الحزب المكدوني وهذا الاختلاف في موقف الخطيين
خلع مسحة خاصة من البلاغة على كل منهما فلم يخل كلام اشين من
الزخرفة بينما كان ديموستين كله روحاً وعصباً . وكانت بلاغة ديموستين
مرآة صادقة لخلق القوي الشديد ونفسه الملهبة فكانت تتم عن عزيمة
أدبية لا تقهر يصرفها ذهن صاف ومنطق محكم وإباء عظيم ولسان هجام
فكان تارة جاداً وطوراً هازلاً يستخدم العقل حيناً والعاطفة حيناً آخر
هادئاً غضوباً سامياً بسيطاً وحتى اليوم لاتزال خطبه حافظة أثرها فنشعر
به عند قراءتها كأنما صوته يدوي في آذاننا

وكان صوت ديموستين آخر ما سمعته أثينا فان البلاغة لا تعيش
بدون الحرية وقد جاء انتصار مكدونيا ضربة قاضية عليها فبقيت أثينا
مدينة العلم والادب وملاهي العقل ولكن منابرها اقوت من تلك
النغاث الساحرة . ان الذي جعل اثينا عاصمة اليونان هو حياتها السياسية
فلما ذهبت أغراض السياسة منها اصبحت كباقي المدن وامتدت فتوحات
الاسكندر ناشرة بذور اليونانيين في الشرق فقامت عواصم جديدة
كالاسكندرية وانطاكية وبيزانس وبقيت اثينا كمعرض يؤمه كل من
اراد الدرس أو التذكار

ولم يبلغ خلفاء ديموستين شأوه في الخطابة ولكن اليهم يرجع الفضل في نقلها الى الذرية فان المدارس التي اقاموها في الشرق كان يحج اليها الناس من كل صوب لتلقي هذا الفن وعلى هذا الوجه لقنوا الرومان اسرار بلاغتهم فتعشقها هؤلاء واخذوا يدربون عليها فتيانهم كما يدربونهم على الحرب والحكم الى ان ظهر شيشرون الذي يعده العارفون اعظم عام لذلك العهد فأرجع للخطابة مجدها السابق وسطع نوره في سماءها كما سطع من قبل نور ديموستين ثم هوت الخطابة ثانياً وانطوى بساط عزها باستعباد اوغسطس روما كما استعبد فيليب واسكندر اثينا

ولما جاءت النصرانية بعثت فيها روحاً جديدة وقام الرسل بالتبشير فكانوا كلهم خطباء اذ قيل لهم سيروا في الارض وعلموا الامم . وقامت الكنائس على آثارهم وكان هذا الدين الجديد في حاجة الى ارشاد مستديم فنبغ خطباء بين آباء الكنيسة أعادوا للخطابة بعض عزها . ولكن لم يطل ذلك بما تطرق الى اللغة اللاتينية من فساد لغات غربية هي لغات الامم المختلفة التي دخلت تباعاً في المسيحية وأخذ العلي يملك السنة الوعاظ فصاروا يكتفون بنسخ الخطب القديمة والقائها حتى اذا طلع القرن السادس استيقظت الخطابة من ضجعتها وارتفعت أصوات جديدة كان لها أثر عظيم في الجماعة وكان من نتائجها الحرب الصليبية وبلغ من تكاثر عدد الخطباء لذلك العهد والمنافسة فيهم ان الخطابة تحولت الى واسطة للكسب وجمع المال والهدايا فنزلت عن مقامها السامي وأخذت معالمها تتلاشى الى العصر السابع عشر عصر بوردالو وفنون وبوسيه ودعاة الاصلاح والندوة العلمية التي أنشأها الكردينال رشلو وأجل أيام الخطابة بعد هذا هي أيام الثورة الفرنسية فقد اطلعت

في عشر سنوات من الخطباء عدداً لم يسبق به عهد وكان للبلاغة فيها من التأثير ما لم يعرف له نظير والسبب في ذلك ضخامة المشروع الذي أخذت الثورة على نفسها القيام به ثم السلطان الفجائي الذي اتى اليها الدهر مقاليده والسرعة الهائلة التي كانت تتعاقب بها الحوادث ثم شدة العراك يختلط به غريزة البقاء وأعمار الخطباء وأكثرهم في شرح الشباب . ولم تكن مشاغل النفوس وأهوالها تمنع أولئك الخطباء من العناية بالشكل والديباجة والبأس أفكارهم حلا براقة من الالفاظ والتعابير بما اتصل بهم من تأثير العصر السابق فكانوا يكتبون خطبهم قبل البثها على ان ذلك لم يكن مانعاً لهم من الارتجال عند الضرورة فتجيء أقوالهم ملتبة كنفوسهم وفيها على بساطتها من اخلاص الشعور وتأثيرات النفس ما يبعث القوة والحرارة

ثم خفتت الاصوات بمن طاحت بهم الثورة من أمراء الكلام وأقوت المنابر وجاء نابوليون وكان لا يحب الخطباء فلم يعد يسمع الا ضجيج المواقع الحربية ومن فوقها صوت واحد يملأ الكون هو صوت ذلك القائد العظيم

أما اليوم فقد عادت الخطابة الى الظهور بنور أسطع ومجد أكمل وامتدت أعراقها الى كل فؤاد ونشرت الوتيا في كل ناد من قصور الاغنياء الى أكواخ الفقراء ومن معاهد العلم الى ملاعب التمثيل الى مجالس الادب والطرب الى الاسواق

كان للعرب في الخطابة نصيب وافر أتاحه جوم وأحوال معاشهم وأخلاقهم وآدابهم فإن الحرية التي وجدوا فيها واستنشقوا هواءها والحماسة التي طبعوا عليها والاحساس الشديد الذي اشتملت عليه نفوسهم جعل للبلاغة أثراً عظيماً فيهم فكانت الجملة البليغة تقيمهم وتقعدم بما تثيره في خواطرهم من النخوة لحماية جار أو أخذ ثأر أو غير ذلك

وكانوا متفرقين قبائل ونحل متعودين على الغارات والحروب فوجدوا في الخطابة عوناً لهم على الحض أو التحذير والترغيب أو التنفير والمفاخرة أو المناظرة بل صارت عندهم مظهرًا من مظاهر الفروسة يتباهى بها شجعانهم ويدرب عليها فتيانهم كما في الرومان.

قال عمر بن العلاء كان الشاعر في الجماهير يقدم على الخطيب لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيد عليهم مآثرهم ويفنم شأنهم ويهول على عدومهم ومن غزام ويهيب من فرسانهم ويخوف من كثرة عدومهم ويهاهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم . فلما كثر الشعر والشعراء واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا إلى السوقه وتسرعوا في أعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر

ولم تكن الخطابة عندهم كما أشرنا إليه في الكلام عن الارتجال عن طول فكرة واجتهاد رأي ودراسة كتب بل بديهية وارتجالاً وكان لهم بها غاية الاعتناء حتى قال صاحب الريحان والريعان: « ان ما تكلمت به العرب من أهل المدر والوبر من جيد المنثور ومزدوج الكلام أكثر مما تكلمت به من الموزون الا انه لم يحفظ من المنثور عشره ولا ضاع من الموزون عشره لان الخطيب انما كان يخطب في المقام الذي يقوم فيه

في مشافهة الملوك أو الحالات أو الاصلاح بين العشائر أو خطبة النكاح
فاذا انقضى المقام حفظه من حفظه ونسيه من نسيه بخلاف الشعر فانه
لا يضيع منه بيت واحد». قال: «ولو لا أن خطبة قس بن ساعدة كان
سندها مما يتنافسه الانام وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي
رواها عنه فأطار ذكرها ما تميزت عن سواها»

قال القلقشندي: «وليس ما أشار اليه لرفض النثر عندم وقلة اعتنائهم
به بل لسهولة حفظ الشعر وشيوعه في حاضرم وباديهم وخاصهم وعامهم
بخلاف الخطابة فانه لم يتعاطها منهم إلا القليل النادر من الفصحاء المصاع
فلذلك عز حفظها وقل عنهم نقلها وقد كانت تقوم بها في الجاهلية
سادات العرب ورؤسائهم ممن فاز بقدر الفضل وسبق الى ذرى المجد
وينحسون ذلك بالمواقف الكرام والمشاهد العظام والمجالس الكريمة
والجامع الحفيلة فيقوم الخطيب في قومه فيحمد الله ويثني عليه ثم يذكر
ما سنع له من مطابق قصده وموافق طلبه من وعظ يذكر أو نثر أو
صلاح أو نظام أو غير ذلك مما يقتضيه المقام

قال الحافظ: «ونحن أبقاك الله إذا ادعينا للعرب أصناف البلاغة من
القصيد والارجاز ومن المنشور والاسجاع ومن المزدوج وما لا يزدوج
فمنعنا العلم على أن ذلك لهم شاهد صادق من الديباجة الكريمة والرونق
العجيب والسبك والنمط الذي لا يستطيع أشعر الناس اليوم ولا أرفعهم
في البيان أن يقول في مثل ذلك الا في اليسير والنزر القليل ونحن
لا نستطيع أن نعلم أن الرسائل التي في أيدي الناس للفرس انها صحيحة
غير مصنوعة وقديمة غير مولدة اذا كان مثل ابن المقفع وسهل بن
هرون وابي عبيد الله وعبد الحميد وغيلان وفلان وفلان لا يستطيعون

أن يولدوا مثل تلك الرسائل ويضعوا مثل تلك السير وأخرى انك متى أخذت بيد الشعوبى فأدخلته بلاد الأعراب الخلف ومعدن الفصاحة التامة ووقفته على شاعر مفلق أو خطيب مصقع علم ان الذي قلت هو الحق وأبصرت الشاهد عياناً فهذا فرق ما بيننا وبينهم فتفهم عني فهمك الله ما أنا قائل ، انتهى

وكان يسمى خطيب القوم الزعيم أو المدروه وأشهر خطباء الجاهلية قس بن ساعدة وعمر بن كلثوم واكنم بن صيني التميمي والحارث بن عباد وقس بن زهير وغيرهم .

ولما جاء الاسلام ساعد على انتشار الخطابة تأييداً للدعوة الكبرى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فكان لها من آي القرآن معين لا ينضب وأخذ الخطباء يرصعون خطبهم بالآيات تمثلاً أو اشارة أو تهديداً حتى لقد يجعلون الخطبة برمتها مجموع آيات كما فعل مصعب ابن الزبير لما قدم العراق وأراد أن يحرض أهله على الطاعة لأخيه عبد الله (أنظر القسم الثالث في خطب العرب)

واتخذت الخطابة حينئذ صبغة غير التي كانت عليها في الجاهلية فكانت لغتها أرفى وأعلى وأصفى وعلا شأنها إلى درجة لم يسبق بها عهد لانصراف العرب عن الشعر اليها واعتمادهم في الدين والسياسة عليها وأعظم خطباء هذا العصر هم بعد النبي دعائه وقواده وخلفاؤه

ولما ثارت الفتن بعد مقتل عثمان وافترق المسلمون أحزاباً اشتدت الحاجة اليها عند كل فريق للدفاع عن مبادئه والطعن في خصومه فكان في الجانب الواحد العراقيون وعلى رأسهم علي بن أبي طالب وفي الجانب الثاني الشاميون وفي طليعتهم معاوية

ثم أخذت تضعف ملكة الخطابة بعد الفروغ من الفتوح والاستسلام الى الترف والرضاء حتى صدر الدولة العباسية فاذا بالخلفاء ودعاتهم ينعشونها بعد الذبول وينهضون بها بعد الجمول كالمنصور والمهدي والرشيد والمأمون وداود بن علي وخالد بن صفوان وشبيب بن شبة ولما استوثق الأمر لبني العباس وقام الاجناب والموالي بسياسة الدولة وقيادة الجيش وقل النضال باللسان والسنان ذهبت البلاغة من الألسنة وحل محلها الرسائل والنشرات وقصرت الخطابة على الجمع والعديد والاملاك . على أن الخلفاء أنفسهم ما برحوا يخطبون الناس ويؤمنونهم الى عهد الخليفة الراضي فلما غل الديلم أيديهم وحصروهم في دورهم عهد بالخطابة والامامة الى الأكفاء من العلماء فنبغ في آخر هذا العصر طائفة من الادباء شهبوا بهذا النوع من الخطابة كالبغدادى والتبريزي ولما استعجم المسلمون وملك العي السنة الوعاظ فلم يستطيعوا انشاء الخطب في الموضوعات المختلفة عمدوا الى استظهار خطب أسلافهم كابن نباتة المصري وأخذوا يرددونها فوق المنابر من غير فهم لمعناها ولا علم بمعناها ودرجوا على هذا الحال الخزية تلك القرون الطويلة حتى اليوم ، (راجع تاريخ الآداب العربية لزيدان والآداب العربي للزيات والوسيط للشيخ احمد الاسكندري والشيخ مصطفى العناني)

واليوم بعد أن تنوعت أسباب الحياة وتعددت مظاهر الاجتماع وتبدل شكل الحكومات وتغيرت سلطة الحكم عادت الخطابة الى الظهور لابساً ثوباً آخر غير ثوبها الديني فظهر في الشام لعهد غير بعيد أديب اسحق والشيخ العازار وغيرها وفي مصر عبد الله النديم والشيخ محمد عبده ثم مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول أعظم خطباء هذا العصر الحاضر وأقوام حجة وأبعدم تأثيراً وأكثرهم بياناً

أنواع الخطابة

قسم اليونان قديماً الخطابة الى ثلاثة أقسام تبعاً لاحوال الزمان من
ماض وحاضر ومستقبل وسموها البيانية أو التثبيتية والشورية
والقضائية فالاولى تختص بالزمن الحاضر لمدح فترغيب أو ذم فتتغير
والثانية تتعلق بالمستقبل لتحمل السامع على جلب النفع للجمهورية أو
دفع الضرر عنها أو للحض على الحرب أو السلم وسن هذه السرعة أو
تلك واستمالة رأي الجمهور أو التغلب عليه ، وكانت تجري في الهواء
المطلق أمام جماعات متهيجة بين الصخب والضجيج والمقاطعة والمعارضة
والتكذيب وكان على الخطيب أن يقاوم أمواج هذا العداء المتلاطمة من
حواله وكثيراً ما خطب غير واحد في آن واحد كأنما هم في ميدان قتال
لا مجال كلام . ولما بطل الاجتماع في « الفورم » أي المحل العمومي أو
السوق بطل هذا النوع من الكلام

والقسم الثالث أي القضائي يختص بالماضي والغاية منه الدفاع عن
متهم أو الحكم عليه وهو من خصائص المحامين

هذا التقسيم وضعه ارسطو الذي جعل الخطابة أحد أقسام المنطق
وألف فيه كتابه الذي عربه بشر بن متى في القرن العاشر ولخصه ابن
رشد . وقد مثنى على هذا التقسيم أرباب الخطابة عشرين قرناً . أما
اليوم فقد تبدلت أحوال المعيشة المدنية والسياسية والدينية مما دعا الى
تبديله . دعك من انه تقسيم بعيد عن الدقة والاحكام لتدخل الواحد
في الآخر من هذه الاقسام فان الخطيب الذي يتكلم عن الماضي لا بد له
من الامام بالحاضر والمستقبل على سبيل الاستشهاد وغيره وكذا العكس
والمعول عليه اليوم هو تقسيم الخطابة الى خمسة أنواع : سياسية
وقضائية وعسكرية ودينية وعلمية

الخطابة السياسية

كان لهذا النوع من الخطابة فيما مضى المكان الاول لصلته المكيمة بحياة الامة في هبوطها وصعودها فان الامة كانت كل شيء وكان عليها مدار العمل في الحرب والسلم فكان تأثير البلاغة أقرب واسطة الى تحريكها ودفعها في طريق معينة . ولا يخفى ان المقصود بهذا القول الامم الحرة كاليونان والرومان وأما المستعبدة المغلوب على أمرها فلم تكن تعرف هذا الفن ولا تحلم به لضعفها وخنوعها وامتناع الكلام عليها

وكان الخطيب السياسي مضطراً الى الالمام بأسرار الدولة الداخلية والخارجية والتعمق في درس أحوالها المادية والعسكرية فضلاً عما يحتاج اليه من حدة خاطر وشدة عارضة وحماسة في القول . ونحن مهما نحاول اليوم أن ندرك بالتصور مقدار الأثر الذي كان لرجل مثل ديموستين أو شيشرون في أمته لا نصل الى الظفر بالحقيقة . نقرؤم بعد هذا العهد العهد فنعجب بهم أبما اعجاب فكيف لو سمعناهم واتصلت بنا نظراتهم وشهدنا عن كذب حركاتهم وما يتجلى فيها من روحهم الثائرة وقد أتى على الخطابة السياسية زمن تقلص فيه ظلها من بعد العصر الروماني الى أن عادت الى الظهور في بلاد الانكليز لعهد اللورد شاتام ثم دزرائيلي وغلادستون وفي فرنسا إبان الثورة وبعدها وكانت أيام الثورة كما مر بنا أجمل عهد للخطابة بمن لمع فيها من أشباه برناب ودانتون ودمولن وميرابو وغيرهم ولم يقصر في ميدانها من أتى بعدهم من نابوليون الى بنجمان كونستان والجنرال فوي وغامبتا وتيارس الى كليمانصو وجيورس وفيقياني وبريان وبوانكاره لعهدنا هذا

على أن خطباء العصور الاخيرة لم يبلغوا شأواً الاقدمين ولم يكن لهم تلك الجولات الواسعة التي عرف بها الأولون فقد صار من النادر أن يقف الرجل في مكان عمومي ويخطب في قوم لا معرفة له بهم وأغلب ما تكون الخطابة السياسية اليوم في حفل يضم اخواناً وزملاء كندوة النواب مثلاً ثم ينقل البرق الخطاب مختزلاً الى أطراف المعمور فلا يكون له في المطالع أثره في السامع ولهذا قصرت غاية الخطيب على التدقيق في موضوعه وفي أرقامه الاحصائية متجافياً ما أمكن وجوه الاستعارات وضروب المجاز وما الى ذلك وقد كفى مثلاً هذا ميرابو وتيارس وغامبتا ليدركوا ما وراء الغاية من التأثير في معاصريهم

ومن نواب الفرنجة اليوم من لا يعتمد على العاطفة في خطبه بل ينهج سبيل المنطق البحت كأنه يتكلم في جمع من مديري البنوك ورجال المال والتجارة كما ان منهم من لا يزال يلجأ اليها كلويد جورج وبريان طلباً للاجادة في التأثير على انه تأثير وقتي لا ندري ما يبقئ منه بعد ربع قرن . واننا نقرأ خطب كليمانصو التي كانت تثير الزوبعة في مجالس فرنسا فيعتبرنا الدهش ولا نعرف من أين كان لها هذا الوقع

واذا راجعت خطب مصطفى كامل وسعد زغلول لم يخف عليك ما فيها من سلاح العاطفة وتبين لك ان هذه الطريقة لا تزال أقرب الطرق الى قلوب الجماعات

والخطابة السياسية من أصعب فنون الخطابة لان حركات الامة هي نتيجة مد وجزر يولده سيطرة الافراد على الجمهور أو الجمهور على الافراد فيتبع الخطيب هذه الامواج آمراً في القوم أو خاضعاً لرغائبهم فلا هو واثق بالنجاح كل الثقة ولا يائس منه كل اليأس

وقلما نجد من خطباء السياسة من لم يذق في احتكاكه بالجمهور لذة الانتصار أو لوعة الانكسار وهذا يدل على حرج الموقف وما يقتضيه من درس عقلية النواب والتعرف الى أميالهم وأخلاقيهم كما يتعرف الطبيب الى جسم الانسان جزءاً جزءاً . والذي يعرض عن هذا الدرس مكتفياً بما رزق من صنع اللسان وبلاغة البيان أو عرف به من نزاهة القصد واخلاص النية لم يسلم من الحية والفشل أحياناً بل لو طرح قلبه على المنبر لما أقنع السامعين اذا هم أبوا الاقتناع

على كل حال من أهم واجبات الخطيب النائب أن لا يقرب خلتين الاولى الغضب لأنه آفة العقل والرزانة والثانية استعمال الفاظ سافلة تدعو الى الأسف والندم

الخطابة العسكرية

تختلف هذه عن الاولى كل الاختلاف لان الحرب لا تدع مجالاً واسعاً لتزييق الجمل ومهما يكن الخطيب جهوري الصوت فهو لا يستطيع أن يسمع الالوف ولذلك جرت العادة أن تكتب الخطبة وتوزع على الجند . والغاية من الخطابة العسكرية هي إلهاض هم الجنود واذكاء نار الحماسة فيهم واثارة النخوة والحمية والاقدام وتهوين الموت وتجميل التضحية واعطاء الثقة بالنفس والامل بالنجاح

ومن أجمل الخطب العسكرية خطبة طارق بن زياد قبل فتح الاندلس وخطبة نابوليون في حملة ايطاليا وبين الخطبتين كثير من الشبه كأن روحاً واحدة أوحى الى البطل العربي والقائد الكورسيكي تلك الكلمات النارية الساحرة

قال طارق : « أيها الناس أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو من أمامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر »

« وقد استعجبكم عدوكم بجيشه وأسلحته وأقواته موفورة وأنتم لاوزر لكم إلا سيوفكم ولا أقوات إلا ما تستخلصون من أيدي عدوكم »
وقال نابوليون : « أيها الجنود لا قوت لكم ولا كساء . الحكومة مدينة لكم بالكثير ولا تستطيع أن تعطىكم شيئاً وان في صبركم وشجاعتكم لشرفاً لكم ولكن ليس من ورائهما ربح ولا مجد . سأقودكم الى أخصب سهول العالم . ستجدون مدناً كبيرة وضياعاً غنية ، ستجدون الشرف والمال والمجد . اي جنود ايطاليا أتعوزكم الشجاعة ؟ »

ومثل هذا قول روش جامكليس في حرب الفانداي : « أيها الجنود إن أنا تقدمت فاتبعوني وان أحجمت فاقتلوني وان مت فائثاًروني »
وفي كتب العرب كثير من أمثال هذه البلاغة سنعود اليه في مكان آخر

الخطابة الدينية

لم يعرف هذا النوع من الخطابة عند الافرنج الا بعد ظهور النصرانية وكان حامل لوائه آباء الكنيسة من اليونان وهو يمتاز بصراحة القول والتهديد والاستشهاد بأي الكتب المقدسة وبالتحليل الفلسفي مع البساطة في التعبير وأساسه قائم على العلوم الدينية المبنية على الوحي والعلوم البشرية التي تساعد الخطيب على الاستشهاد والتفسير ودعم الحجة وكلا كان الواعظ متمعقاً في الفلسفة والادب والطبيعات أمكنه أن ينال من قلوب السامعين وعقولهم بما يكتسب قوله من

الجازية والرواء وتلبس معانيه الصارمة من حلل اللفظ الرشيق
وتكسى من بهجة الشواهد المتنوعة والامثال التي توقظ الخاطر وتقضي
الملل وتساعد على الاقتناع

وسواء أكان الموضوع دينياً محضاً أو تأويلاً وشرحاً للآيات المنزلة
أو ردّاً على أقوال الملحدين ودفاعاً عن الدين فالغاية من الموعظة واحدة
وهي تثبيت الايمان والامر بالمعروف والنهي عن المنكر

وهي من حيث الفائدة الدنيوية جزيلة النفع بما تجلب من التعزية
للحزين والشجاعة للجهان والقوة للضعيف والامل للبائس والصبر لمن
خانه الصبر على شرط أن يكون الواعظ ممن خبروا النفس البشرية
وامتلكوا ناصية البلاغة وكان في كلامه مخلصاً تقياً وفي تبشيره
صادقاً وفيها

أما عند العرب فالخطابة الدينية عزيزة المذهب أيضاً جليلة الغاية
بعيدة المرمى وقد أوجبها الشارع وسنها للمسلمين في مساجدهم كل جمعة
وعيد وفي الحج أي في عرفة وأوجب على الحضور التزام الادب مع
الخطيب بل علمهم حسن الاصغاء وفي الحديث « إذا قلت لصاحبك والامام
يخطب يوم الجمعة أنصت فقد لغوت » ولم يعين الشارع موضوعاً خاصاً
للخطب الدينية أو خطب الجوامع والمواسم بل جعلها مطلقة يتناول
الخطيب الكلام من المناسبات الزمنية ويورد للحضور من هدي الشارع
ما يهذب به أرواحهم ويهيب بهم الى بارئهم ويغرس فيهم مكارم
الاخلاق وليطبعهم بطابع الفضائل ويحذرهم البغي والظلم ويستل بلطف
أسلوبه سخائمهم وأحقادهم ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويزين

لهم العمل الصالح ويربأ بهم عن مهلكات الشهوات (عن القديم والجديد
لكرد علي)

الخطابة القضائية

فيها من كل فن خبر لان المحامي يدعى الى الخوض في كل موضوع
وعليه أن يلم بأطراف العلوم ويكون واسع الاضطلاع موفور الحفظ
ولا سيما في هذا العصر فان اتساع ميدان العمل أخرج المعيشة عن
حالتها البسيطة وولد في المعاملات الاجتماعية وعلائق الناس بعضهم مع
بعض حقوقاً جديدة كما قال هنري روير وخلق مشا كل لم تكن
موجودة أو معروفة وجعل موقف القضاء أشد حرجاً وأكثر غموضاً
لا يكفي المحامي أن يكون بارعاً في علم الحقوق بل هو في حاجة الى
بصيرة نقادة وذهن قادر على هضم أنواع العلوم لان المسائل التي يوكل
اليه البحث فيها هي علمية وطبية ومالية وزراعية وفنية وعليه أن لا يجهل
شيئاً مما يمكن أن يعبد له طريق الفوز فهو في آن واحد عالم وطبيب
وتاجر ومهندس ومؤلف وغير ذلك

ثم عليه بعد أن يجعل دماغه موسوعة علوم أن يعرف كيف يحرك
العواطف ويشير شجون النفس لأن من المحلفين من لا يعرف القانون
ولا يأبه به وانما هو يحكم بما يلمه عليه الشعور والضمير

قال كركوى : « يا لتعس المحامي الذي لا يحس لأول عبارة يتلفظ بها
ارتياحاً من جانب القاضي وتشوقاً لمعرفة ما سيقول ولذلك كانت العناية
بالمطلع وبراعة الاستهلال أول ما يجب الأخذ به » وروى عن عام في
احدى القضايا الكبرى انه بدأ مرافعته بهذه الجملة الجذابة : « موكلي

يطلب من عدلكم مليونين ومائة وخمسة وعشرين ألفاً وثلاثمائة واثني عشر فرنكا وخمسة وعشرين سنتيماً ولا أنس السنتيم لان حق جلي واضح فأنا أطلب الكل أو لا شيء»

ومن بدائع الاستهلال ما فاه به الوزير كاليو في مرافعته عن نفسه بعد ما قتلت زوجته الثانية المسيو كلث منشيء الفيغارو الذي كان ينشر في جريدته وثائق ضد كاليو فان زوجة كاليو الاولى المطلقة منه هي التي قدمت هذه الوثائق وكانت السبب البعيد في هذه الجريمة فجاءت الى المحكمة كشاهد ضد كاليو وزوجته القاتلة ويعد أن تكلمت كما شاءت وقف كاليو وقال ما معناه :

«أريد اليوم أن أجرب أصعب شيء في حياتي. ولكن بقي ياسيدي انه لا كلمة جارحة تخرج من فمي ولكن الذين سمعوك على هذا المنبر أصدقاء وأعداء قد أدركوا انه بين رجل لا ينكر أحد عليه العزم والمقدرة والارادة وبينك ياسيدي أنت التي تحوي على بعض هذه الصفات الى حد المبالغة قد أدركوا انه من المحال أن تدوم الحال . . » وأحسن وصف ينطبق على المحامي خصوصاً والخطيب عموماً ما كتبه غامبتا في وصف المحامي لاشو وقد آثرنا تعريبه هنا اتماماً للفائدة كان لاشو من أشهر خطباء العصر التاسع عشر وقد دافع في أكثر قضايا الاجرام كقضية مدام لافارج في مقتل زوجها والطبيب لابومره المتهم بقتل اثنين تسميا وترويمان قاتل أسرة كاملة من أب وأم وستة أولاد ودافع أيضاً عن المرشال بازين أمام المجلس الحربي في ترينون وقد وصفه غامبتا وصفاً دقيقاً يحق أن يتصف به كل خطيب وكل محام كأن هذا الرجل الذي كان يقيم فرنسا ويقعدها ببلاغة أقواله أراد

أن يجسم في الكلام ويرسم بنفثة من يراعه ما كان يختلج بين جنبيه
من تلك القوة الساحرة التي امتاز بها خلقه العجيب قال :

« ان ما يغريني في لاشو هو سهولته وارتجاله وقوته واستقلاله
وما قبضت على القلم الا لأظهر اعجابي بهذه الصفات

« ان بلاغة الخطباء المرتجلين هي كالنار التي يشبههم بها « تايست »
اذا خبا أوارها عفت آثارها . أجل ان الارتجال قوة لها على القلوب
سلطان الساعة وقد بلغ فيه لاشو من السهولة والاعتدال مبلغاً لم يعرفه
الا من كان في طبعه ومزاجه . يقوم وقد هزه كلام الخصم فيندفع
اندفاع السيل فاذا بالعقل مأسور والجنان مسحور ثم يزول كل شيء .
أين هو هذا الخطاب الجميل ؟ قيد البرق ان استطعت ، احبس الريح
التي تهب أوقف المحامي لاشو . لكلامه وميض البرق الخاطف وهو
كالريح فتارة نسيم وطوراً اعصار ولا سبيل الى حفظ هذه الاقوال
المنجحة الا اذا جمعنا بين تصوير الصوت وتصور الموسيقى

« جبين واسع وضاح ، شفة عريضة عليها ابتسامة ناعمة ، عين كبيرة
متحركة الاجفان هذه العين التي تجدها مسترخية عند الراحة تسطع
بأنوار هائلة فجائية أو تبسم بأشعة لطيفة تنتشر على القزحية وتير من
كل جانب أعماق تلك الكرة . رأس ملء حركاته عظمة وجلال ،
جسم معتدل وفيه خفة الفتوة . أضف الى هذا صوتاً جميلاً طبيعياً
واسع المدى كأن فيه شيئاً من البوق وشيئاً من القيثارة

« اذا غضب يتحول صوته الى زئير فيخرج من صدره طبقات كثيفة
صافية رنانة ويرتفع الى أعلى درجة من النبرات ثم يهبط بلا تعب الى
عدوبة الاستعطاف أو الشكوى

«واذا رضي أصبح الصوت نغمة أوحيفاً كأن هناك آلة موسيقية
تبعث ألحاناً شجية يحسدها عليهما أطرب المنشدين

«ان للاشوق كل ما يلزم ليكون محامي العواطف وقد صار كذلك
بفضل شعور منبعه النفس لا الفن . لقد آتت الطبيعة على لاشوق نعمتها من
ضمير يبعث الضياء الى فكر ينفث السحر الى لفظ باهر واحساس قاهر .
وبساطة تقرب منال الالفاظ والمعاني وعاطفة تحمل معها السامع وأداء
يأخذ بالابصار واللقاء يستولي على مجامع القلوب . لله دره ما أعرفه
بأسرار النفس البشرية وما فيها من عثرات وألم وشقاء وخيانة . لقد
دخل في ذلك النفق المظلم نفق الحياة العصرية ونزل اليه درجة درجة
فأبصر كل ما فيها من بؤس وفظائع ووقف على عمراتها وأدرك أسبابها
ولمس يده جراحاتها ورأى عن كثب ما في أعماقها من أصناف الذل
وألوان العار ولما انتهى الى هذا الحد أخذته الشفقة على هؤلاء الساقطين
شهداء الاقدار فصعد من الاعماق حاملاً معه الرحمة ، ومنذ ذلك الحين
تخذ موقفه الى جانبهم يدافع عنهم بقلمه ولسانه وينصرهم بحكمته وبيانه
ويفتح لهم أبواب النجاة بقوة برهانه

« وسر المقدرة انه يتعمق في درس الدعوى ويلج الى قلب القضية
فينظر بعين المتهم ويحس بأعصابه فيغضب غضبه ويصرخ صراخه كأنه
يطلب الرحمة لنفسه ويترجم عن يأس المسكين بيأسه . يأخذ شبكة
الاتهام ويلقيها على ذاته بافتخار ثم يقطعها تقطيعاً كأنه من مصارع
الرومان .

« يكفيه دقائق معدودة ليرى كل شيء ويقبض عليه ويسبر غوره .

ويدرك كنهه . انظر اليه جالساً مصغياً الى أقوال المدعي العام . واستنتاجاته وتهمه واهاناته وهو مطمئن النفس ساكن الجأش . لا يتحرك فيه غير يده المحمومة تقطع بالمديّة قلماً وقع اليه . يستقبل صدره ضربات الخصم ويعدها ليردها اليه بعد قليل بالربا الفاحش . ينظر الى خصمه وجهاً لوجه لان قوته ستظهر عن قريب . تلك القوة هي كلماته العظيمة التي يوحيا اليه احتدام الجدل والمناظرة فيخترع ويدع وينفخ كالخالق روح الحياة في خطابه

« يتقدم الى المنبر حر الفكر لا يعيقه تذكّار ولا تقيده لفظة هيأها أو جملة ركبها . لقد أعمل فكره وكفى وما أحقه بما قيل عن فوسينون : « ليست ذاكرته للالفاظ والجمل بل هي صفحة حساسة تلتقط كل التأثيرات وتقع على كل المعاني فهو يتنبه تنبهاً ولا يتذكر تذكّراً »

« واذا كان المتهم واحداً من أولئك العائري الجد الذين يخشى منهم ويشفق عليهم فانه يعرف أن يمشي اليه بجملة ويرفعه ويحمّله بذاته فوق حافة الهاوية كأنه يريد أن يزجه فيها ثم يريك بإشارة أعماقها المظلمة فتراجع مذعوراً وإذ ذاك يرفع الخطيب رأسه ويرفع للمتهم معه شارحاً حاله خالغاً عليه حلة جديدة باكية مستعطفاً واذا بالرجل قد نجا لانه من فوق الهوة البعيدة الغور تنتصب الرحمة التي هي عدل القلب والتي يقدر الصوت العظيم أن يوحيا أبدأً الى النفوس العظيمة

« اي وايم الحق عند ما نسمع لاشو يتكلم لانتالك أن نقول مع أفلاطون : « الكلمة هي الله »

« رأيتم صدق كلاي؟ هذا الرجل يمثل الفطرة الصادقة بكل معانيها ولا سبيل للتقليد اليه فهو لا يعنى بمطلع خطابه ولا يعتبر الختام القسم

الثالث من الخطبة بل القبضة الاخيرة التي تخنق الخصم . والعادة أن لا يكرر الخطيب ختامه الواحد في كل خطبة أعدها أما لاشو فهو في كل قضية يستطيع أن يكرر هذه القبضة الهائلة وعلى الجملة أقول ان من لوازم الخطيب أن يستقل بنفسه ويتبع فطرته ولا يعتمد بما مشى عليه غيره أو ألغى سواء أو جرت العادة أن يقال ويسمع . قد يصل بالتقليد الى نيل الاستحسان ولكنه لا يصل الى السيطرة على الضمائر وقد صدق تايست حيث قال : « خير للخطيب أن يتزمل برداً خشناً من أن يصقل وجهه بطلاء الخطايا »

الخطابة العلمية

هي ان شئت أقل الخطب بلاغة لا تستنزل الدموع ولا تثير العواطف ولا توقد نار الغضب والحماة ولا تحرك عوامل البغض أو الرحمة . كلام علمي صناعة وبحنًا وتركيب بسيط يقرب منال الحقائق العلمية من الاذهان . على ان البلاغة الحققة لا تعرف لها حدًا فهي تتدفق من القلب والفكر أيًا كان الموضوع ، والخطيب البليغ يعرف أن يخلع حتى على الموضوع الجاف لمحة من الجمال والرونق والجاذبية فتزداد بساطته تأثيراً وأول ما ظهرت الخطابة العلمية في فرنسا لعهد الكردينال رشبو مؤسس المجمع الشهير المؤلف من أربعين عضواً يسمونهم الخالدين وينتخبونهم من بين أرباب السيف والقلم ورجال الدنيا والدين وهي تتناول المحاضرة والمدح والتأبين وما شا كل المحاضرة - (ويسمى الانكليز قراءة أخذًا عن الروائي الشهير دكسون الذي كان يتلو مؤلفاته في حفل من الناس) هي ضرب من

الدرس يلتقى على الجمهور كما يلتقى المعلم درسه على تلامذته ومريديه وقد لا تخلو من مسحة خطائية حسب الموضوع والكاتب وغايتها الاقتناع بمعالجة الموضوع الفلسفي أو التاريخي على نمط واضح الأسلوب سهل المأخذ وكثير من الذين لا قبل لهم بالخطابة يستطيعون أن يفلحوا في المحاضرة ولا سيما المرأة التي قلما يساعدها الصوت وتركيب بنيتها على الخطابة بدون تعب

ويدخل في المحاضرات السمر وأحاديث الأسر والاندية الادبية وقد كان للسمر مقام في العصور الغابرة وبلغ أوجه في القرن السابع عشر في فرنسا فكانت أو تل رمبويه مجتمع السادة الادباء والنساء الشهيرات بالحسن والظرف والذكاء والصبابة . وقد كان لاجتماعاتهم وما يدور فيها من حلو الحديث أثر عميق في أخلاق ذلك الجيل وآدابه ثم أنشأت نينون ده لا نكلو ناديا للسمر في منزلها كان كالمعبد يحج اليه خيرة القوم وكان فن الخطابة محترماً يعتبرونه مدرسة الادب والحياة وحسن الذوق وطيب الشمائل ورقة الشعور

أما اليوم فقد عصفت حمى الحياة بكل هذا غير انك تجد حيناً بعد حين بعض الحفلات الخصوصية يقيمها نفر من العلماء أو المتأدبين في دورهم فيتجاذبون أطراف الحديث فيما يعرفون من علم أو فن كما كانت تفعل فلاسفة اليونان حينما كانوا يجتمعون تحت ظلال الاشجار في حدائق غناء تعبق أزهارها وتشدو أطيافها

وربما كان للعرب شيء مما ذكرنا غير ما يروى عنهم من اللهو والعبث والمجون وفيما حفظ عنهم من الاجوبة التي كان يحملهم عليها المقارعة في الحديث والجدل ما يجعلنا نعتقد ذلك

المدح والتأبين - التأبين هو مدح الميت خاصة يلتقى يوم المآتم أو يتلى في حفلة التذكار التي تقام له ويراعى فيه عمر الميت وقدره وخدماته ثم يستطرق منه الى التعزية وذكر الحكم الخالدة التي تخفف أحياناً من لوعة المصاب ويختم باستمطار الرحمة والسلام على الفقيد وحث الناس على الاقتداء به . وعمال الكلام في هذا الباب واسع للخطيب القدير الذي يتلاعب بالالفاظ والمعاني دون أن يهوي في المبالغة أو الاطالة والتكرار وأما خطب المدح وما يتصل بها من الشكر والتهنئة والتكريم فهي تتشابه موضوعاً وتختلف حسب الاقدار والاعمار وقيمة العمل أو الخدمة التي أداها المحتفى به لقومه وبلاده . وقد أفرط القوم فيها في كل مكان حتى صار من الصعب طرق هذا الباب على من أراد أن يكون مجتهداً لا مقلداً . على ان التكريم الصحيح أي الذي يكون لاعمال جليلة القدر حقيقة النفع يعطي الخطيب من الموضوع نفسه مصدراً للوحي فيجمع الاخلاص في البيان الى فصاحة اللسان

القسم الثاني

آمالی طبیة ووصایا صحیة

نظرة تشريحية

كما يحتاج سائق السيارة الى معرفة تركيب أدواتها المختلفة حتى اذ طراً طارئاً لم يكن بالحسبان استطاع أن يتبين مواضع الخلل وأسبابه ليسهل عليه اصلاحه ، يحتاج الخطيب والمغني والممثل الى معرفة تركيب الآلة الصوتية ليتسنى لهم مداراتها ومعالجتها واجتناب كل ما من شأنه افساد عملها أو الاضرار به ولا سيما لان هذه الآلة جزء عامل في الهيكل الانساني ولا يمكن فصلها عنه بوجه من الوجوه تتألف الآلة الصوتية من :

- ١ - الصندوق الذي يتكون فيه الصوت : وهو الحنجرة
- ٢ - منفاخ لدفع الهواء : هو الرئتان والقصبة
- ٣ - مجرى صوتي : هو الحلق والقم والانف

الحنجرة

هي شبه علبة أو صندوق مفتوحة من الأعلى والاسفل فتصل فتحتها العليا بالحقنوم تحت قاعدة اللسان وفتحتها السفلى بأول القصبة . غضاريفها (١) مبطنة بغشاء ينطوي على نفسه من الامام الى الوراء بشكل شفتين تاركتين بينهما فتحة صغيرة يقال لها المزمار . وهاتان الشفتان يقال لهما الاوتار الصوتية

وتسميتها بالاوتار الصوتية لا تطابق الواقع فان هذه التسمية تحمل الانسان على التصور ان في حلقه أوتاراً كالأوتار العود ولكنهم جروا

(١) جمع غضروف وهو كل عظم رخو

عليها لان الصوت يحدث من هذا التواء الغشائي عندما يتمدد فيبدو
كالشريط الابيض على الحنجرة الوردية
وطول هذه الاوتار يتراوح بين ٢٠ و ٢٥ ملترأ عند الرجل
١٦ و - ٢٠ ملترأ عند المرأة

المنفاخ

يشبهون الحنجرة بقبة على عمود وهذا العمود هو القصبة الهوائية
مؤلفة من نحو عشرين حلقة غضروفية تتفرع في آخرها الى أنبوبتين
أضيق قطراً هما الشعب وهذه الشعب تتفرع الى فروع كثيرة من
أصغر الى أصغر حتى تبدو لك شبه شجرة غارقة في الرئتين
(٢) الرئتان . هما مركبتان من مادة رخوة اسفنجية مخروطية
الشكل تجدد فيها تفرعات الشعب التي ذكرناها مع حويصلات الاعصاب
والاوردة والشرايين

المجرى الصوتي

موضوع خلف الحنجرة والقصبة من قاعدة الرأس الى المريء
(أي رأس المعدة) يطل عليه فتحات الأنف والقمم والفتحة العليا
للحنجرة بواسطة صمامة هي لسان المزمار
وهو يختلف عن الحنجرة في شكله لانه لا يشبه العلبة بل القناة
فيخرج منه الصوت بعد أن يتكون في الحنجرة . ولا يجب الخلط بينهما
فالحنجرة آلة صفير وأما الحلقوم فخفرة ينحدر منها الاكل والشراب
الى المعدة

الصوت

ما هو الصوت ؟ هو مجموع أصوات تخرج من الرئتين والفم وقوامه التنفس فإذا انقطع التنفس انقطع الصوت
هذا التنفس قسمان : الاول عند ما يدخل الهواء الى الرئتين ويقال له في الفرنسية « Inspiration » ومعناه استيعاب الهواء (١) والثاني عند اخراجه منها وهو ما يسمونه الزفير « Expiration » فالصوت يتكون في الحنجرة أثناء الزفير لان الهواء الذي تستوعبه الرئتان لا يمكن أن يلبث فيها طويلا فتقبضان وتطردانه من الشعب الى القصبة فإذا بقي الحلق مفتوحا خرج الهواء بسهولة دون أن يحدث صوتا أما اذا تدانت الاوتار القائمة على جوانب الحلق وقفل هذا أو ضاق حصل الصوت لانه هذه الاوتار أو الاغشية البارزة تهتز ويهتز معها الهواء العابر عليها والخارج بقوة من الصدر

وقد تتشنج بعض عضلات التنفس لسبب ما فيحول الصوت الى تنهد أو ضحك أو شهيق أو سعال أو فواق أو غير ذلك
صفات الصوت : القوة والنبرة والرنه . فالقوة هي سعة اهتزازات الآلة الصوتية وهي تتعلق بالقوة التي يطرد فيها الهواء من الرئتين كما ان قوة الصوت الخارج من أوتار العود مرجعها قوة ضرب الأنامل .

(١) يسمى الدكتور شرف في قاموسه القسم الاول من التنفس الشهيق وفضلنا الاستيعاب لانه أدل والشهيق هو رد النفس بصوت

والنبرة هي في درجة شد الاوتار وما ينجم عنها من تغير في مدى الاهتزاز . وهذا الشد يقوم به عضلات الحنجرة التي تشد أو ترخي والتي قد يصيبها شلل كما في بعض الامراض العصبية. فيصح الصوت أو ينطفي . أما الرنة فهي التي تميز الاصوات بعضها عن بعض لانها تتعلق بتجويف الفم وتختلف في كل واحد باختلاف هذا التجويف . إذا لا علاقة للرنة في قوة الصوت ونبرته وقد يصل الانسان بالتمرين الى تبديل رنة صوته كما يفعل المقلدون في محاكاة غيرهم من الناس أو محاكاة أصوات الحيوان

تأثير الاعضاء التناسلية في الصوت : أول أثر للاعضاء التناسلية في الصوت يظهر عند المراهقة لنمو الحنجرة نمواً هائلاً فانه في بضعة شهور تكتسب الحنجرة من الكبر قدر ما اكتسبته من الولادة الى زمن المراهقة فيتبدل الصوت تبدلاً سريعاً ولهذا ترى صوت الحصيان لا يفرق من صوت الاولاد لان الخصاء يمنع هذا النمو أن يحصل . ولما كان للاعضاء التناسلية هذا الاثر العظيم في آلة الصوت كان من المحقق أن الافراط في الشهوات يفضي الى إفساد الصوت

التنفس

بما أن الصوت ناتج عن التنفس فهو متعلق به من حيث الحسن أو عدمه فإن كان التنفس سيئاً أدخل ذلك بالصوت والنطق . والتنفس الحسن هو ما جلب الهواء الى الرئتين بمقدار كاف وبدون تعب

للتنفس ثلاث طرق فهو علوي وجاني وبطني . فالعلوي ويقال له الترقوي نسبة الى الترقوة يرفع الرئتين نحو العنق فتجران معهما الحجاب الحاجز والاحشاء ويتجوف البطن . والجاني يبعد الاضلاع فتتسع ويزيد قطر الرئة أفقياً . والبطني يخفض الحجاب الحاجز فيرفع جوانب البطن ويزيد قطر الرئة عمودياً

وقد سبق فقلنا ان شكل الرئة مخروطي وقواعد الهندسة تدلنا ان امتداد القطر العمودي للمخروط تزيد حجمه أكثر من الأفقي فالتنفس البطني هو إذاً أفضل أنواع التنفس لانه يزيد حجم الصدر أكثر من الجاني ولا يتعب مثل العلوي الذي يحتقن به الوجه

وهبوط الحجاب الحاجز يتعب المعدة ولهذا كان في الخطابة أو الغناء قبل تمام الهضم ضرر كبير

وأكثر ما يكون التنفس الجاني عند المرأة وربما كان ذلك لتركيب بنيتها

ويجب أن يكون استيعاب الهواء عن طريق الانف دون الفم فيدخل الصدر بعد أن يكتسب حرارة الجسم ويمشي في طريقه خلال

الشعر والاهداب المتموجة والسائل المخاطي مما ينظفه بعض التنظيف
ويصفيه من ذرات الغبار والايوساخ العالقة به . والمتعود على الركض
يشهد ان التنفس من الانف لا يتعب كالتنفس من الفم . فضلا
عن ذلك فان التنفس الدائم من الفم يجلب أمراض الحلق واللوزتين
وما شاكل

الرياضة التنفسية

قلنا ان حسن الصوت يتعلق بحسن التنفس فكلما كان استيعاب الهواء قويا كان الصوت عظيما ثابتا ولهذا كان من اللازم رياضة التنفس والتمرين عليه لحفظ الصوت وانما هو هذا التمرين على أربعة وجوه :

التمرين الاول :

اضطجع على ظهرك وجسمك عار أو مغطى برداء بسيط حر من كل رباط يضيق حركاته

ثم تنفس من أنفك تنفسا بطيئا عميقا غير منقطع فتحس أضلاعك تتمدد وبطنك ينتفخ والصدر يفتح الى الامام أما الترقوتان فتظلان ثابتين لا تتحركان من موضعهما . وبعد أن تستوعب الهواء توقف ثلاث ثوان ثم اطردهم بسرعة فاتحاً فمك

هذا التمرين يوسع الصدر ومتى تعود عليه المرء أمكنه القيام به وهو جالس على كرسي ثم فيما بعد وهو قائم

التمرين الثاني :

يؤخذ به بعد إتقان الاول وهو على عكسه تماما أي أن تستوعب الهواء بسرعة وتطرده ببطء ونظام فاتحاً فمك وهو أصعب مطلباً لان اخراج الهواء ببطء يقتضي عناية وجهداً ولكي يقف المتمرن على درجة تقدمه في هذه الرياضة يمكنه أن يضع ازاء فمه ريشة خفيفة معلقة بخيط

أو شمعة مضيئة فيعرف مقدرته على إيقاف زفيره من تحرك الريشة أو
طبيب الشمعة

ولا يجوز التكلم حين الزفير أي عند ما يكون المزمار مفتوحاً كي
لا يشترك في العمل غير أعضاء التنفس
التمرين الثالث :

هو في عمل الاثنين مشتركين وكذلك التمرين الرابع
الخلاصة - أربع طرق للرياضة التنفسية :

١ استيعاب سريع وزفير بطيء

٢ « « بطيء « سريع

٣ « « سريع « «

٤ « « بطيء « بطيء

يجب أن تعلم أيها القارئ ان الغاية من هذه الرياضة ليست
الوصول الى ادخال أعظم مقدار من الهواء الى الرئتين بل تربية جهاز
التنفس واخضاعه لنظام محدود . ولا يجب عند الزفير اخراج كل الهواء
الموجود في الرئتين بل يترك قسم منه . والقاعدة المتبعة عند المتكلمين
في الجماهير أن يستوعبوا الهواء كلما سنحت الفرصة في عرض كلامهم
وإن يكن الباقي منه في الرئتين كافياً للتنفس العادي . ذلك لأن اخراج
الهواء كله يتعب الصوت كثيراً ولأن ادخار كمية زائدة عن الحاجة
قد يأتي بالنجدة المنتظرة كما في الجمل الطويلة مثلاً

رياضة الصوت

تبين لك مما مر ان للرياضة التنفسية تأثيراً كبيراً في الصوت لحفظ جمال نغمته وقوة نبرته وسعة مرماه وقد كان قدماء اليونان يعنون بها ويجعلون تربية الصوت فناً قائماً بنفسه له أساتذة يتوفرون على درسه كما روى تيوفراست حتى ان ديموستين تلقى دروساً فيه وتخرج على الممثل ساتيروس

وبعد أن يملك الخطيب عنان تنفسه ينصرف الى الاهتمام بصوته وتصريفه في الوجوه التي تلائمها دون أن يفقد من تأثيره أو يقصر دون غايته . بل يستطيع حينئذ أن يصلح ما فيه من عيوب بالصبر والتربية فان لبعض الاصوات رنة غير مستحسنة ولا خفيفة على الأذن فبالعادة والمثابرة يستطيع أن يتغلب عليها ويبدل منها رنة ألطف وقعاً وألذ سمعاً ولا تنحصر تربية الصوت في الرنة بل تتناول النبرة والقوة ولهذا يجدر بالخطيب أن يتخذ درجة موافقة في بداية خطابه فلا يرتفع كثيراً لئلا يضطر الى الهبوط عياء قبل الختام . وقد ذكرنا ذلك في فصل المتبر فليراجع

صحة الصوت

بعد أن شرحنا لك ماهية الصوت وتركيب آلاته وأظهرنا أن تجايف الفم والانف والحلق والحنجرة والصدر تهتز معاً بالصوت الخارج من المزمار لم يبق صعوبة لذلك على الطرق التي يجب انتهاجها لحفظ هذا الصوت وتقويته فإن كل ما من شأنه أن يهيج الأغشية ويذهب بمرونة غضاريف الحنجرة ويؤدي الأوتار الصوتية ويبدل من نعومة النشاء سطحاً خشناً ذا نتوء وحبيبات يؤثر في الصوت نغمة وصفاء وقوة وجلاء

فالتدخين والحمرة والاشربة الساخنة أو الثلجة والافراط في الاكل وخصوصاً اللحوم كل هذا يضر بالصوت ضرراً بليغاً لتهيجها الأغشية إما بالحرارة وإما بالطعم

والعناية الصحية تكون بغسل الفم والاسنان بعد الاكل وقبل التكلم فإن غدارة الاكل الباقية خلال الاسنان تجلب الريق بكثرة وتفسد الصوت

وأحسن ما يغسل به الفم هو الماء القراح البارد مدة عشر دقائق ولا تقتصر المداواة على هذه الوسائل الموضعية بل تمتد الى الصحة العمومية من كساء وسكن وما شا كل فالسكن يكون في مكان مطلق الهواء نظيفه بعيد عن تقلبات الجو وكثرة تغير حرارته . ويشترط في اللباس أن يكون واسعاً لا يضيق الصدر ولا يضغط على العنق فيجلب بضغطه تضخم الغدد واللوزتين واحتقان الأغشية الحلقية . ويستحسن

لبس الصوف أو الحرير على مدار السنة لانهما يحفظان حرارة الجسم
ويقمان من البرد المفاجيء في حالة العرق ، ما لم يكن الخطيب متعوداً
على البرد فيلبس ما شاء . على كل حال تقتضي الحكمة أن لا يخرج
الانسان من غرفة ساخنة الى أخرى باردة دون اتخاذ الحيطة لذلك
أما الاستحمام فهو ضروري على شرط أن يكون قصير المدة لأن
رطوبة هواء الحمام تؤذي الصوت ومن كان مستعداً للزكام فالأولى
استحمامه بالماء الفاتر صيفاً وشتاء وبعد الفاتر يصب بارداً على بدنه ثم
ينشفه ويبقى تحت الغطاء عشر دقائق

ولست فائدة الماء النظافة فقط فان الخطيب في الغالب رجل عصبي
ملتهب الشعور فالاستحمام يفيد كاليأضة وكما تفيد بساطة المعيشة
والاعتدال في كل شيء

قبل الخطاب وبعده

قبل الكلام لا يجب أن تكون المعدة فارغة ولا مملأة ففي حالة الفراغ يتعب القلب والرئة فيخف الصوت وتنحل العزيمة وفي حالة الامتلاء يهبط الحجاب الحاجز كما بينا فتعب المعدة أيضاً وتؤثر في سائر الجسم وخير الأمور أن تكون المسافة بين الطعام والكلام ساعتين على الأقل .

ومن الضروري مضغ الاكل مضغاً جيداً أما كمية الطعام فمن الصعب تحديدها لاختلاف المعد والبطون وبعد الانتهاء من الكلام يعتمد الخطيب الى الراحة والسكون والسكوت ويبدل من ثيابه المبللة بالعرق ثياباً جديدة هذا ما رأيت بيانه عن الخطابة وطرقها وشروطها وأجناسها وما يتعلق بها من القواعد الصحية ورياضة الصدر وغير ذلك . وستجد في القسم الثالث بعض الأمثلة من الخطب المشهورة في العصور السالفة والعصر الحاضر

القسم الثالث

أمثلة

من خطب العرب والافرنج

خطب الافرنج

رأى في الترجمة

لا بد لي في مطلع هذا الباب من كلمة في الترجمة كما يجب أن تكون وكما أفهمها وكما تعودت أن أسير عليه فيما عاينته منها فاني أعتقد ان الغاية من الترجمة ليست في اظهار مناهج الانشاء بقدر ما هي في التعبير عن فكرة المؤلف ومقصده ونقل معانيه وتمثيل تصوراته . ولو كان المقصود ترجمة الالفاظ والتراكيب قبل غيرها لفست الترجمة على الاطلاق وربما كان هذا ما حمل اللورد يرون أن يقول : « ان من أكبر المصائب على المؤلف أن يترجم الى لغة غريبة » فانه من المستحيل أن تتفق تراكيب الجمل في مختلف اللغات والقالب الذي يختاره الكاتب أو الشاعر ليفرغ فيه معانيه لا يمكن أن يكون واحداً فيها كلها فاذا حاولنا أن نترجم ما نريد ترجمة حرفية للمحافظة على هذا القالب ما أمكن أسأنا الى المؤلف من حيث لا ندري وأسأنا الى أنفسنا بما تقع فيه من غرابة التعبير وركاكة الانشاء وهذا ما نراه كل يوم في أكثر ما نقرؤه في الجرائد والمجلات من المقالات الطبية والادبية وغيرها التي تبدو أعجمية بالفاظ عربية فتتعبنا قراءتها وتقصينا عن فهم ما فيها أو التلذذ به فالترجمة الحرفية كما يقصد من هذه الكلمة ليست بالطريقة المثلى لحفظ جمال الأصل أو للوصول الى الغاية من أثرها في ذهن القارئ العربي . حسب المترجم أن يتفهم معاني الكاتب ويدرك مقاصده ويدخل في إهابه - ان سمح لي بهذا التعبير - ثم يجتهد أن يقدم للقارئ قالباً عربياً لا ينفر منه ذوقه ولا يآباه سمعه فيختلف التركيب عن الأصل

بعض الاختلاف ويبقى المعنى والاسلوب على حالهما

ان في الفرنسية أو الانكليزية مثلاً جملة تفيد معنى ولكن هذا المعنى لا يمثل في لغتنا الا بجملتين وبالعكس فقد تجد المعنى الذي يقتضي التعبير عنه جملتين في احدى اللغات الغريبة يكفيه في العربية جملة أو كلمة فلا يجب أن يمنعنا عن استعمال هذه الجملة أو الكلمة بعدها عن الترجمة الحرفية ما دامت موصلة الى التأثير المطلوب

واني أورد هنا مثلاً من هذه الترجمة التي لا يسعنا أن نسميها حرفية وهي مع ذلك أمينة لا تذهب شيئاً من جمال الاصل ولا تضعف من الأثر الذي أراده المؤلف فضلاً عن انها تتجرد عن العجمة ما أمكن وتظهر للقارىء في برد عربي فيكاد لا يشعر انها مترجمة :

يقول لامارتين في مطلع قصيدته « البحيرة » ما معناه بالحرف الواحد « أهكذا ونحن مدفوعون أبداً نحو شواطئ جديدة ونحملون في الليل الأبدى بلا رجوع لا نستطيع أن نلتقي على شواطئ الأعمار مرساتنا يوماً ؟ » مهما نحاول تنميق هذه العبارة فنقدم ونؤخر فيها مع المحافظة على « حرفيتها » فهي لا تسلم من الركاكز والعجمة ولكنها اذا اكتفينا بالمعنى واجتهدنا أن نشعر شعور الناظم عند ما قاله ثم حاولنا نظمه كأنه صادر عنا قلنا مثلاً :

أهكذا أبداً تمضي أمانينا نطوي الحياة وليل الموت يطوينا
تجري بنا سفن الأعمار ماخرة بحر الوجود ولا نلقي مراسينا ؟
أنا أعلم ان جملة « تمضي أمانينا » ليست في الاصل ولكنها تحصل من كلام الشاعر وهي لا تضعف قوله بل بالعكس تفسره تفسيراً موافقاً وفي النظم قد يضطر المترجم الى مثل هذه الزيادة . وكذلك الشطر

الثاني من البيت الاول « نظوي الحياة وليل الموت يطوينا » لا يمكن أن يكون ترجمة حرفية لقوله « محمولون في الليل الأبدي بلا رجوع » ولكنه يؤدي المعنى تمام التأدية ولو فرضنا ان لامارتين بعث من قبره وسألنا أن نترجم له ما ترجمناه عنه لما وجدنا ما يؤدي معنى هذا الشرط العربي أحسن من الرجوع الى عبارته الاصلية ولو ترجمنا له نظوي الحياة الى آخره ترجمة حرفية لجاءت ركيكة في لغته ولم يفهمها فالمعنى هنا واحد ولكن حلته تختلف في اللغتين . ومما يقرب من معنى البيت الثاني قول أبي العلاء مخاطب الدنيا :

يعوج بحرك والاهواء غالبة لراكيه فهل للسفن إرساء
فالمعاني متساوية عند الناس ولكن القالب الذي تفرغ فيه يختلف
حسب اللغات كما يختلف اللباس حسب الاقاليم والسلائل . فعلى المترجم أن يحافظ على معاني المؤلف ومراميه وأسلوبه في الكتابة من خطابي أو شعري أو غير ذلك وأما حلة الانشاء من ألفاظ وتركيب جمل فهو حر أن يختار منها ما يناسب المقام فكما أن الحسنة لا تفقد من حسنيتها إن بدلت من هذا الثوب الجميل ثوباً جميلاً آخر فالمعنى الحسن يبقى أثره كاملاً سليماً مادام اللباس الذي يخلع عليه من الالفاظ والتراكيب جميلاً مطابقاً لقواعد الفصاحة أيّاً كان هذا اللباس

افرض ان رجلاً غريباً عن لغتك كلّفك أن تحدث قومك في موضوع عن له فماذا تقول ؟ هو يدلي اليك بآرائه وأفكاره وتصوراته ويفهمك الغاية التي يرمي اليها وعليك الباقي أي أن تبرز هذه الافكار والآراء والتصورات في قالب عربي يقبله ذؤوك . أو ليست الترجمة ضرباً من هذا

هكذا أفهم الترجمة وعليه جريت في كتابة الرسائل العلمية والطبية وغيرها مما كنت أنشره في الصحف والمجلات فإذا وجد القارئ فيما يلي بعض اختلاف عن الأصل فلائي حاولت أن أجلو هذه المعاني الغريبة في ثوب عربي دون أن أضعف من تأثيرها بل لأخفف ما أمكن الاساءة التي تلحق بالكاتب من جراء ترجمة مكتوباته معتقداً أن هذه الطريقة هي أفضل من الترجمة الحرفية التي يعجزها الذوق العربي فضلاً عن أنها تضيع جمال الاصل

ولا حاجة للقول إن ما ذكرت ينطبق على ترجمة الادب والشعر بوجه خاص وأما الأشياء العلمية والفلسفية فلا تدعو اليه في كل حين لان العالم لا يخلو في كتابته من الغموض أحياناً بالنظر الى المباحث العويصة التي يلم بها فيضطر المترجم أن ينقل عبارته بالحرف الواحد ليترك للقارئ الحرية في فهم ما أراد المؤلف ولا سيما لأن المترجم نفسه قد يغلط عليه ادراك بعض عبارات الكتاب فهو ينقلها بأمانة ودقة بالحرف الواحد يلقي عنه مسؤولية التبيين ويدع لكل قارئ سبيلاً الى حل هذه المعميات كما يرثي

ثم هناك أمر آخر أريد أن أنبه اليه القارىء فان هذه الخطب التي ستمر أمام عينيه لا تنال من قلبه ما تستحق اذا لم يقف منها موقفاً خاصاً . فان ما ينظمه الشاعر أو يخطه الكاتب يكفي بذاته ليتصل بالقارىء وبخلاف ذلك الخطابة لان الخطب لم تعمل لتقرأ بل لتسمع وقد مرت بك ان حسن الأداء من أهم شروطها . ومشاركة الجمهور للخطيب بالمصادقة والتشجيع يرفع الخطيب الى أن يصير صوته وقلبه صوت الجمهور المصغي اليه وقلبه الخافق معه ومن الصعب أن نجد مثلاً هذه المشاركة عند القارىء .

فلو عربنا الخطبة أبدع تعريب ثم قرأناها فمن المستحيل أن نلصق فيها ذلك الوحي الغابر فنحن كمن يحاول الامساك بالحياة بعد إفلاتها . نبحت عن كائن حي ولا نجد الا جثة هامدة . وأي شيء ننتظر من أجمل الاجسام وأبدعها مثلاً وأكملها تقويماً بعد ما يستولي عليها جمود الموت وماذا يبقى من الوجه الصبوح الجميل اذا انطفأ نوره وزالت بتسامته ؟ .

أجل ان فن الخطابة الجميل ولكنه أقرب الى الزوال من سواه . نظر الى الانصاب التي خلد فيها الانسان الحياة بألوانها وصورها فانها باقية على الزمان الفاني ولا تزال على قدمها توحى الاعجاب الى الناظرين وتأمل بأنغام الموسيقى الساحرة فقد تفجرت آياتها من قلب الموسيقى النائم اليوم بعيداً عنها ولا تزال ترافق السامع الى آخر الدهر . وما الذي لا يقال عن الشاعر أيضاً وكلامه يتردد على كل لسان وينشد في كل مكان ؟ أما الخطيب فهو يحمل معه ما عمل ويطويه في أكفانه

الصوت والاشارة والجاذبية وهالة النور التي تحيط بالمنبر . كل هذا
يختفي ولا يبقى غير صورة الخطاب

عند ما يتكلم الخطيب يصبح ملكا للجمهور وهو لا يصل الى
قلوبهم الا بعد صراع عنيف بين نفسه ونفسهم فالخطابة فن ولكنها
حرب اذا خبت نارها عفت آثارها ولهذا لا نستطيع أن ندرك فعل
أجل خطاب بعد مرور السنين عليه

فاذا أحببت أيها القارئ أن تجد في هذه الخطب المترجمة بعضاً من
جملها القديم فعليك أن يكون لك فيها دور مستقل وهو أن تحاول
الشعور أكثر من الفهم فتذكر الماضي وتضع نفسك وسط الحوادث
التي ولدته وتمثله تمثلاً أكثر مما تقرأه قراءة فتصدق فيك كلمة
لا كوردير: « ان نفس الفرد تستطيع لدى السمع أن تكون جمهوراً
كبيراً »

هذا العمل من تمثل الماضي والاحوال التي قيلت فيها الخطب يطلب
البساطة قبل المعرفة والشعور قبل الاضطلاع ويحتاج الى حسن ارادة
أكثر مما يحتاج الى علم

سوكرات

من خطبة له عند ما حكم عليه بالموت

أي قضائي : كونوا إذاً مثلي على رجاء من الموت ولا تفكروا إلا بهذه الحقيقة وهي انه لا خوف على رجل البر حياً أو ميتاً وان الآلهة لن تتجلى عنه أبداً

لم يكن ما أصابني اتفاقاً واني لوائق ان موتي في هذه الساعة خير لي من تحمل هموم الحياة . أنا لا أحفظ حقداً على الذين حاكموني أو اتهموني ولكني ألومهم لانهم قصدوا في حكمهم واتهامهم الى الاساءة إليّ فساء فألهم وما كانوا صادقين

والآن في نفسي حاجة أسألكم قضاءها : أيها الاثينيون اذا اشتد أولادي ورأيتم فيهم جوراً عن الحق وزيفاً عن قصد السبيل وإثارة للمال على الفضيلة فعذبوهم مثلاً عذبتكم واذا ذهب بهم الغرور فظنوا أنفسهم شيئاً وهم لا شيء فعنفوهم بمثل ما عنفتكم . ان فعلتم فقد أصبت من عدلكم أنا وولدي

والآن دنت ساعة الفراق فليسر كل في طريقه أنا نحو الموت وأنتم نحو الحياة . من هو السعيد منا بهذه القسمة ؟ ان الله وحده لعليم

ديموستين

من خطبته الفيليبية الاولى

يارجال أثينا

ربما كان فيكم من تهوله عظمة فيليب ويرى ما هو عليه من ضخامة الملك وقوة الجيش وكثرة البطش فيظنه لا يقهر فاذكروا أثينا وانه أتى عليها عهد كانت فيه ايضاً عزيزة الجانب وكان لها من سعة السلطان ورفعة الشأن مثل ما له الآن . وهذه الامم المنضمة اليوم تحت لواء فيليب كانت حرة تؤثر التحالف معنا عليه . فلو أن فيليب فكر يومئذ كما نفكر نحن اليوم وقال في نفسه لا طاقة لي على عاربة الاثينيين وقد ملاؤوا البسيطة عدة وعزیداً لما أقدم على عمل ولكنه لم يدع لهذا الفكر ممرّاً بباله ولا معلقاً بخاطره يل عرف ان الفوز للجسور دون سواه

فاذا كنتم ايها الاثينيون تريدون ان تقوموا اليوم بما قصرتم عنه أمس اذا كنتم قد عزمتم العزم الاكيد ان تستقلوا غير متواكلين ولا متخاذلين فقد فزتم باذن الله وأصلحتم حالكم واسترجعتم مالكم لا تحسبوا فيليب إلهاً لا ينال ، إن هو الا هدف دائم للبغض والحسد والخوف لا يأمن حتى أقرب المخلصين له فان من حوله بشر مثلكم لهم أهواؤهم وشهواتهم وعواطفهم المتباينة ولكنهم في حاجة الى نصير. تلك

«الاهواء والشهوات قد ضغط عليها الخمول كما ضغط عليكم وهذا ما أسألكم أن تنفضوه عنكم

الام يارجال أئينا تظلون « غرضاً يرمى وفيئاً يهب ؟ » ما الذي تنتظرون ؟ الساعة الموافقة ؟ وحق جوبتر لا أعرف ساعة أنسب لتحريك الهمم في النفوس الحرة من ساعة الذل والهوان . أتريدون ان تطوى اعماركم وأنتم تتساءلون ماذا من جديد ؟ ترحأ لكم وهل من جديد مثل هذا المكدونى قاهر أئينا ونخضع الاغريق . تعللون النفس بالآمال ترقبون موت فيليب أو اعتلاله وتنسون ان ذلك لا يدل من حالكم شيئاً لان ما يساوركم من الخمول والعجز والضعفة لا ينفع لديكم الا أن يسلط فيلباً آخر عليكم

وله من خطبة أخرى

أيها الاثينيون

رب معترض فيكم يظن الخافي اذا سأل : ماذا تفعل اذا ؟ اما أنا فاجيب لا تفعلوا شيئاً مما تفعلون الآن وافعلوا كل ما لم تفعلوه . على أني سأزيدكم بياناً على الذين سارعوا الى السؤال أن يسارعوا الى العمل فاذكروا أيها الاثينيون ان فيليب نكث عهده معكم وكان البادى بالعدوان ثم اذكروا ان فيليب هو عدو ائينا الألد عدوها الذي يكره أرضها وسماءها بل يكره منكم حتى اولئك الذين يغتبطون بأنهم نالوا حظوة عنده

ان أبغض ما يبغضه فيليب واخوف ما يتخوفه هو حريتنا هو نظامنا

الديموقراطي وفي سبيل القضاء على هذه الحرية وهذا النظام مافتيء ينصب
الشراك ويدبر المكائد . هو يعرف حق المعرفة انه لو أخضع بلاد
الاغريق بأسرها وبسط عليها سلطانه من اقصاها الى اقصاها لما جعله
ذلك منها في جناح امن مادامت ديموقراطيتكم سالمة وهو يعرف ايضاً انه
اذا خاتته الاقدار يوماً وقلب الدهر له ظهر المجن فكل هذه الشعوب
التي اخضعها عنوة تبادر الى خلع نيره والانضواء تحت لوائكم
أفي العالم ظلم يجب دفعه ؟ هاكم أثينا ! أفي العالم أمة مقهورة تطلب
نصيراً ! هاكم أثينا أفتعجبون بعد هذا اذا كان فيليب لا يطيق صبراً
على هذه الحرية التي تقف منه موقف الرقيب على جرائمه المحاسب على
آثامه . . .

شيشرون

كان كاتيلينا من اعضاء مجلس الشيوخ يتامر على الجمهورية ليستولي على الحكم وقد ألف جيشاً صغيراً من غوغاء الناس ودرهم على اعمال الشر والاذى واتفق معهم على ان يضرب الضربة القاضية في اليوم التالي فتسرب الخبر الى شيشرون قبل انعقاد المجلس فلما اجتمع الشيوخ وكاتيلينا بينهم كان شيشرون اول المتكلمين

حاتم يا كاتيلينا تطمع منا بالصبر فتزيد في غرورك وتتمادى في بغيك وفجورك . طغيت فما عرفت لطفيانك حداً ولا حفظت لامتك عهداً ولا راعك الحرس القائم على الاسوار في الليل والنهار ولا أهاب بك جلال هذا المقام ومن فيه من شيوخ كرام . لقد برّح الخفاء عن حالك وظهر المستور من اعمالك فلا تظن بعد اليوم أحداً يجهل ما فعلت بالأمس وقبل الأمس . وبمن اجتمعت وعلام عولت

ياللدهر وبالاخلاق . المجلس يدري والقنصل يرى وهذا الرجل لا يزال حياً . يأتي الينا ويشترك معنا ويحيل نظره فينا ويختار منا من يقع عليه حكم الموت . أي كاتيلينا كان عليك ان تساق الى الموت بأمر القنصل من رمن طويل وأن يرد الى نحرك السهم الذي تفوقه الينا قتل سينيون فيما مضى تبريوس كرا كس لحياته ولم يكن سينيون قنصلاً ونحن القناصل نحتمل كاتيلينا الساعي في خراب العالم بالحديد والنار ؟ سلام على رجال هذه الجمهورية القدماء لقد كانوا شجعاناً يذبون عن الوطن ويعاقبون خائفيه أما نحن فالحائن بيننا ولا نجد له قصاصاً ولا نستطيع منه خلاصاً هذا لعمركم الصغار بعينه

القديس باسيليوس

من خطبة له في الاغنياء

تقول هو مالي احرص عليه فما وجه الضرر لسواي ؟ ما لك وأين اخذته ؟ أجب من أين جئت به في هذه الدنيا . مثلك مثل من يأتي دار التمثيل قبل غيره فيريد أن يمنع الباقين من الدخول بحجة انه أول الداخلين . افلات الاغنياء استولوا قبل غيرهم على مال . هو ملك الجميع يريدون ان يستأثروا به دون سواهم ؟ أجل ياسادة لو اعطى كل واحد منكم ما زاد عن حاجته لما كان على الارض غني ولا فقير . ألم تخرجوا عراة من بطون امهاتكم الا تعودون عراة الى بطن الارض فمن أين هذا الغنى الذي تتمتعون به ؟ اكان اتفاقاً ؟ اعوذ بالله من الكفران بنعمه انه لم يكن اتفاقاً بل من الله . واذا كنتم تعرفون انه من الله فقولوا لي علام اعطاكم الله وحرّم سواكم منه ؟ ما كان ربكم ظالماً لعبيده ليقسم هذه القسمة الضئيلة . تعالى الله عن ذلك انه اعطاكم الغنى لتنفقوه في سبيل الخير وقال : «لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون» وهكذا أعد الثواب للغني والفقير الاول لحله وكرمه والثاني لصبره وألمه . وتظنون بعد هذا ان تحبسوا خيراتكم عن الناس دون الاضرار بهم من هو البخيل ؟ هو الذي لا يكفيه سد حاجته . من هو اللص ؟ هو الذي يسلب الآخرين أفلا تعرفون أنفسكم بهذا التعريف ؟ تسمون قاطع الطريق من يجرد الناس من لباسهم فماذا تسمون من لا يجود باللباس على من لا لباس له . ان في خزائنكم ثياباً كثيرة هي ملك الفقراء

العراة . كل هذه النعم التي اتيح لكم أن تتمتعوا بطيها أصبحت ذنوباً
ترصد لكم عواقبها الوخيمة

٢٠ من خطبة أخرى

قولوا لي ما الفائدة من مقاعد العاج واسرة الذهب وموائد الفضة
حتى تنفقوا في سبيلها مالا الفقراء أحق به؟ يتوافدون الى ابوابكم باكين
مسترحمين فتردونهم بقسوة ولا تهابون نقمة الجبار . لا رحمة عنكم
فلا تنتظروا رحمة منه . تقفلون دون المسكين ابوابكم وهو يقفل دونكم
ابواب الجنة . تمنعون الخبز عن الفقير فتمنع عنكم الحياة الابدية

ما تكون آخرة هذا الظلم وهذه اللصوصية ؟ وما تريدون من
هذا الملك الواسع والمكاسب الضخمة في حين يكفي شبر من الارض
ليضم اسلاءكم الحفيرة . علام هذا الطمع والجشع إلا ان تحتقرون شرائع
الله والناس ؟

انكم كيفما التفتتم تتمثل لكم صورة آثامكم فها يتيم يبكي وهناك
أرملة تئن . فقراء اضطهدتوهم وخدم أسأتم اليهم وجيران اغضبتوهم
كل هؤلاء قيام ضدكم يوم الدينونة فمن يكون معكم

ما معنى هذا الغنى الفاحش وهل في الذهب والاماس شيء غير
الحجر والتراب وماذا استفاد الخازن لها في مقاومة المرض والموت

تدعون انكم تحافظون على هذا المال لاولادكم يالها دعوى كاذبة .
أليس الله أبام ألم يعطهم الحياة من قبلكم وبعد هذا كله من يكفل
لكم ان أبناءكم تحسبن استعماله . كم مرة كان المال مجلبة الفساد والاثم
للشبيبة . تجمعونه بالتقتير ولا تعلمون أين المصير . أليست لكم نفس
هي أعز عليكم من بنيتكم فان خسرتموها فماذا تربعون وما ينفعكم بعدها
ما تجمعون

يوحنا فم الذهب

هو من أشهر خطباء النصرانية وقد نشرنا خطابه الذي دافع به عن اتروب وهو آية في البلاغة

كان اتروب رجلاً سافلاً الأصل والاخلاق بلغ باحتياله ومطامعه ومعونته الامبراطور أركاد أعلى مقامات الشرف والثروة وعين قنصلاً فكان أول أعماله اضطهاد الاسقف يوحنا والحصول على سن شرعة يحظر فيها على الكنائس حماية اللاجئين اليها

ولكن الدهر بالناس قلب فهوى اتروب يوماً من ذروة مجده وتخلّى عنه الامبراطور وأسلمه الى حقد الشعب الثائر وغضبه فلم ير مناصاً الا بالالتجاء الى كنيسة القسطنطينية التي اضطهدتها وجردها من امتيازاتها التي كانت تحولها حق الحماية

وكانت الفوغاء تتبعه محاولة الفتك به فنهض يوحنا وأخذ يبلاغته هياج الشعب وأخرس صوت الانتقام مدافعاً عن عدوه الساقط ولم يكن أكثر روعة من مشهد ذلك الجمع يحاول اقتحام المعبد للانتقام واتروب مختبئ خلف المذبح يتمرغ على قدمي الاسقف قال :

اذا صح قول الحكيم باطل الأباطيل كل شيء باطل فلا أجد حالا يصدق فيه هذا القول وينطبق عليه كحالنا اليوم . أين عظمة الفصل ومجده ؟ أين هي الجنود التي كانت تمشي في خدمة الظافر ؟ ماذا جرى بالهتاف والتصفيق والولائم والافراح ؟ الى أين انتهى ذلك الازدحام على الابواب والتراخي على الاعتاب ؟ لقد تبدد كل هذا تبدد الغيوم . عصفت الريح فجردت الشجرة من أوراقها وقطعت الصلات التي تربطها بالارض وها هي الآن تحاول محو آثارها . أين أتم أيها الاصدقاء

المنافقون والرفقاء المملقون ؟ وما حل بتلك المآدب الفخمة تتدفق فيها
سيول الخور ويحفها الاخلاص الكاذب ويشرف عليها الولاء اللبس
بالرياء ؟ ذهبت تلك البجوحة كأن لم تكن وزالت كالحلم وتناثرت
كزهرة الربيع . سراب غرار . بخار لامع يبدو حيناً ثم ينقطع . باطل
الأباطيل كل شيء باطل

هذه الآية يجب أن تطبع بأحرف من نور على الابواب والجدران
وكل مكان ، يجب أن تطبع في أعماق القلوب وتكون حديثنا الدائم
لنتعلم منها الى أي حد يمكن الاتكال على ظواهر الثروة وصداقة البشر .
ألم أقل لك غير مرة ان الغنى ظل زائل فلم تصدق . كنت أقول
فتغضب ، كنت أقول لك ان الذين يحرقون بخور الشئ بين يديك ليسوا
بأصدقائك وإن تعني لا جدى لك من تمليقهم وان الجراح التي تؤتى
عن يد الصديق لأفضل من قبلات الخائن فلو احتملت هذه الجراح لما
كنت الآن تئن من جور الساعين الى هلاكك

أين هم ضيوفك الذين كانوا يمجدونك بالأمس لينجدوك اليوم ؟
هيات لقد نفروا منك واختفوا عنك مخافة أن يقال ان لهم صلة بك
أما نحن الأئلى احتملوا غضبك وجورك فاننا نحميك بعد سقوطك
وهذا المعبد الذي حاربه يفتح صدره لك ويسط جناحه عليك

لا أريد الثمالة والاشتفاء ومعاذ الله أن أحاول اغراق شقي غابت
عليه الزوبعة ولكني أريد أن أظهر الخطر لمن ينام آمناً غدرات الزمان
فليعتبر كل مغرور تسكره خمرة الفوز بما أصاب هذا الرجل
لقد رأيتموه بالأمس عند ما توافدت رسل الامبراطور للقبض عليه

وقد علت صفرة الموت جبينه واصطكت أسنانه فرقاً ونفضت الرعدة
في مفاصله ولا تزال نافضة حتى الساعة

أنا لا أسدد نحوه سهام اللوم ولا أزيد شقاءه بالاهانة فالشقاء
لا يدعو الا الى الرحمة وهذا ما أطلبه منكم فلتكن رحمتنا على قدر
شقائه ولتكن القلوب القاسية التي تلومنا لاننا لم نقفل في وجهه أبواب
هذا الهيكل

أيها الاخوان علام تغضبون ؟ ألانا حمينا في الكنيسة من حاربها ؟
أوليس الأصح أن نسر ونحمد الله لأنه جابنا النصر وأجبر هذا العدو
ألا يجد عوناً الا في قوة كنيسته ورحمتها ؟ أقول قوتها لأنه لم يهو الى
الخصيصة الا لأنه ناوأها وأقول رحمتها لأنها تريد اليوم أن تحمي من
اضطهدها وتفتح له كالأم صدرها . هل ثمة نصر مبين كهذا النصر ؟
أو يمكن أن تفحم أعداءها بأبلغ من هذا البرهان وأي برهان كالغفو
عن عدوها المترامي على أقدامها ودرء غضب الناس عنه والوقوف لحمايته
بين غضب الامير وانتقام الأمة ؟ ألا تجدون انه أجمل وسام يرصع به
صدر هذا الهيكل ؟

رب معترض يقول كيف نسمي انتصاراً تدنيس هذا المقام بوجود
الحائن الأثيم فيه . على رسلكم يا اخواني أنسيتم تلك الحادثة التي ارتعت
على قدي السيد وأخذت تقبلهما . حذار أن لا يكون ايمانكم سوى
حب انتقام واذكروا ما قال المسيح : «ساعهم لانهم لا يعرفون ما يعملون»
قد يعترض أيضاً انه هو الذي قفل هذا الملجأ في وجهه بالشرعة
التي سنّها . ألا فانظروا عبرة ذلك فانه اليوم أول من عصى هذه الشرعة
فيستطيع أن يتبين فسادها وكافي به يقول لكم لا تقتفوا أثري ولا

ترسموا خطاي اذا أردتم أن لا تتعذبوا عذابي . ما أبلغ هذا المصاب
وما أقوى النور المتفجر من هذا المقدس . ما أبهى العظمة التي تكتنفه
منذ قبض على هذا الأسد . هكذا صورة الامير لا يعليها في عيوننا
التاج المرصع وحلة الارجوان بل يعليها البربر المقيدون بالسلاسل عند
قدميه . أيديهم وراء ظهورهم ورءوسهم منحنية الى الارض

لم تشهد البلاد في أعظم أعيادها حفلا كهذا . لقد أقفرت الدور
والحدود والطرق وأقبلتم جميعاً رجالاً ونساءً لتشهدوا تقهقر الضعف
البشري وزوال المجد الدنيوي وانصرام أسباب الفخر الكاذب .
ما أعظمها عبرة للأغنياء . رجل كان بالأمس يهز العالم بحركة من
حاجبيه يصبح اليوم يرجف فرقاً كأحققر الحيوان . بل هي عظة للفقير
أيضاً يتعلم بها العزاء فلا يشكو ولا يتذمر بل يحمد الفقر الذي جعله في
مأمن من هذه التقلبات والغير . فالיום هو درس للجميع أغنياء وقراء
كباراً وصغاراً عبيداً وأحراراً . كل يجد لدائه دواء ولآلامه عزاء .
هل استطعت أن أحرك عواطفكم وأهديء ثائركم وأجد سبيلاً الى
قلوبكم ؟ نعم أتجرأ على الافتخار بذلك فان نور الرحمة يتدفق من
وجوهكم وهذه الدموع الجائلة في الآفاق دليل عليها . إذن فلنجن ثمار
هذا الكرم الذي أظهرتموه والرحمة التي أبديتها بها بالارتقاء الى أعتاب
الامير أو بالأحرى فلنجنو هنا أمام الله ليتنازل ويلين قلب الامير

مهما تكن جريمة الرجل فالיום يوم الرحمة لا العدل والشفقة
لا الانتقام واللين لا الشدة . فلنسأل الله ولنسأل الله للآثم غفراناً
وعمرراً طويلاً ليكون له متسع من الوقت للندم والتوبة والتكفير

بوسويه

من تأيين هنريت فرنس ملكة انجلترا

مولاي (١)

ان المستوي على العرش في العلاء الذي به تقوم الممالك والذي وحده
له ملك السموات والارض وهو على كل شيء قدير ، هو وحده يضع
الاحكام للملوك ويسن لهم النظم ويلقي عليهم متى شاء دروساً عظيمة
هائلة . وهو الذي يرفع العروش ويثلها ويخلع السلطة على الامراء أو
عنهم ليدلهم على واجباتهم نحوه مظهراً لهم بهذا الاخذ والمنع ان كل
عظمتهم مستعارة وانهم لا يزالون في قبضة يده وتحت إمرته . هكذا
يعلم الملوك لا بالخطب وحدها بل بالتأنيج والعبر

أيها المسيحيون الذين أقبلوا من كل صوب وحذب لذكرى ملكة
عظيمة هي بنت ملوك وزوجة ملوك والدة ملوك . سيريك هذا الخطاب
مثلا من تلك الأمثلة الهائلة التي تظهر بطلان العالم . سترون في حياة
واحدة كل نهايات الاشياء الدنيوية : السعادة التي لا حد لها والشقاء
الذي لا شقاء بعده . سترون أعظم تيجان العالم وأبهى ما عقده تالد
المجد وطريفه على رأس انسان هدفاً لتقلبات الزمان وغير الحدثنان .
سترون بعد الانتصار عبت الثورة والاختلال والظلم . سترون ملكة
هاربة من ممالكها الثلاث ولا مأوى لها ولا غير . سلسلة أسفار في
عرض البحار وسط الزوابع والامطار . عرش يثل بلا حق ثم يعاد

(١) فليب أورليان شقيق لويس الرابع عشر

بأعجوبة . تلك هي الدروس التي يلقيها الله على الملوك ليظهر للعالم زوال
مجده وبطلان عزه . وإذا قصر اللسان عن إيفاء هذا الموضوع حقه
من البيان فالأشياء ناطقة لنفسها وأبلغ منا جميعاً قلب هذه الملكة الذي
سما إلى أعلى ذروات المجد ثم هوى إلى أسفل دركات الشقاء

لا كوردير

خطيب نوردام كان يحرو مع لامنه في جريدة المستقبل غوكم الاثنان بتهمة التشنيع بالحكومة والحض على العصيان وبرثا . قال في مطلع دفاعه عن نفسه يوم المحاكمة :

أيها السادة

اقف فيكم وبى ذكريات لا تحول ولا تزول فقد كان الكاهن فيما مضى يحمل الى الشعب شيئاً مما يبعث على الحب أما اليوم فاني أشعر ألام الاتهام ان اسمي ابكم وكهنوتي لا يجدي في الدفاع عني فتبلا . لقد جرد الناس الكاهن من هذا الحب القديم الذي كان له في نفوسهم وذلك عند ما تجرد هو نفسه من خلقه السامي فلم يعد رجل الله ولا رجل الحرية . لقبان لايفترقان في ذهن البشر ولا في مقادير العناية . عروتان أزلتان تربطان الهيكل بالعالم ولا يمكن الفصل بينهما دون أن يشهد الكاهن موت الاله الذي يعبده والحرية التي انكرها

الى أن قال في ختام المرافعة :

— لقد قتت بالواجب عليّ

أما واجبكم أيها السادة فهو تبرئتي ولا أطلبها لنفسي فما كنت ممن يهاب السجن أكثر مما يهاب الله ولكني اطلبها لتكون خطوة أولى منكم نحو اتحاد الايمان والحرية

اطلب البراءة كي يتعلم اولئك المأجورون المستبدون ان العدل لم يمت في فرنسا ولا يمكن ان تضحوه لعقائد قديمة وسخائم عصر خلا . إذن ارجوكم ان تبرثوا يوحنا باتيت هنري لا كوردير لأنه لم يذنب

بل تصرف تصرف الوطني ودافع عن الهمة والحرية . وما عملته يا سادة
تجدونني مستعداً لعمله كل حين

ومن خطبة له في وداعه نوتردام وهي آخر خطبة

أودعكم وفي الصدر عاطفتان متناقضتان : الاولى السرور اني اديت
الواجب اعلى وخدمت الكثير منكم في عصر قلما تجدي فيه خدمة
الواجب والثانية الاسف لدى التفكير ان عملاً كهذا لا يتم دون أن
يخلف العامل فيه أجل شيء من عمره وقواه

يقول دانت في مطلع قصيدته : « في منتصف طريق الحياة استيقظت
فاذا بي وحدي وسط غابة كشيقة » يا سادة اني وصلت الى هذا الموقف
من الحياة حيث يودع المرء آخر شعاع من الشباب وينحدر بسرعة نحو
شواطئ العجز والنسيان . واني لراض بهذا الانحدار لأنه مكتوب لي
غير اني أريد أن أقف قليلاً وأتملى اللذة الباقية لي وهي أن ألقى نظرة
على الماضي وأعيد معكم يا رفقاء الطريق تلك الذكريات التي حبيت الى
هذا المنبر وهذا الجمهور

هنا انفتحت نفسي لأنوار العزة الالهية ونزل الغفران على آثامي .
على اعتاب هذا الهيكل رقيت درجات الكهنوت ومن على هذا المنبر
الذي رعيتموه بالاصغاء والتهيل تجلّت لي وظيفتي هنا وجدت بعد
منفاي الاختياري الثوب الذي اقصاني عنه حرمانى باريس نحواً من ربع
قرن . هنا في غد الثورة بين بقايا العرش ومشاهد الحرب توافدتم
لتسمعوا من فمي الكلام الصاعد من هذه الاتقاض فصفقتم له . هنا
نشأت الشعائر التي عززت حياتي فوجدت وأنا في وحدتي بعيداً عن
العظماء وعن الاحزاب نفوساً احببني

يا جدران نوتردام ! أيها القبة المقدسة التي تردد فيها صدى صوتي
الضعيف . أيها المحراب الذي باركني هيهات ان انفصل عنكم . احن اليكم
وأردد ما تذكرون بركاتكم كذكرى اسرائيل لصهيون
وأنتم يا سادتي الألى غرست فيهم على اختلاف اعمارهم الحقائق
المقدسة والتقاليد السامية اني سأبقى متحداً معكم في الآتي كما في الماضي
واذا خاتنتي يوماً قواي اذا لم يعد يؤثر فيكم بقايا صوت كان عزيزاً عليكم
فلن ترموا من أجله بالعقوق إذ لا شيء بعد الذي كان يقدر ان يزيل
هذا الأثر وهو انكم كنتم مجد حياتي واكليلي للأبدية

مير ابو

من خطبته سنة ١٧٨٩ بعد ما غادر لويس السادس عشر

المجلس الوطني

أيها السادة

لا ريب ان فيما سمعتموه الآن منجاة للوطن لو كان في الامكان أن
ثق بوعود الاستبداد . ما هذا الظلم الشائن ؟ يستيحيون حرم هذا
الهيكل والسلاح في أيديهم ليأمرؤكم أن ترضوا وان تستعدوا ومن
الأمر ؟ ذاك الذي يدعي الوصاية عليكم يسن لكم شرائع الاستبداد
القاسية في حين عليه أن يستمد منكم التشريع . منكم أي منا نحن
اللابسين حلة الكهنوت السامي الذي لا يس . ٢٥ مليوناً شاخصة
الينا بأبصارها وافكارها منتظرة ان تقدم لها سعادة اكيدة تقوم على
اساس مكين ثابت ، ولكن مالي أرى حرية اجتماعكم مقيدة والقوة
المسلحة تحيط بالمجلس ؟ أين هو العدو ؟ هل كاتيلينا على الابواب ؟ وأطلب
منكم اذاً أن تحافظوا على عهودكم ولا تفرقوا قبل أن تقيموا الدستور
وكان نائب الملك حاضراً فلما رأى النواب لم يفرقوا قال : « سمعتم يا سادة
ارادة الملك » فصاح به مير ابو :

نعم سمعنا ما لقنوه الملك أما أنت الذي لا يمكن ان يكون رسوله
الى المجلس ولا مثله بيتنا انت الذي لا صوت له هنا ولا مقام ولا حق
بالكلام لا يجوز لك ان تذكرنا خطابه . على انه منعاً للبس واجتنباً
للتأخير أقول لك ان كنت مكلفاً باخراجنا من هنا فليك باحضار
الامر لاستعمال القوة . اذهب وقل لمولاي انا هنا بقوة الشعب ولا
سبيل الى اخراجنا الا بقوة الحراب

نابليون

من خطبة له بعد موقعة اوسترلتز

أيها الجند اني راض عنكم . لقد كنتم يوم اوسترلتز عند ظني فيكم
خلعتم على أوليتكم حللا من المجد لا تبلى . في أقل من اربع ساعات
حطمت جيشا يربو على مائة ألف مقاتل بقيادة امبراطورين اربعون علما
ومائة وعشرون مدفعا وعشرون قائدا وثلاثون ألفا من الاسرى تلك
كان نتيجة ذلك اليوم المشهود

لقد أصبح السلم قريبا ولكني لا أريده الا كما وعدتكم قبل عبوري
الرين اي سلمي أ كيدا يكون فيه الضمان لنا والمكافأة لحلفائنا
أيها الجنود عند ما وضع الشعب الفرنسي هذا التاج على رأسي
كان جل اعتمادي عليكم لتحفظوا له مجده الالامع الذي بدونه لا قيمة له
في نظري . أيها الجنود سأعيدكم الى فرنسا بعد أن نحقق كل ما يكفل الهناء
للوطن فتكونوا موضع الاعجاب والاكرام وتستقبلكم الأمة بسرور
وافتيار وحسبكم يومئذ ان يقول الواحد منكم لقد شهدت أوسترلتز
ليسمع من حوله : انه لبطل

ومن خطبته في فونتيانو

وداعا يا حرسى القديم . لقد مشيتم معي عشرين عاما في سبيل المجد
والشرف وما برحتم في السراء والضراء مثالا للشجاعة والامانة . ومن
كنتم حوله لا يؤوب بالفشل ولكن الحرب قد طالت وربما استعرت

حرب أهلية لا تخرج فرنسا منها الا أسوأ حالا . ولذلك اضحي بنفسي
في سبيل الوطن

سأرحل وحدي اما أتم فتأبروا على خدمة فرنسا . ان سعادتها كانت
غاية مناي وستبقى اقصى مشتهي . لا تندبوا سوء طالعي وما رضيت
بالحياة بعد هذه النكبة الا لأخدم مجدكم . اريد ان اكتب الأشياء العظيمة
التي عملناها . وداعاً يا أولادى أود ان اضمكم جميعاً الى صدري فأكتفي
بتقبيل لوائكم . أيها النسر العزيز دعني اقبلك ولتسر هذه القبة في قلوب
كل الشجعان

لامارتين

نذكر هنا مارواه لامارتين عن نفسه يوم احتدم الجدل بينه وبين الشعب الثائر وقد وقف على المنبر بين الصخب والهياج وهو لا يدري ما يكون مصيره وكان غير واحد من الخطباء يزاحه بالمنكب يمينا وشمالا ويحاول ان يزيجيه من مكانه ولكنه تمكن بالساعد والسكف من اقصائهم عنه فاذا به وحده امام هذا الجمهور وقد خفت ضوضاؤه وسكنت جلبته ومال الى الاصغاء فقال :

أي أبناء أمتي لماذا دعوتوني ؟

أصوات : لنعرف بأي حق تحكمون الشعب وهل نحن أمام رجال الظلم والخيانة أم أمام وطنيين هم أهل لهذه الثورة

لامارتين : بأي حق نحكمه ؟ بحق الدم المسفوك والنار التي تلتهم معاهدنا والشعب الذي يعوزه الرئيس والامة التي لا قائد لها ولا نظام وربما جاء الغد وليس لها قوت . بحق الاخلاص والشجاعة بحق أولئك الذين يسبقون الى التضحية جاعلين ضباطهم هدفا للشبهات ورءوسهم غرضا للشائش ودماءهم عرضة للانتقام . تحسدونا على هذا الحق ؟ انه لكم كما لنا ولا نجاد لكم فيه . كلكم أهل للتطوع في هذا السبيل ولا ندعي من الحقوق الا ما يمنحه الضمير الذي يسيطر علينا والخطر الذي يحيق بكم . ان الشعب في حاجة الى رؤساء وقد دعانا فلبينا أفتر يدون ان لا ينتهي عهد الدم والنار

اصوات : لا لا . بلى بلى . لاحق لكم باستلام الحكم . لستم من من الشعب . لم تخرجوا من وراء المنابر

اصوات : لا لا . بل هم الذين احتجوا على الفساد ودافعوا عن الشعب .
فليخبرونا ما هو الحكم الذي يريدون ان يعطونه . لقد قلنا الملكية .
فليقل لامارتين أريد أن يعطينا الجمهورية أم لا
لامارتين : الجمهورية ! ومن تلفظ بهذا الاسم ؟
- : كلنا ، كلنا

لامارتين : الجمهورية وهل تعرفون ما نطلبون ؟ أتعرفون ما هو
الحكم الجمهوري ؟
- : قل لنا ، قل لنا

لامارتين : الجمهورية هي حكم العقل فهل تشعرون انكم أهل لتحكموا
عقولكم ؟
- نعم نعم

لامارتين : الجمهورية هي حكم العدل فهل تشعرون انكم تعدلون .
ولو في الحكم على أنفسكم ؟
- نعم نعم

لامارتين : الجمهورية هي حكم الفضيلة فهل تشعرون انكم فضلاء .
وفيكُم من الرحمة والحنان ما يجعلكم اهلا لان تقبلوا التضحية وأن
تنسوا الاساءة وأن لا تحسدوا من هو أسعد حالا منكم وأن تغفوا عن
اعدائكم وان تجردوا قلوبكم من هذه الاحكام القاسية النفي والشنق والقتل .
سائلوا أنفسكم وارجعوا الى ضمائركم ثم انطقوا بالحكم لكم أو عليكم .
- نعم نعم . نشعر أننا اهل لهذه الفضائل

لامارتين : أتشعرون بذلك ؟ أقتسمون عليه ؟ أتشهدون عليكم الله ؟
- نعم نعم

لامارتين : اذن اتم قلتم . الجمهورية ، اذا كنتم اهلا للمحافظة .
علبها كما كنتم اهلا للوصول اليها

فكتور هيكو

من خطاب له في مجلس النبلاء يؤيد طلب جيروم نابوليون الأذن بالعود من منفاه سنة ١٨٤٧
أيها السادة :

لا حاجة للقول اني لا أريد ان اثير احقاداً أو شجوناً ولكني اشعر لدى صعودي هذا المنبر اني أؤدي واجباً عليّ . ان الذي يدفع هذا العاجز الى نصره جيروم نابوليون وهو في منفاه ليست فقط عقائد نفسي بل كل تذكارات حياتي فكأنما في هذا الواجب شيئاً من الوراثة ويخال لي ان ابي ذلك الجندي القديم للملكية هو الذي يأمرني بالوقوف والكلام
أيها السادة :

هذه المادة من القانون الفرنسي التي تنفي الى الأبد أسرة نابوليون من الارض الفرنسية تبعث في نفسي شيئاً لا اعرف له نظيراً ولا أستطيع عنه تعبيراً . ولكي اسهل عليكم فهم فكري سأفترض فرضاً مستحيلاً : لا ريب ان تاريخ الخمس عشرة الاولى من هذا القرن ذلك التاريخ الذي كتبتموه اتم ايها القواد والابطال المحترمون الذين انحنى امامهم والذين يصفون اليّ في هذا النادي ، ذلك التاريخ لا يزال له دوي في سمع العالم قاطبة وربما لا تجدون في اقصى المعمور رجلاً لم يسمع به فقد وقفوا في الصين بين معابد الآلهة على تمثال نابوليون . اجل اني افترض - وهذا هو الافتراض المستحيل ولكنكم تسمحون به - افترض

أن في زاوية من هذا الكون الواسع رجلا لم يعرف شيئا من هذا التاريخ ولم يسمع ابداً باسم الامبراطور . واقترض ان هذا الرجل جاء فرنسا وقرأ هذه المادة التي تقول : « ان اسرة نابوليون منفية الى الأبد من أرض فرنسا » أفقدرون مايجول في خاطر هذا الغريب ؟ انه لدى هذا العقاب الهائل ليتساءل من ترى يكون نابوليون هذا ؟ ويقول في نفسه انه ولا ريب كان مجرمًا عظيما وانه من المؤكد ان عاراً لايجي لاحق باسمه ولعله أنكر آلمته وباع أمته وخان وطنه الى آخر ما هنالك ان هذا الغريب ليتساءل بشيء من الجزع ماهي الآثام الفظيعة التي استحق من اجلها نابوليون هذا أن يعاقب مثل هذا العقاب في سلالته الى الأبد

أيها السادة هذه الآثام سأعدها لكم : هي الدين مرفوع الرايات هي القانون المدني محكم الآيات ، هي فرنسا متسعة النطاق الى ابعد من حدودها الطبيعية ، هي مارنكو . يانا . واكرام . اوسترلتز هي اغلى وأبهى مهر من القوة والمجد يستطيع رجل عظيم أن يقدمه الى أمة عظيمة أيها السادة : ان شقيق هذا الرجل العظيم يستعطفكم في هذه الساعة هو شيخ عاجز هو ملك قديم يسترحمكم اليوم . اعيدوا له ارض الوطن . ان جيروم نابوليون لم يكن له في الشطر الأول من حياته الارغبة واحدة ان يموت في سبيل فرنسا ولم يكن له في الشطر الثاني من حياته الافكرة واحدة . ان يموت في أرض فرنسا فلن تخيبوا له هذا الرجاء .

غامبتا

من خطبة له في كرنوبل وقد تذكر مرور نابوليون بها عند

افلاته من جزيرة البيا

لا . لا . إن العطف على من يريد الانضواء تحت لواء الحزب الجمهوري ليجد به باخلاص حق للحزب بل واجب عليه ولكنه لا يستطيع أن ييؤى مقاعد المجلس ألد اعدائه دون أن يستهدف للخطر ويهدم عظمة فرنسا ومستقبلها . لا . لا إن هذا العمل لينافي حق السياسة وحق الآداب التي لا يجوز فصلها عنها

يحضرني الآن تذكر اريد أن اشرككم فيه لتروا هول الخطر الذي يكون في السياسة من وراء الاستسلام للمناققين

نعم في هذا البلد أقام حيناً ذلك الرجل الذي اكسبنا المجد وجرنا علينا الويلات وطئت قدماه هذه الارض فرأى كم من السهل أن يضع يده على فرنسا مرة أخرى باستثماره البغض الذي أثاره عودة المهاجرين أو ليست الحال كذلك اليوم ؟ إن فرنسا بنت الثورة ترتجف خوفاً من عودة الحكم القديم . ما الذي كان يردده على مسمعها هذا الممثل النابغة كان يقول للفلاحين والعمال ها قد عدت اليكم افلا تعرفونني أنا جندي الثورة جئت أدافع عن حقوقكم وأحمي ممتلكاتكم وأموالكم . أنا وليد الثورة أنا الثورة بالذات الثورة المتوجة نعم لقد اخطأت وجل من لا يخطط

واليوم أحمل لكم كل أنواع الحرية حرية القول والفكر والعمل. حرية الكتابة والاجتماع . حرية الامة بدستور النواب المستقلين نعم كل هذه الحريات يجب أن تتألوها وستنالون

هذه الوعود قلت كلها أين ؟ هنا في هذا البلد ولكنها كانت وعوداً كاذبة كانت سراباً خداعاً آخر خدعة قام بها هذا الكورسيكي الثائمه (هتاف طويل) هذه الوعود الجميلة خدعت فرنسا لأن طيبة القلب تصدق أبداً ما يقال لها فأخذت بلمعان هذا السراب وانكم تعرفون كيف كانت خاتمة هذه المأساة

لاشو

من دفاعه في قضية ترويمان القاتل

حضرات القضاة حضرات المحلفين :

لقد سألتني ترويمان أن أدافع عنه فإذا بي أمام واجب لا بد من أدائه وربما أدهش موقفي هذا بعض الذين يجهلون وظيفة المحامي . إن الذين قالوا إن من الجرائم ما يفوق هولها كل وصف ومن المجرمين من بلغوا غاية القسوة والفضاعة فمن العبث أن نسعى الى تخفيض عقابهم ، أقول إن هؤلاء ليسوا على حق وهم في غضبهم المحمود يخلطون بين العدل وحب الانتقام . هؤلاء يتبعون عاطفة النفس الكريمة مشفقين على الضحايا ولكن اشفاقهم يجرم من حيث لا يدرون الى ارتكاب ذنب اجتماعي هو من أشد الذنوب خطراً لأن فيه تضحية القانون . أما أنا فافهم واجبات الدفاع على خلاف ذلك لأن المشرع أراد ان يكون الى جانب المتهم ايا كان صوت شريف صادق يرتفع ليوقف اذا أمكن تأثيرات الجمهور تلك التأثيرات الصادرة عن طيبة نفس ولكنها قد تكون وخيمة المغبة لانها تستطيع أن تطمس الحقيقة

القانون لا يغضب يا سادة ولا يعرف هذا الفوران مهما يكن كريماً شريفاً . القانون يقول إنه لا سبيل الى الحقيقة الا اذا اشترك الاتهام والدفاع في البحث عنها . هو أدرك أن هناك ساعة يجب أن تتحول فيها الابصار عن مشهد الدماء وأن يلقي من بعد المجني عليه نظرة على الجاني

بل رأى أن من واجبات العدل والقضاء أن يسأل هذا الجاني وتدرس حالة عقله ونفسه وسلطان الطبيعة والعادة عليه حتى اذا تم له ذلك قال للمحامي قف على المنبر أنت وضميرك . هذه هي أول كلمة يخاطب بها الرئيس المحامي . لقد وكل المشتري الى شرفه حق الدفاع وحرية الدفاع ليوثق بين حقوق الاجتماع الشرعية وحقوق المحاماة المقدسة هنا ولا حاجة للقول اننا في مثولنا امامكم اليوم ايها السادة نبعث بنزاهة واخلاص مجتهدين في كشف النقاب عن الحقيقة كما نفهم

أي جريمة في العالم تضاهي هذه الجريمة وتفتقر مثلها الى الدفاع ؟ لقد اهتزت البلاد من اقصاها الى اقصاها لهذه الجناية الفظيعة وتعالى الاصوات من كل الصدور طالبة الانتقام وانزال العقاب الصارم بالجاني . افتدركون ايها السادة أن كلام المحامي هو ليقمكم هذا الخطر لقد اقسمتم أن لا تظلموا الاجتماع ولا المتهم وأخذتم العهد على أنفسكم أن لا تخرجوا عن الحقيقة مجردين من عاطفة الهوى أو تأثيرات الجمهور اقسمتم أن تدعوا الحكم الى ضمائركم بعد أن تستوفى التأمل وبعد أن تستوفوا السماع فاستحلفكم اذاً أن تسكتوا هذه الضمائر وأن تنتظروا فلا تستشيروها حتى النهاية . . .

يا سادة سأبحث معكم عن الحقيقة كما افهمها ولا ادافع عنها كما يمثلها المتهم أو تظنون أنني جئت هنا لاعيد الاقوال التي فاه بها ؟ أي نظرة تنظرون اذاً الى مهنتي ؟ انها والله لأذل المهن اذا لم يكن قوامها الا أن يعاد كل ما قاله المتهم في الدفاع عن نفسه سواء أكان فيه موقفاً أو غير موفق . فاطمئنوا فما أنا بملق اليكم غير ما يملية عليّ الضمير والواجب . فقد عاشرت الرجل وخبرته وتحدثت اليه طويلا وجعلت نفسي حكما عليه قبل أن أصير محاميا له

الدفاع ملكي وأنا سيده كلا لست هنا صدى المتهم ولي من الشرف
ما يكفي ليحمي اقوالي من الزيف عن الحق والجور عن القصد فاسمعوا
من هو ترويمان؟ هذا ما لم ابرح اسأل عنه دون أن أجد جواباً
شافياً . الإنسان أم وحش كاسر؟ وعاقل أم مجنون . تلك هي العقدة
التي لا تحل . إن ما يشعر به النائب العمومي من جراء هذه القضية
اشعر به أنا أيضاً ومن هو الرجل الذي لا ينتفض جزعاً وغضباً لم رأى
هذه الضحايا أو لتذكرها ؟ لقد قال لنا الرئيس بالامس إنه بينما الرعدة
نافضة في مفاصل القوم كان الرجل وحده هادئاً لا أثر للحزن عليه .
لماذا ؟ من أية طينة جبل هذا الانسان ؟ من يكون ؟ فلنبحث

لم يكن لترويمان طفولة ولا شباب كسائر الناس وانكم لتذكرون
حالة عقله وتقيده بفكرة لا تحوّل عنها وفي الحديث الذي اسره لاحد
رفقائه معان كثيرة . لقد استولت عليه وهو في السابعة عشرة أفكار
غريبة لا تترزع والسبب انه قرأ كتاباً أهّاج أعصابه وأضاع صوابه .
هذا الكتاب هو اليهودي التائه يقص عليه ثروة تبلغ المئتين مليوناً
يشتهها رودين فيقتل من أجلها أسرة عن آخرها . ستة من الابرياء
يموتون موتاً فظيماً . كان هذا الكتاب رفيقه الدائم وسميره ليل نهار
فتركت قراءته أثراً غريباً في دماغه حتى اعتل بدنه ودبت اليه عقارب
المرض وأصبحت أفكاره كلها منصرفة الى جهة واحدة محصورة في
دائرة لا قبل له بالخروج منها وأصبحت فكرة القتل قتل ستة من الناس
حلاً لا يتخلى عنه في قعوده وقيامه ويقظته ومنامه . سلوا أهل العلم
بجيوكم ان مثل هذا الرجل غير صحيح ولا سليم ، إخصوه وادرسوه ،

حولوا نظركم قليلا عن الضحايا اليه وافهموا ما انطوى عليه . انظروا
الى تركيب جسمه الغريب ، الى ذراعيه ويديه فقد قال لي بالأمس
أحدم تأمل ان في صورة هذا الرجل شيئا من الضواري . أجل اذا
كانت قضيتنا قضية وحش لا مسئولية عليه فقصاصه الربط والتكميم
لا القتل (حركة وضجة في الجمهور) . ان ضميري يتكلم وعندما
أتشرف بأداء الواجب فاني أشفق على الذين لا يفهمون ما يجب عليهم
من الاحترام لوظيفتي

كليمانصو

من خطبة له وهو رئيس الوزراء رداً على جورس
أما وقد دقت الساعة لأشرح لكم أعمالي إماماً للمعارضين فاني
أقول : ان أعداء الطبقة العاملة هم في نظري أولئك الذين يشجعونها
على التطرف في الفكر ويعثون فيها اعتقاد ان عدم احترام الحق
والقانون مباح لها . هم أولئك الذين يصورون لها الحكومة في صورة
العدو لانها تقوم بحفظ النظام خدمة للجميع
أقول ان أعداء الطبقة العاملة هم أولئك الذين يدفعونها الى التمادي
في ضلالها فتتوهم انها معصومة عن الخطأ وان من حقها الشرعي أن
تحول الى غيرها الضغط الذي تئن منه

أقول ان أعداء الطبقة العاملة هم أولئك الذين يقفون في طريق
تربيتها باتباعهم هذه الوسائل الباطلة لأن التربية الحققة هي في العمل
لا القول . اننا نعلم ان الطبقة العاملة هي أهل للحكم الديمقراطي كما
ترغبون وكما أتمنى يوم تأتي أعمالها مطابقة للحق الذي تحاول الانتساب
اليه . هذه هي التربية التي يجب أن تعطى لها ولن تكون بالكلام
هذه التربية جربت أن أقوم بها ولكني لم أجد جورس الى جانبي
لا في « لانس » ولا في « دونين » . لست بحاقد عليك لذلك ولكن
من يدري وانت ذو السلطة الواسعة والكلمة المسموعة فيهم . من
يدري لو انك أضفت كلامك الى كلامي وصوتك الى صوتي ، من
يدري كم من فائدة كنا جنيناها وفاجعة كنا أقصيناها

لا أرميك بالخطأ ولكن أقل ما يجب عليك بعد أن رأيتني في ميدان العمل والواجب أن تكون أكثر عطفاً على الوزير الذي تحاربه (حسن حسن)

لا ريب أنك تشرف عليّ من أعالي قمة أفكارك الاجتماعية ولكم مقدرة غريبه أن تخلق بعصاك السحرية جنات الفردوس . أما أنا فعامل بسيط يقدم حجره في بناء هذا الهيكل الذي لن نراه والفرق بيني وبينك أن فراديسك تتداعى وتهار لأدنى نسمة من الحقيقة لكن هذا الهيكل الجمهوري سيناطح السماء يوماً (تصفيق في اليسار)

الحق أقول لك أنه يجب التمييز في النظام الاجتماعي بين الصورة والاطر . من السهل اصلاح الاطار علماً ولكن الاصلاح العملي يقتضي النظر في الصورة وإذا كان في الامكان أن يتلامم الانسان مع النظام الذي تريد تغييره أصلحو الانسان أولاً وهو يعرف لنفسه أن يجد الاطار الموافق بدون أن يهتم بتعاليمكم أو نبوءاتكم التي لن تتحقق أنا لا أدري الى أية نتيجة وصلتكم ولكني أستطيع أن أقول أنه إذا تم لكم هذا الاطار الجديد بقي عليكم أن تدخلوا فيه انساناً جديداً يقوى على الحياة في هذا الاجتماع الذي ولده دماغكم لان الانسان الحاضر هو غير ما تريدون ليعيش فيه .

على كل حال هناك نقطة هامة يظهر فيها خطأ آرائكم وضلال مذهبكم وهو ان الرجل الذي تحتاجون اليه لتحقيق أحلامكم وتكوين هيئتكم الآتية غير موجود ولو فرضنا أنه وجد يوماً فسيستعمل ذكاه كما يريد هو بدون أن يهتم بالطريق التي تختطونها له تدعون انكم تضعون المستقبل مباشرة أما نحن فنضع الانسان الذي

يتوقف عليه المستقبل فأعجوبتنا أعظم وأبدع . نحن لا نخلق انسانا
خصوصياً بل نأخذ الرجل كما هو بما عليه من آثار الخشونة الاولى
خشونة الكهوف وبما فيه من تمرد وأنانية وجودة واشفاق للآلام التي
يتحملها أو يحملها اخوانه . نأخذه غير معصوم من الخطأ ونهديه
وننميه ونضعفه من جانب الشر ونقويه من جانب الخير ونعطيه الحرية
ونخرج به من ظلمات الحكم الغاشم الى أنوار العدل السامي (تصفيق)
فيتقرب من الكمال يوماً بعد يوم ويصير أقدر على ادارة نفسه والتصرف
في العالم الذي حوله (تصفيق)

ولكن حذار حذار فانكم اذا خدعتم الرأي العام بوعود لا يمكن
تحقيقها فان الرأي العام ينقلب عليكم . اذا حببتم الشدة ومهدتم سبيلها
فلا تنسوا انها ستمشي اليكم آجلاً او عاجلاً ، اذا ثابرتم على خطتكم العدائية
من تصوير الحق في صورة الباطل والافتئات على الحكومة بينما هي لا تألو
جهداً في ترقية الطبقة العاملة فان اليوم الذي تصلون به الى غايتكم
لنذهب ضحية أعمالكم هو يومكم الاخير أيضاً (تصفيق)

جوريس

من خطبة جوريس في فضاء بناما سنة ١٨٩٣

أتظنون ان هناك رجلا لم يأخذه الدهش والذعر ولم يتأثر ضميره كل التأثير عندما كانت البلاد بأسرها تسمع وترى تلك الفضاء ، عندما فاجأ الامة ذلك النبأ الغريب وهو أن من مئات الملايين التي أنفقها ذهب نحو الثلاثين اسرافا وتبذيرا عندما اتيج لها أن تشهد الفساد جامعا بين رجال السلطة وأصحاب الاعمال ورأت بعينها تأخي المجلس والبنوك على حساب المساهمين

أتظنون انه لم يكن شيئا مذكورا يوم علمت البلاد أن وزراء ستساق الى المحاكم وان أشياء هائلة ستعلن وتقال ؟ يوم جاءت ساعة مثل فيها البعض أمام محكمة التحقيق عالي الرأس والبعض ملعغم اللسان ساعة تساوى فيها هذا المجلس وندوة العدل ، ساعة كان فيها عظماءنا يمرون من ساحات المجلس المضيئة الى أروقة القضاء المظلمة ؟

أتظنون ان هذا لم ينتج شيئا ؟ تذكروا كلام الشاعر القديم « التراب هو شقيق الاو حال » ورددوا في نفوسكم ان كل هذا الغبار المحرق غبار التعصب الفوضوي الذي أعمى في طريقه بعض الاشقياء هو شقيق أوحال الرأسمال والسياسة وله في موقف آخر :

رأيت أحيانا في طريق الجبل بعض الفلاحات العجائز عائدات من الغابة حاملات فوق ظهورهن أحمالا من الاغصان الخضراء فكانت

الريح عند مرورها بتلك الاغصان المورقة توقظ من حول الفلاحة
العجوز خفيف الاحراج الواسعة ولكن العجوز لم تكن تسمع هذا
الحفيف بل كانت تمشي بخطاها المتثاقلة دون أن تعي نشيد الاحلام
الذي كانت تسره في أذنيها قطعة الغاب المحمولة على ظهرها

أجل هكذا هو العامل المسكين يمشي محاطاً بنسمات الطبيعة دون أن
يسمعا . كيف تريدون منه بعد جهده الطويل من طلوع الشمس الى
غياها عند ما يشعر ان عمله المنهك ليس عملاً حراً وانه قد يجرد منه
في الغد لغير ما سبب ، عند ما يجد نفسه مقيداً بأدواته التي تضنيه وربما
فارقها في غده مكرهاً ؟ كيف تريدون منه وهو على هذا الوجه متعب
مستعبد يساوره الوجل والاشفاق ألا يتاح له في غده ما يطعمه ويطعم
ذويه ؟ كيف تريدون منه أن يرتفع فكره بالحلم فوق ضجيج المصانع
الذي يسم الآذان ليقول في نفسه ان هذا الضجيج الخارج من الادوات
العاملة هو جزء من الموسيقى الكونية ؟

هذا الشيء سيعرفه في الغد عند ما نعطيه الحرية

فيفياني

من خطبة له بعد الانتخابات وهو وزير الاشغال

في وزارة كليمانصو

ما الذي يخيفكم اذًا ؟ ان الذي ترتجفون فرقاً منه ليس ما تحويه
المطالب الاجتماعية بل ما تظهره او تتنبأ عنه . ان الذي تجزعون من اجله
هو هذه المواقف الثابتة والآراء التي لا تتزعزع ، هو الشدة والاهواء
الطاخة بها ، هو هذا الاشعاع الفكري الدائم ، هو هذه الحمى السارية
في عروق الجميع

نعم ولكن من المذنب ان كان ثمة ذنب ؟ من خلق هذا العمل
الثوروي ؟ اي يد ابدعت انسان اليوم بما فيه من رغائب وجهاد
وجسارة وعناد ؟

ان الثورة الفرنسية اطلقت في الانسان كل جرأة الضمير وكل
اطماع الفكر . لم يكف ذلك . جاءت ثورة ١٨٤٨ ومنحت التصويت
للعام واخذت بيد العامل الرازح تحت اثقال العمل وساوت في السياسة
بين الرفيع والوضيع . لم يكف ذلك . جاءت الجمهورية الثالثة فجعلت
حولها اولاد الفلاحين والعامل وزرعت في هذه الأدمغة المظلمة بذور التعليم
الثوروية . لم يكف ذلك . جئنا كلنا نفعل باسم الدين ، باسم الآباء
والأجداد ، باسمنا انفسنا فزغنا الايمان من الضمائر ، ولما رأينا الشقي المنهك
بعمل النهار يحني ركبتيه عند المساء رفعناه وقلنا له لا يوجد من وراء
هذه الغيوم الا اوهام واطفأنا في لحظة انواراً في السماء لن تضيء ابداً

لنكولن

من مناظرة بينه وبين القاضي دوجلاس

عن المساواة بين الأبيض والأسود

لا غرض لي من التدخل في نظام الرق في الولايات التي يسري فيها هذا النظام لاني اعتقد انه لا حق لي بهذا التدخل، فضلا عن ذلك فاني لا اشعر من النفس ارتياحا الى مثل هذا العمل كما اني لا اقصد الى المساواة بين البيض والسود سياسة او اجتماعا اذ ثمة فوارق طبيعية تمنع فيما اظن وقوفهما جنبا الى جنب على بساط المساواة . وبما ان هذه الفوارق تنشئ تفاوتاً في الجنسين فأنا موافق للقاضي دوجلاس على ان تكون السيطرة للجنس الذي انتمي اليه

اني لم اصرح قط فيما مضى بخلاف ما ذكرت الآن على اني على الرغم مما سبق وذكرت من الأسباب والفوارق لا ازال مصراً على اعتقادي مجاهرآ بأنه لا مانع في الدنيا يمنع الأسود من التمتع بحقوقه الطبيعية الخولة له في تصريح الاستقلال اي الحق بالحياة والحرية والسعي وراء السعادة . واني لأتمسك كل التمسك بأنه والرجل الأبيض شرع امام هذا الحق

انا موافق على ما قاله القاضي دوجلاس من ان الأسود يختلف عني من وجوه كثيرة كاللون او العقل والاخلاق واما في حقه ان يأكل الخبز الذي كسبت يده دون ان يستأذن سواء فهو نظيري ونظير دوجلاس ونظير كل انسان على وجه الأرض

ارستيد بريان

من خطبة له في قانون الكنائس

ان الصلات التي كانت لنا مع رومة وحل المجلس عراها لا تستطيع
حكومة منا ان تعيدها دون ان ترمى بالخيانة

اني احب بلادي و احب الرقي وما قبلت بوظيفتي هذه حباً بالجد
والشهرة واذا كان في تولي زمام الحكم فرح ولذة فهو فرح الواجب
واللذة بما يستطيع عمله من الخير ، على ان هناك مسئولية عظيمة ترافق
هذه اللذة وانا شاعر منذ اليوم وقبل اليوم بثقل وطأتها . (تصفيق في
اليسار والوسط)

اني أسألكم معاشر الجمهوريين الذين بوأتهم ديموقراطية فرنسا
هذه المقاعد اتريدون ان تكونوا على وفاق مع مبادئكم ؟ لقد قدمنا لكم
بياناً طويلاً فيما نقصد عمله لمجد الديموقراطية وهنائها وهذا البيان يتطلب
جهداً كبيراً افتظنون ان تحقيق هذه المطالب لا يحتاج الى شيء من
الهدوء والطمأنينة والسلام في هذا البلد . اتحسبون ان الوصول الى
الاصلاح ميسور اذا لم نفقأ عين الفتنة ونسحق افاعي البغضاء والتعصب
ونقضي على النزاع الديني القضاء الأخير ؟ (تصفيق في الوسط واليسار)
اي سادتي لا اكنتمكم فكري . لقد رسمت في الأحوال التي ذكرتها لكم
خطة للزرع جعلتها بعيدة عن الاعوجاج ما استطعت فلا تلقوا فيها بذوراً
فاسدة . واذا كان لا بد للشوك من أن ينمو فيها فلست أنا بحاصدها يوماً
بل سواي (تصفيق)

موسوليني

من خطبة له في جماعة القمصان السود في فلورانس سنة ١٩٣٠
لقد طهرنا البلاد فلم يبق فيها من الأحزاب من نهاب دعوته أو
نخاف فتته اما الذين خرجوا عنا ولا يزالون يناصبوننا العداء في خارج
ايطاليا فما ابعد المسافة بين ما يعملون وما يرموننا به من الاغلاط التي
نعلم حق العلم انها حقائق راسخة اقيم عليها بناء الفاشيست المتين
وهناك أعداء آخرون يجهلون كل الجهل قوى الفاشيستية ويريدون
مقاضاتنا . هم يعتقدون انا قليل عديدنا قصير باعنا وتعمى قلوبهم عن
الحقيقة الناصعة ان الفاشيست هي ايطاليا جمعاء ايطاليا البالغ عددها ٤٣
مليوناً . لقد نسبوا اعمالنا الى حركة تجديد ولم يفهموا انها الثورة بعينها
وادعوا انه حكم ظلم وارهاب وهو في الحقيقة مظهر من اجلى مظاهر
السيادة القومية لأمة تريد ان تحكم نفسها بنفسها . وقد ظن هؤلاء
ايضاً اننا لا نستطيع الذهاب الى ابعد مما ذهبنا اليه في سبيل التضحية
(تصفيق طويل) ولست أري وايم الله ما ينال الشعب الايطالي في كبريائه
وكرامته مثل هذا الظن والتوهم ان برنامجنا البحري الجديد حلم لا قبل
لنا بتحقيقه ، (تصفيق شديد) ولهذا اعود فأؤكد ان هذا البرنامج
سينفذ بنداً بنداً لان ارادة الفاشيست ليست فقط من حديد بل هي
ايضاً ارادة عمل تهزأ بالمقاومة ولا تعبأ بالعقبات التي تعترض دونها .
واني على يقين من ان الشعب الايطالي لا يرضى البقاء سجيناً في بحر

كان فيما مضى بحر رومة ولهذا فهو لا يرجع عن التضحية كما دعت إليها الحال (هتاف وأصوات. نعم نعم)

ولقد تساءل أولئك الأعداء ما قصد بقولنا نفسية الشعب الايطالي وعليه اجيب ان احزاباً عديدة تعمل في خارج البلاد على اقتلاع جذور المذهب الفاشيستي وهذا العمل وان يكن مصيره الى الفشل التام فهم يقصدون به ان يزحزحوا إيطاليا عن موقفها السامي ويميلوا بها عن طريق المجد الذي تتسلق قممه . (أصوات أبداً أبداً) هؤلاء يدعون أنهم أحرار ديموقراطيون ولا يأنفون مع ذلك من إثارة أية حرب كانت على الشعب الايطالي بل لا يتأخرون عن أن يزجوا أنفسهم في غمراتها ويكونوا أول المشتركين فيها ولكنهم سيجدوننا في انتظارهم حينذاك (تصفيق حاد) وإذا حدث شيء من هذا فان رجال القمصان السود ستكون في مواقفها مستعدة لاحباط مساعيهم الدينية بوسائل لم تخطر على بالهم (هتاف عال) لان إيطاليا الفاشيستية هي اليوم كاملة العدة والعدد والويل كل الويل لمن يحاول إذلالها (نعم نعم)

تذكروا أن رجال القمصان السود عقدوا في هذه المدينة مؤتمرهم الأول سنة ١٩١٩ فكانت الخطوة الأولى في معارضة للرجعيين وها نحن اليوم نفتخر بالشوط الواسع الذي قطعناه في طريق المجد منذ ذلك الحين ألا وان شجاعتنا لم تهن وسيرنا إلى الأمام في طريق التجديد لم يقف ولا يجب أن يقف أبداً (هتاف من الجمهور أبداً أبداً)

خطب العرب

خطبة النبي (صلى الله عليه وسلم)

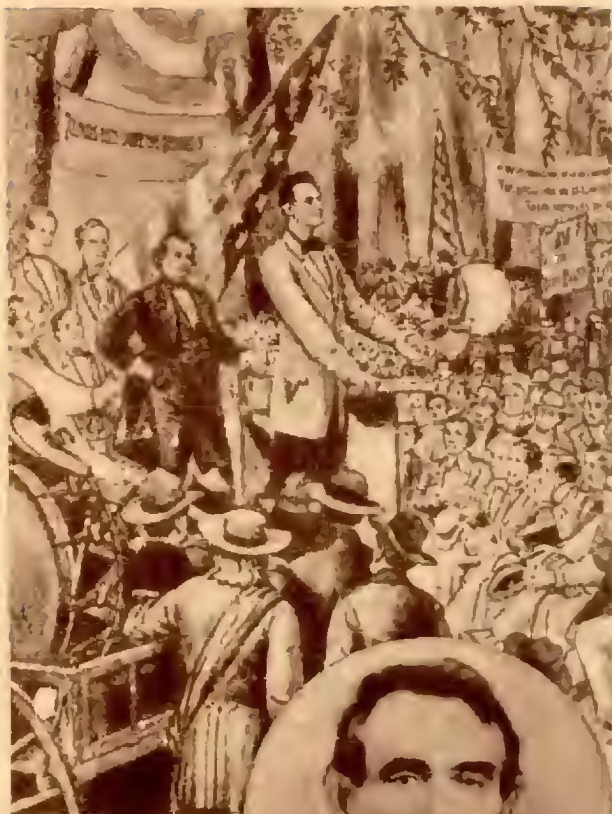
« لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً، ولا أصدق لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مزجاً، ولا أفصح عن معناه، ولا أبين في خفواه، من كلام النبي (ص) »
أيها الناس : ان لكم معالم فاثموا الى معالمكم وان لكم نهاية فاثموا الى نهايتكم . ان المؤمن بين مخافتين : بين عاجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه وآجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه ، فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخريته ومن الشبية قبل الكبر ومن الحياة قبل الموت فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب وله أيضاً :

أيها الناس : كأن الموت فيها على غيرنا قد كتب، وكأن الحق فيها على غيرنا قد وجب، وكأن الذي نشيع من الأموات سفر عما قليل الينا راجعون . نبوئهم أجدائهم ، ونأكل من ترائهم كأننا مخلصون بعدهم ، ونسينا كل واعظة وأمانا كل جائحة . طوبى لمن شغله عييه عن عيوب الناس . طوبى لمن أنفق مالا اكتسبه من غير معصية، وجالس أهل الفقه والحكمة ، وخالط أهل الذل والمسكنة . طوبى لمن زكت وحسنت خليقته، وطابت سريره، وعزل عن الناس شره . طوبى لمن أنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله ووسعته السنة ولم تستهوه البدعة

أبو بكر الصديق

أيها الناس اني قد وليت عليكم ولست بخيركم فان رأيتُموني على حق فأعينوني وان رأيتُموني على باطل فسدّدوني ، أطيعوني ما أطعت الله فيكم فاذا عصيته فلا طاعة لي عليكم . ألا ان أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له وأضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه . أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

بعض كبار خطباء العرب والافرنج



ابراهام لنكولن



جان جوریس



جورج کلیمنصو

مصطفى كامل
باشا



رينيه فيفياني



فيكتور هوغو



نابليون بونابرت



سعد زغلول باشا



ارستید بریان



بنیتو موسولینی

علي بن أبي طالب

أغار سفيان بن عدي الأزدي على الأنبار وعليها ابن حسان فقتله وأزال تلك الخيل عن مسالحها فخرج علي حتى جلس على باب السدة لحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ثم قال :

أما بعد فإن الجهاد من أبواب الجنة فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذلة وشمله البلاء وألزمه الصغار وسيم الحسف ومنع النصف . ألا واني قد دعوتكم الى قتال هؤلاء القوم ليلا ونهاراً سرّاً واعلاناً وقلت لكم اغزوم قبل أن يغزوكم فوالله ما غزي قوم قط في عقر دارهم الا ذلوا . فتوا كلمتم وتخاذلتم وثقل عليكم قولي واتخذتموه وراءكم ظهيراً حتى شنت عليكم الغارات . هذا أخو غامد قد وردت خيله الأنبار وقتل حسان البكري وأزال خيلكم عن مسالحها وقتل منكم رجالاً صالحين وقد بلغني ان الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والاخرى المعاهدة فينتزع أحبالها وقلبها ورعثنها ثم انصرفوا وافرين ما كلم رجل منها كلمة . فلو ان امرءاً مسلماً مات من بعدها أسفاً ما كان عندي ملوماً بل كان عندي به جديراً . فيأعجباً من جد هؤلاء القوم في باطلهم وفشلهم عن حقهم قبيحاً لكم وترحاً حين صرتم غرضاً يرمى وفيثاً ينهب يغار عليكم ولا تغيرون وتغزون ولا تغزون ويعصى الله وترضون فاذا أمرتكم بالسير اليهم في الحر قلتم : حمارة القيظ ، أمهلنا حتى ينسلخ عنا الحر واذا أمرتكم بالسير في البرد قلتم : أمهلنا حتى ينسلخ عنا القر . كل هذا فراراً من الحر والقر . فاذا كنتم من الحر والقر تفرون

فأتم والله من السيف أفر . يا أشباه الرجال ولا رجال ويا أحلام
الاطفال وعقول ربات الحبال . وددت ان الله قد أخرجني من بين
ظهرا نيكم وقبضني الى رحمته من بينكم . والله لو ددت اني لم أركم ولم
أعرفكم معرفة والله جرت ندما وورثت صدري غيظا وجرعتموني
الموت أنفاسا وأفسدتم علي رأيي بالعصيان والخذلان . أحق قالت
قريش : ان ابن أبي طالب شجاع ولكن لا علم له بالحرب ؟ لله أبوم
وهل منهم أحد أشد لها مراسا وأطول فيها تجربة مني . لقد مارستها
وما بلغت العشرين وقد نيفت فيها على الستين ولكنه لا رأي لمن
لا يطاع

معاوية بن أبي سفيان

لما حضرت معاوية الوفاة قال لمولى له : من الباب ؟ قال : نفر من مريش يتباشر ذلك موتك فقال : ويحك ولم ؟ قال : لا أدري قال : فوالله ما لهم بعدي إلا الذي يسوؤهم وأذن للناس فدخلوا فحمد الله وأثنى ثم قال :

أيها الناس إننا قد أصبحنا في دهر عنود وزمن شديد يعد فيه المحسن مسيئاً وزداد فيه الظالم عتوًّا . لا ننتفع بما علمناه ولا نسأل عما جهلناه ولا نتخوف قارعة حتى نحمل بنا فالناس على أربعة أصناف منهم من لا يمنعه من الفساد إلا مهانة نفسه وكلال حده ونضيض وفره . ومنهم المصلت بسيفه المجلب بخيله ورجله والمعلن بشره قد أشرط نفسه وأوبق دينه لحطام ينتهزه أو مقنب يقوده أو منبر يقرعه ولبئس التجران تراهما لنفسك ثمنًا ولمالك عند الله عوضًا . ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا فقد طامن من شخصه وقارب خطوه وشمر من ثوبه وزخرف نفسه للأمانة واتخذ ستر الله ذريعة للمعصية . ومنهم من قد أقعده عن طلب الملك ضؤولة نفسه وانقطاع سببه لقصرت به الحال عن أملة فتحلى باسم القناعة وتزين بلباس الزهد وليس من ذلك في مراح ولا مغدى . وبقي رجال غض أبصارهم ذكر المرجع وأراق دموعهم خوف المحشر فهم بين شريد نافر وخائف منقمع وسائق مكلوم وداع غلص وموجع ثكلان قد أخلتهم التقية وشملتهم الدلة فهم بحر اجاج أفواهم ضامرة وقلوبهم قرحة قد وعظوا حتى ملوا وقهروا حتى ذلوا وقتلوا حتى قلوا فلتكن الدنيا في أعينكم أصغر من حثال القرظة وقراصة الجمين واتعظوا بمن كان قبلكم قبل أن يتعظ بكم من كان بعدكم فارفضوها ذميمة فانها رفضت من كان أشغف بها منكم

عتبة بن أبي سفيان

وهو يومئذ أمير مصر وقد بلغه عن أهلها أمور أن صعد المنبر وقال :

يا حاملي الأم أنوف ركبت بين أعين. إنما قلت أظفاري عنكم ليلين
مسي إياكم وسألتكم صلاحكم لكم إذ كان فسادكم راجعاً إليكم
فأما إذا أبيتم إلا الطعن على الأمراء والعتب على السلفاء والخلفاء فوالله
لأقطعن بطون السياط على ظهوركم فإن حسمت مستثيري دائكم وإلا
فالسيف من ورائكم فكم من عظة لنا قد صمت عنها آذانكم وزجرة
منها قد مجتها قلوبكم ولست أبخل عليكم بالعقوبة إذا جدتم علينا بالمعصية
ولا مؤيماً لكم من المراجعة إلى الحسن إن صرتم إلى التي هي أبرواتقى

زياد بن ابي سفيان

قدم زياد البصرة والياً لمعاوية وضم اليه خراسان وسجستان والفسق
بالبصرة كثير فاش ظاهر لخطب خطبة بترأ لم يحمد الله فيها قال :

أما بعد فان الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء والغبي الموفى بأهله على
النار ما فيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حملاؤكم من الأمور العظام ينبت فيها
الصغير ولا يتحاشى عنها الكبير كانكم لم تقرأوا كتاب الله ولم تسمعوا
ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته والعذاب الأليم لأهل معصيته
في الزمن السرمدي الذي لا يزول. أتكفونون كمن طرفت عينه الدنيا وسدت
مسامعه الشهوات واختار الفانية على الباقية ولا تذكرون أنكم أحدثتم
في الاسلام الحدث الذي لم تسبقوا اليه من ترككم الضعيف يقهرو ويؤخذ
ماله ؟ ما هذه المواخير المنصوبة والضعيفة المسلوقة في النهار المبصر والعدو
غير قليل ألم تكن فيكم نهاية تمنع الغواة عن دجل الليل وغارة النهار ؟
قربتم القرابة وبعادتم الدين تعتذرون بغير العذر وتغضون عن الختلس
كل امرئ منكم يذب عن سفيهه صبيح من لا يخاف عاقبته ولا يرجو معاداً
ما أنتم بالحلماء ولقد أتبعتم السفهاء فلم يزل بكم ما ترون من قيامكم
دونه حتى انتهكوا حرم الاسلام ثم أطرقوا وراءكم كنوساً في مكائس
الريب . حرام علي الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماً وإحراقاً
إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله . لين في
غير ضعف وشدة في غير عنف وأي أقسم بالله لأخذ الولي بالمولى والمقيم
بالظاعن والمقبل بالمديرو المطيع بالعاصي والصحيح منكم في نفسه بالسقيم

حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول أنج سعد فقد هلك سعيد أو
تستقيم قناتكم

إن كذبة النبر بقاء مشهورة فإذا تعلقتم عليّ بكذبة فقد حلت لكم
معصيتي فإذا سمعتموها مني فاغتمزوها فيّ واعلموا أن عندي أمثالها .
من نقب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب منه فايي ودلج الليل فأني لأؤتي
بمدلج إلا سفكت دمه وقد أجلتكم في ذلك بمقدار ما يأتي الخبر الكوفة
ويرجع اليكم

ويأي ودعوى الجاهلية فاني لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه
وقد أحدثتم إحداثاً لم يكن وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة فمن غرق
قوماً غرقناه ومن أحرق قوماً أحرقناه ومن نقب بيتاً نقبنا عن قلبه
ومن نبش قبراً دفناه حياً فيه فكفوا عني أيديكم والسنتكم اكفف
عنكم يدي ولساني ولا تظهر من أحد منكم ريبة بخلاف ما عليه
عاملكم إلا ضربت عنقه . وقد كانت بيني وبين أقوام إحن فجعلت
ذلك دبر أذني وتحت قدمي فمن كان منكم محسناً فليزدد احساناً ومن كان
منكم مسيئاً فلينزعه من إساءته

إني لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضي لم اكشف له قناعاً ولم
أهتك له سترأ حتى يبدي لي صفحته فإذا فعل ذلك لم أنظره فاستأنفوا
أموركم وأعينوا على أنفسكم قرب مبئس بقدمنا يسر ومسروور بقدمنا
سيبتئس

أيها الناس إنا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة نوسكم بسلطان
الله الذي أعطانا ونذود عنكم بفيء الله الذي حولنا فلنا عليكم السمع
والطاعة فيما أحببنا ولكم علينا العدل فيما ولينا فاستوجبنا عدلنا وفيئنا

بِمَا صَحَّحْتُمْ لَنَا وَعَلِمُوا أَنِّي مَهْمَا قَصُرَتْ عَنْهُ فَلَنْ أَقْصُرَ عَنْ ثَلَاثٍ : لَسْتُ
 مُحْتَجِّبًا عَنْ طَالِبِ حَاجَةٍ مِنْكُمْ وَلَوْ أَتَانِي طَارِقًا بَلِيلٌ وَلَا حَاسِبًا عَطَاءً وَلَا
 رِزْقًا عَنْ إِبَانَةِ وَلَا بِجَمْرٍ أَلَيْكُمْ بَعَثَا فَادْعُوا اللَّهَ بِالصَّلَاحِ لَا تُعْتَكِمُ فَانْهَمِ
 سَاسَتَكُمْ الْمُؤَدِّبُونَ لَكُمْ وَكَهَفَكُمْ الَّذِي إِلَيْهِ تَأْوُونَ وَمَتَّى يَصْلَحُوا تَصْلَحُوا
 وَلَا تَشْرَبُوا قُلُوبَكُمْ بَغْضَهُمْ فَيَشْتَدُّ لَدُنْكَ غَيْظُكُمْ وَيَطُولُ لَهُ حَزَنُكُمْ وَلَا
 تَدْرِكُوا لَهُ حَاجَتَكُمْ مَعَ أَنَّهُ لَوْ اسْتَجِيبَ لَكُمْ فِيهِ لَكَانَ شِرَاكُكُمْ .
 أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَعْينَ كُلَّ عَلَى كُلٍّ وَإِذَا رَأَيْتُمُونِي أَنْفَذَ فِيكُمْ الْأَمْرَ فَانْفَذُوهُ
 عَلَى إِذْلَالِهِ (١) وَإِيْمَ اللَّهُ إِنْ لِي فِيكُمْ لَصَرْعَى كَثِيرَةً فَلْيَحْذَرْ كُلُّ أَمْرٍ
 مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ مِنْ صَرْعَايَ

(١) أَيُّ عَلَى حَالِهِ الَّتِي هُوَ فِيهَا

عمر بن عبد العزيز

أيها الناس انكم لم تخلقوا عيشاً ولم تتركوا سدى وان لكم معاداً يحكم الله فيه بينكم نخاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء وحرم الجنة التي عرضها السموات والارض . واعلموا ان الأمان غداً لمن خاف ربه وباع قليلاً بكثير وفانياً بياق ألا ترون انكم في أسلاب الهالكين وسيخلفها من بعدكم الباكون كذلك حتى تردوا الى خير الوارثين . ثم أنتم في كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً الى الله قد قضى نجه وبلغ أجله ثم تغيبونه في صدع من الارض ثم تدعونه غير موسد ولا م مهد قد خلع الاسباب وفارق الاحباب وواجه الحساب غنياً عما ترك فقيراً الى ما قدم وايم الله اني لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما عندي فأستغفر الله لي ولكم وما تبلغنا حاجة يتسع لها ما عندنا الا سد دنائها ولا أحد منكم الا وددت أن يدي مع يده ويحمي الدين يلونني حتى يستوي عيشنا وعيشكم وايم الله ان لو أردت غير هذا من عيش أو غضارة لكان اللسان مني ناطقاً ذلولاً عالماً بأسبابه لكنه مضى من الله كتاب ناطق وسنة عادلة دل فيها على طاعته ونهى فيها عن معصيته

(١) هو أحد خلفاء بني أمية كان عفيفاً زاهداً وكان يتحرى سيرة الخلفاء الراشدين وهو أول من فرض لآبناء السبيل وأبطل في الخطب سب علي . خلافته من ٧١٧ - ٧٢٠ م . ألقى هذه الخطبة بخصاصة (بلد بالشام) ولم يخطب بعدها حتى مات

أبو حمزة الخارجي

دخل أبو حمزة مكة وهو أحد نساك الإباضية فسمد منبرها متوكئاً على قوس له عربية فحمد الله وأثنى ثم قال :

يا أهل الحجاز أتعرونني بأصحابي وتزعمون انهم شباب وهل كان أصحاب رسول الله صلعم إلا شباباً . أما والله اني لعالم بتتابعكم (١) فيما يضركم في معادكم ولولا اشتغالي بغيري عنكم ما تركت الأخذ فوق أيديكم شباب والله مكتهلون في شبابهم غضيضة عن الشر أعينهم ثقيلة عن الباطل أرجلهم أنضاء عبادة (٢) وأطلاع سهر نظر الله اليهم في جوف الليل منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن كلما مر أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقاً اليها واذا مر بآية من ذكر النار شقق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه موصول كلالهم بكلالهم كلال الليل بكلال النهار قد أكلت الارض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم واستقلوا ذلك في جنب الله حتى إذا رأوا السهام قد فوقت والرماح قد أشرعت والسيوف قد انتضيت ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله ومضى الشباب منهم قدماً حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه وتخضبت بالدماء محاسن وجهه فأسرعت اليه سباع الارض وانحطت اليه طير السماء فكم من عين في منقار طير طالما بكى صاحبها في جوف الليل من خوف الله وكم من كف زالت عن معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها في جوف الليل بالسجود لله

(١) التابع الترامي على الشر والسقوط فيه

(٢) أى العبادة جعلتهم ضئال الاجسام والسهر أهزلهم وأضواهم

الاحنف بن قيس

يا معشر الازد وريعة أتم اخواننا في الدين وشركاؤنا في الصهر
وأشقاؤنا في النسب وجيراننا في الدار ويدنا على العدو . والله لأزد
البصرة أحب إلينا من تميم الكوفة ولأزد الكوفة أحب إلينا من تميم
الشام فان استشرف شئنا نكم وأبى حسد صدوركم ففي اموالنا وسعة
أحلامنا لنا ولكم سعة

قطري بن الفجاءة

هو من مازن بن مالك كان من أبطال الخوارج وقادتهم وبلغائهم خرج في زمن عبد الله بن الزبير وكان مصعب والياً من قبل أخيه على المراقبين فبقي قطري يقاتل جند السلطان عشرين سنة . صعد منبر الازارقة فقال :

أما بعد فاني أحذركم الدنيا فانها حلوة خضرة حفت بالشهوات وراقت بالقليل وتحببت بالعاجلة وحليت بالآمال وتزينت بالغرور لا تدوم خبرتها ولا تؤمن بجمعها ، غرارة هزارة خوانة غدارة وحائلة زائفة ونافذة بائدة اكالة غوالة بذالة ثفالة لا تعدو اذا هي تناهت إلى أمنية أهل الرعبه فيها والرضا عنها أن تكون كما قال الله تعالى « كما أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرًا » مع ان أمراء لم يكن معها في حبرة إلا أعقبته بعدها عبرة ولم يلق من سرائها بطناً إلا منحت من ضرائها ظهراً ولم تطل غيثة رخاء إلا أهطلت عليه مزنة بلاء وحري إذا أصبحت له منتصرة أن تمسك له خاذلة متكررة ، وإن جانب منها أعذوب واحلوى أمر عليه جانب وأوبى وإن أنت امرأ من غضارتها ورفاهتها نعماً أرهقته من نوائبها تقماً ولم يمس امرؤ منها في جناح آمن إلا أصبح منها على قوادم خوف . غرور ما فيها فإن ما عليها ، لا خير في شيء من زادها إلا التقوى ، من أقل منها استكثر مما يؤمنه ومن استكثر منها استكثر مما يوبقه ويطيل حزنه ويبكي عينيه

كم واثق بها قد أجمعته وذئ طمأنينة اليها قد صرعه وذئ اختيال

فيها قد خدعته وكم من ذي أبهة بها قد صيرته حقيراً وذو نخوة قد ردته ذليلاً وكم من ذي تاج قد كبته لليدين والفم سلطانها دول وغيثها رنق. وعذبها أجاج وحلوها صبر وغذاؤها سهام وأسبابها رمام وقطافها سلج حبيها بعرض موت وصحيحها بعرض سقم ومنيعها بعرض اهتضام مليكها مسلوب وعزيزها مغلوب وسليمها منكوب وجامعها محروب مع أن وراء ذلك سكرات الموت وهول المطلع والوقوف بين يدي الحكم العدل :

« ليجزي الذين أسأؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى »

ألستم في مساكن من كان أطول منكم أعماراً وأوضح منكم آثاراً وأعدّ عديداً واكتف جنوداً وأعدّ عنوداً؟ تعبدوا للدنيا أي تعبدوا آثرها أي إثار وظعنوا عنها بالكراه والصغار فهل بلغكم أن الدنيا سمحت لهم نفساً بفدية أو أغنت عنهم فيما قد أهلكتهم بخطب بل قد أرهقتهم بالفوادح وعقرتهم بالمصائب وقد رأيتم تنكرها لمن دان لها وأخذ إليها حين ظعنوا عنها لفراق الأبد إلى آخر المسند هل زودتهم إلا الشقاء وأحلتهم إلا الضنك أنورت لهم إلا الظلمة أو أعقبتهم إلا الندامة أفهذه تؤثرون أم على هذه تحرصون أم إليها تطمئنون؟ يقول الله: « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ، أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون »

فبئس الدار لمن أقاموا فيها فاعلموا وأتم تعلمون أنكم تاركوها لا بد فانما هي كما وصفها الله باللعب واللهو وقد قال الله تعالى: « أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون »

خطبة عبيد الله بن زياد

صعد المنبر بعد موت يزيد بن معاوية وحيث بلغه ان سلمة بن ذؤيب قد جمع الجموع يريد خلعه ، فقال :

يا أهل البصرة انسبوني . فوالله ما مهاجر أبي إلا اليكم وما مولدي إلا فيكم وما أنا إلا رجل منكم ، والله لقد وليكم أبي وما مقاتلتكم إلا اربعون ألفاً فبلغ بها ثمانين ألفاً وما ذريتكم إلا ثمانون ألفاً فبلغ بها عشرين ومائة ألف وأتم اوسع الناس بلاداً واكثره جنوداً وابعد مقادراً واغنى الناس عن الناس . انظروا رجلاً تولونه امركم يكف سفهاءكم ويحيي لكم فيثكم ويقسمه فيما بينكم فانما انا رجل منكم فلما أبوا غيره قال : اني اخاف أن يكون الذي يدعوكم الى تأميري حداثة عهدكم بأمرى

خطبة يزيد بن الوليد

ابن عبد الملك

قال بعد ما قتل ابن عمه الوليد بن يزيد :

أيها الناس والله ما خرجت أشراً ولا بطراً ولا حرصاً على الدنيا ولا
رغبة في الملك وما بي إطرأ نفس وإني لظلوم لها ولقد خسرت إن لم
يرحمني ربي ولكني خرجت غضباً لله ودينه وداعياً إلى الله وسنة نبيه
لما هدمت معالم الهدى وأطفئ نور التقوى وظهر الجبار العنيد المستحل لكل
حرمة والراكب لكل بدعة مع انه والله ما كان يؤمن بيوم الحساب ولا
يصدق بالثواب والعقاب وانه لابن عمي في النسب وكفئي في الحسب فلما
رأيت ذلك استخرت الله في أمره وسألته أن لا يكلني إلى نفسي ودعوت
إلى ذلك من أجابني من أهل ولايتي حتى أراح الله منه العباد وطهر منه
البلاد بحول الله وقوته لا بحولي وقوتي

أيها الناس إن لكم عليّ أن لا أضع حجراً على حجر ولا لبنة على
لبنة ولا اكري نهراً ولا اكز مالاً ولا أعطيته زوجاً ولا ولداً ولا
أقل مالاً من بلد إلى بلد حتى أسد قمر ذلك البلد وخصاصة أهله بما
يغنيهم ، فان فضل فضل نقلته إلى البلد الذي يليه ممن هو أحوج إليه منه
وأن لا أجركم في ثغوركم فأفتنكم وأفتن أهليكم ولا أغلق بابي دونكم
فياكل قويعكم ضعيفكم ولا أحمل على أهل جزيتكم ما أجليهم به عن بلادهم
وأقطع نسلهم ولكن عندي اعطياتكم في كل سنة وأرزاقكم في كل شهر

حتى تستدر المعيشة بين المسلمين فيكون أقصام كاذنام فإذا أنا وفيت لكم
فعلكم بالسمع والطاعة وحسن المؤازرة والمكاتفة وإن أنا لم أوف لكم
فلكم أن تخلعوني إلا أن تستتيبوني فإن أنا تبت قبلتم مني وإن عرقتم
أحداً يقوم مقامي ممن يعرف بالصلاح يعطيكم من نفسه مثل ما أعطيتكم
فأردتم أن تباعوه فأنا أول من بايعه ودخل في طاعته
أيها الناس لا طاعة للخلق في معصية الخالق أقول قولي هذا
وأستغفر الله لي ولكم

الحجاج بن يوسف

خرج الحجاج يريد العراق والياً عليها في اثني عشر ركباً على النجائب حتى دخل الكوفة فجاء حين انتشر النهار فبدأ الحجاج بالمسجد فدخله ثم صعد المنبر وهو متلثم بعمامة خز حمراء فقال على بالناس غسبوه وأصحابه خوارج فهموا به حتى إذا اجتمع الناس في المسجد قام فكشف عن وجهه ثم قال

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني
أما والله اني لأحتمل الشر بحمله وأحذوه بنعله وأجزيه بمثله واني
لأرى رءوساً قد أينعت وحان قطافها واني لصاحبها واني لأنظر الى
الدماء ترقرق بين العمام واللقى قد شمعت عن ساقها فشمع ثم قال :
هذا أوان الشد فاشتدي زيم قد لفها الليل بسواق حطم
ليس براعي إبل ولا غنم ولا يجزار على ظهر وضم
اني والله يا أهل العراق والشقاق والنفاق ومساوىء الاخلاق
ما أغمر تغاز التين ولا يققع لي بالشان ولقد فررت عن ذكاء وفتشت
عن تجربة وجريت من الغاية . ان أمير المؤمنين شر كنانته ثم عجم
عيدانها فوجدني أمرها عوداً وأصلها عموداً فوجهني اليكم فانكم طالما
أوضعتم في الفتن واضطجعتم في مراقد الضلال وسنتم سنن النفي أما
والله لألحونكم لجو العصا ولأعصبنكم عصب السامة ولأضربنكم ضرب
غرائب الابل فانكم لكأهل : « قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها
رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع
والخوف بما كانوا يصنعون »

اني والله لا أعد إلا وفيت ولا أم إلا أمضيت ولا أخلق إلا فريت
فإياي وهذه الجماعات وقل وقيل وما تقول وفيه أتم وذلك . أما والله
لنستقيم على طريق الحق أو لأدعن لكل رجل منكم شغلا في جسده
من وجدت بعد ثلاث من بعث المهلب سفكت دمه وأنهت ماله

خطبة الحجاج بن يوسف

خطب أهل العراق بمد دير الجماجم قال :

يا أهل العراق ان الشيطان قد استبطنكم خفاط اللحم والدم والعصب
والمسامع والاطراف والاعضاء والشغاف ثم أفضى الى الاغناخ والاصماخ
ثم ارتفع فعشش ثم باض وفرخ فحشاكم نفاقا وشقاقا وأشعركم خلافا
أخذتموه دليلا تتبعونه وقائدا تطيعونه ومؤامرا تستشيرونه فكيف
تنفكم تجربة أو تعظمكم وقعة أو يحجركم اسلام أو ينفعكم بيان . ألسم
أصحابي بالاهواز حيث رمت السكر وسعيتم بالغدر واستجمعتم للكفر
وظننتم ان الله يخذل دينه وخلافته وأنا أرميكم بطرفي وأتم تسلمون
لوإذا وتنهزمون سراعاً ؟ ثم يوم الزاوية وما يوم الزاوية ، بها كان
فشلكم وتنازعكم وتخاذلكم وبراءة الله منكم ونكوص وليكم عنكم
إذ وليتم كالابل الشوارد الى أوطانها النوازع الى أعطانها لا يسأل
المرء عن أخيه ولا يلوي الشيخ على بنيه حتى عضكم السلاح وقصصكم
الرماح . ثم يوم دير الجماجم وما يوم دير الجماجم بها كانت المعارك الملاحم
بضرب يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خيله

يا أهل العراق الكفريات بعد الفجرات والغدرات بعد الخترات
والنزوة بعد النزوات . ان بعثكم الى ثغوركم غلتم وختم وان أمتكم
أرجفتم وإن خفتم نافتكم لا تذكرون حسنة ولا تشكرون نعمة . هل

استخفكم ناكث أو استغواكم غاو أو استنصركم ظالم أو استعصدكم خالع
الا تبعتموه وأويعتموه ونصرتموه ورجبتموه

يا أهل العراق هل شغب شاغب أو نعب ناعب أو زفر زافر إلا
كنتم اتباعه وانصاره

يا أهل العراق ألم تنهكم المواعظ ألم تزجركم الوقائع
ثم التفت الى أهل الشام وقال :

يا أهل الشام انما انا لكم كالظليم الرامح عن فراخه ينني عنها المدر
ويباعد عنها الحجر ويكنها من المطر ويحميها من الضباب ويحرسها من
الذئباب . يا أهل الشام أتم الجنة والرداء وأتم العدة والحذاء

خطبة الحجاج لما مات عبد الملك

أيها الناس ان الله تبارك وتعالى نعى نبيكم صلى الله عليه وسلم الى نفسه
فقال : « انك ميت وانهم ميتون » وقال : « وما محمد الا رسول قد خلت
من قبله الرسل أفان مات او قتل انقلبتم على اعقابكم » . فمات رسول الله
صلى الله عليه وسلم ومات الخلفاء الراشدون المهتدون المهديون منهم ابو بكر
ثم عمر ثم عثمان الشهيد المظلوم ثم تبعهم معاوية ثم وليكم البازل الذكر
الذي جربته الامور واحكمته التجارب مع الفقه وقراءة القرآن والمروءة
الظاهرة واللين لأهل الحق والوطة لأهل الزيف فكان رابعاً من الولاة
المهدين الراشدين فاختار الله له ما عنده وألحقه بهم وعهد الى شبهه في
العقل والمروءة والحزم والجلد والقيام بأمر الله وخلافته فاسمعوا له
واطيعوه ايها الناس واياكم والزيف فان الزيف لا يحيق الا بأهله ورأيتم
سيرتي فيكم وعرفت خلافتكم وطبيكم على معرفتي بكم ولو علمت ان احداً
اقوى عليكم مني أو اعرف بكم ما وليتكم فاي اي واياكم من تكلم قتلناه
ومن سكت مات بدائه غمماً

مصعب بن الزبير

قدم العراق فقال :

بسم الله الرحمن الرحيم « طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ، ان فرعون علا في الارض وجعل اهلها شعباً يستضعف طائفة منهم يذبح ابناءهم ويستحيي نساءهم انه كان من المفسدين » وأشار بيده نحو الشام « وزيد ان نعمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين » وأشار بيده نحو الحجاز « ونمكن لهم في الارض وزني فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » وأشار بيده نحو العراق

تأبين عائشة لابي بكر

نضر الله وجهك وشكر لك صالح سعيك فلقد كنت للدنيا مذلاً
بادبارك عنها وللآخرة معزاً باقبالك عليها وان كان لأجل الارزاء بعد
رسول الله صلى الله عليه وسلم رزؤك واكبر المصائب فقدك . وان
كتاب الله ليعد بجميل العزاء حسن العوض منك فانتجز من الله
موعده فيك بالصبر عنك وأستخلصه بالاستغفار لك

تأبين فرغانة بنت أوس

للأحنف بن قيس

إنا لله وإنا إليه راجعون . رحمك الله أبا بحر من بحر من بحن في جنن
ومدرج في كفن فوالذي ابتلاني بفقدك وبلغنا يوم موتك لقد عشت
حميداً ومت قعيداً . ولقد كنت عظيم الحلم فاضل السلم رفيع العباد
واري الزناد منيع الحرم سليم الاديم وان كنت في المحافل لشريفاً وعلى
الارامل لعطوفاً ومن الناس لقريباً وفيهم لغريباً وإن كنت لمسدداً
والى الخلفاء لموفداً وان كانوا لقولك لمستمعين ولرأيك لمتبعين

تأبين الشيخ اسكندر العازار

لأديب بك اسحق

ما طلعت على أديبنا شمس الخميس ولا عرف في صباحه وجه أنيس
استحكمت منه علة الصدر فما دفع الأطباء عنه مقدوراً وما عا الاجاء
ما كان مسطوراً وما راقب الموت فيه أهلاً ولا عشيلاً فتلاشى نفساً في
نفس وقبضت روحه عند الغلس فمات وعيناه البرقتان منفتحان
ترسلان نوراً كأنهما معدقتان إلى فضاء الأبدية

قضى في سفح لبنان حيث التمس العافية من الهواء والماء ومن أين
للداء العياء دواء . فاتصل نعيه بيروت الآسفة فلا تسل القلوب عما
تمزق ولا الصدور عما توقد ولا العيون عما جرى . انك تكاد لا تجد إلا
رأساً قلقاً وصبراً مفترفاً ودمعاً مستبقاً وقلباً عتقاً في الله ما هذه البلية
كان رايتنا في علم اللسان وآيتنا في صناعة البيان وغايتنا في حب
الانسان . كان والله فتى ولا كالفتيان جريئاً في الحق ما أخذته فيه لومة
وما رهب فيه وعيداً بل ما كان له شعاراً في هذه الحال أو مثلها من
الأحوال إلا قول من قال :

وإذا لم يكن من الموت بدٌّ فمن العجز أن تموت جباناً
فمات شهيداً حميداً قعيداً وحق لاسمه أن يخلد إلى الذرية
كان زهرة الأدب في الشام وريحانة العرب في مصر فلا عجب إذا
الفيت بنسيانه أحشاء الشام شحاحاً أو لفقدانه امتلات نواحي أرض مصر
نواحاً . أي والانسانية كان للانسانية نصيراً ولأعدائها نذيراً وبالأنسانية
بشيراً فلتبكه الأنسانية

ويا إخوان أديب المنتشرين في الأرض مات أديب وأدرج في كفنه
وأصابت الديدان مقيلا في بدنه وأخرسه الموت في ترابه وحيل بيننا
ونين خطابه فابكوا ما وجدتم في العيون دموعاً ولا تسألوا قبلة الوداع
فقد قبلته عنكم جميعاً وقد

ودعته وبودي لو يودعني طيب الحياة واني لا أودعه
دفناه وتركناه ولو أقننا ما نفعناه وهو من قبل قد نزلت اليكم
روحه شوقاً فأوصاني بالقاء التحية

وانت يا شقيق الروح يا من أوحشت الدار ومن فيها وآنتست
القبور وساكنيها يأمؤبن الأمراء وراثي العلماء وباكي الابداء والكبراء
والفقراء يا أيها الراقد بلا حراك ولا يجدر بتأبينك سواك ييكك القلم
يا أميره والحق يا أسيره ييكك الأهل والأجاء فقد كنت ودوداً جيباً
وييكك الشعراء والكتاب والخطباء فقد كنت شاعراً وكاتباً وخطيباً
تبيك المجالس يا خير جليس وتبيك محاضر الأنس يا خير أنيس تبكيك
صحف بعبراتها وترثيك صحف بعباراتها ولا تسلم عمن استرهن الامور
باوقاتهما فترجمة حالك ستفضح ما كان مستوراً تبكيك بكاء «اندروماك»
أمك زهرة الآداب يا غصنا نضيراً وتسقيك الذكري في كل عشية

واما الكتيب الكاسف البال رفيق صباك وأعمالك واخوك في جهادك
فأجثو بالذلة والاكتئاب عند ذلك التراب وأستمطر دمع العين لهفأً
واستوقد نار الصدر أسفاً وابكيك وارثيك ما بقي لي من الحياة بقية
واقسم بوحشتك آنسها الله وبغربتك رحمها الله اني مقيم على ولائك
عجب لأجرائك عدو لأعدائك لا عزاء قلبي الاسوان الا التأسى بأن
تجمعني وإياك ظلمة الأبدية

غسبي شجواً ان أري الدار بلقعاً خلاء وأشلاء الحبيب تراباً

مُصطفى باشا كامل

من خطبة القاها في الاسكندرية سنة ١٨٩٧

سادتي وابناء وطني الاعزاء

اني بفؤاد ملؤه الفرح والسرور اقف الليلة امامكم متكلماً عن
شؤون الوطن المحبوب ومصلحه . واني لأقابل انعطافكم نحو اضعف
خدمة البلاد بعزيز الحمد والشكران . وأستمحكم العفو اذا قصرت في
أداء هذا الواجب . فاني انما أسر بهذا الانعطاف وبهذه المظاهرات .
لأنها موجهة لشخصي الضعيف بل لأنها اكبر دليل عليّ على حياة
الشعب المصري . وأقوى حجة تكذب دعوى القائلين بأن مصر وطن
لا وجود للوطنية فيه . وان ابناء وادي النيل يقدمون بأنفسهم الى ألد
اعدائهم وطنهم واقدس ميراث لأبائهم وأجدادهم

أجل . ايها السادة . انكم باجتماعكم اليوم هذا الاجتماع الوطني
ترفعون كثيراً من مقام الوطنية المصرية وتخففون من آلام مصر
العزيزة التي قاست وتقاسي أشد العذاب على مشهد منكم يا أعز بنيها
ويا نخبة أنجباها . فكل اجتماع وطني تذكر فيه مصر ويطالب بحقوقها
ويعلن ابناءؤها اخلاصهم لها هو في الحقيقة مرم لجراحها ودواء لدائها
فاذكروها ما استطعتم . فان في ذكرها ذكرى آلامها وذكرى الآلام
تجر حتما الى ذكر عوامل الشفاء . اذكروها كما يذكر الولد الحنون
أمه الشفيقة وهي على سرير المرض والعناء . اذكروها بآلامها وان كان
غيركم يذكر بلاده بمجدها ورفعة شأنها . اذكروها فانكم ما دمتم

مقدرين لمصائبها عارفين بحقيقة آلامها دام الامل وطيداً في سلامتها
ودام الرجاء . اذكروها فمن المستحيل أن يرى العاقل النار في داره
والداء في شخص امه ويهمل النار ويهمل الداء . ومن المستحيل كذلك
ان يكون الوطن في خطر ونحن نيام . وأن يعمل الاجنبي لامتلاك
بلادنا وسلب حياتنا بل لاستعبادنا واسترقاقنا ونحن جامدون لا عمل
ولا حراك

ألقوا ايها السادة بأنظاركم قليلا الى الامم الحرة تجدوا كل فرد
فيها يدافع عن وطنه ويدود عن حوض بلاده أكثر من دفاعه عن
أبيه وأمه بل هو يرضاهما ضحية للوطن ويرضى نفسه قبلهما قرباناً
يقدمهما لاعلاء شأن بلاده . ويعد الموت لاجل الوطن حياة دونها الحياة
البشرية ووجوداً دونه كل وجود . فلم لا يكون المصري على هذا
الطراز ووطنه أجمل الاوطان وأحقها بمثل هذه المحبة الشريفة الطاهرة
اسألوا التاريخ أيها السادة ما واجب أمة دخل الانجليز ديارها
خدعة وعملوا لامتلاكها وسلبها كل سلطة وكل قوة . يجبكم التاريخ
ان واجب أمة هذا شأنها ان تعمل بكل ما في استطاعتها ضد مغتصبها
وأن تبذل في سبيل خلاص وطنها كل ما تمتلك من مال ورجال
أجل : كل احتلال اجني هو عار على الوطن وبنيه . والعار واجب
أن يزول ولست أقصد بهذا الكلام ان أسألكم باسم الوطن اعلان
ثورة دموية ضد محتل البلاد . كلا . ان اقل الناس ادراكاً
لمصلحة مصر يعلم علم اليقين انها منافية لكل ثورة وكل هيجان . وانما
أسألكم أن تعملوا بكل الوسائل السامية على استرداد الحقوق المسوبة
منكم وأن تعملوا لأن تحكم البلاد بأبناء البلاد . نعم اني أعلم أن

الاحتلال قوي السلطة عظيم الرهبة شديد العقاب . وان العمل ضده
موجب للعذاب مسبب للفقر والفاقة . ولكن في الرضى بالاحتلال
الحيانة والعار . وفي العمل ضد الاحتلال الشرف والفخر

فيا ذوي النفوس الآتية ويا ذوي الضمائر الحية . اطلبوا الشرف ولو
مع الفقر . اخدموا الوطن ولو أسقطت على رؤوسكم الصواعق . كونوا
مع مصر ان سعيدة فسعداء وان تعيسة فتعساء . قولوا لعدوها في
وجهه : أنت عدولنا . ولصديقها : أنت صديق لنا . لا تحبوا من
يرميها بنبال الموت بل امنعوه عنها ان قدرتم . ثم ردوها في صدر
راميتها ان استطعتم . وان لم تستطيعوا فكونوا معها لا مع المعتدين

وان لمصر غير المحتلين أعداء آخرين هم آلات الاحتلال . آلات
الفساد . فان ذكرتكم الاعداء فاذكروا الخونة فهم ألد الاعداء وأي
الاعداء هم . أولئك الذين أنكروا الوطن والوطنية . واثمنوا على
مصالح الامة فعرضوا بها للدمار . أولئك الذين أبرتهم مصر فقابلوا
برها بالسوء وصاروا اليوم في ايد المحتلين ضد الوطن العزيز . آلات
الدمار . آلات الخراب . أولئك الذين كلما سعدوا درجاً من درجات
المناصب نزلت نفوسهم دركا ووقدوا نصيباً من الشرف وسموا الاحساس .
أولئك الذين يبيعون الوطن على مشهد من الامم ويسيرون بين الناس
حاملين لواء الحيانة والعار . أولئك الذين اذا مد اليهم الوطن يد
الاستغاثة مدوا اليهم سيوفاً ليقطعوا بها يده الشريفة

هؤلاء هم الخونة وهم أشد الاعداء ضرراً . ويعلم الله ان الدم الذي
يجري في عروقهم هو دم فاسد ليس بالدم المصري الصادق . وانهم مهما
ذاقوا من لذة الحياة الظاهرية فسينالهم العقاب أقسى العقاب ولو من

أنفسهم متى حاسبوا ضماؤهم . نعم سيعاقب الخائنون على خيانتهم . فكم رأينا في التاريخ رجلا خانوا أوطانهم وساعدوا الاعداء على امتلاك بلادهم . فعوقبوا على خيانتهم لا من أبناء وطنهم فقط بل من نفس الاعداء الذين خدموهم وساعدوهم . هذه سنة الله في خلقه . يقتل القاتل عقاباً على عمله . فكيف بمن يعتدي على أمة بأسرها بالخيانة ويعتدي عليها بالسلاح الذي سلمته إياه ليدافع به عنها

نعم سيعاقب الخائنون وسيحمل أبنائهم من بعدم علم الخيانة على رؤسهم وسيبقون في التاريخ مثلاً كبيراً للأبناء والأعقاب

وإن ذكرتم الاعداء فاذكروا المناققين . فهم خونة تفننوا في أساليب الخيانة يظهرون أمامكم بمظهر المخلصين وهم يدبرون مع الاعداء المكائد والدسائس . فهم ذوو وجهين وذوو لسانين فاذروهم واعلموا أنهم ليخيب مساعدهم وتحبط أعمالهم

... أيها السادة . أعداء الوطن عديدون . ومصائب الوطن عديدة وبديهي أن ازدياد الاعداء يزيد من واجبات الوطنيين المخلصين لبلادهم فلا تظهر الوطنية الحقبة إلا في أوقات الخطر ولا تعرف المهمة العالية إلا عند المصائب . وغني عن البيان أن الأمة بأسرها كارهة للاحتلال . رغبة في الجلاء والحرية وقد أظهرت هذه الرغبة في ظروف عديدة وجاهرت بها حيناً بعد حين . إلا أنها كسائر الأمم في حاجة لأن يرشدها أبنائها المتعلمون ورجالها الخبيرون . ويسرنى كما يسر كل مصري صادق أن الناشئة المصرية عارفة بواجباتها نحو الوطن العزيز . فهم أبناء الوطن وهم رجال المستقبل وبهم تحيا البلاد وبهم تقوم

ولكن هناك فئة من المصريين لا أنكر إخلاص رجالها للوطن العزيز

ولكن أنكر عليهم اليأس الذي يتظاهرون به في كل وقت وفي كل مكان فهم ما عملوا ولا يعملون للبلاد عملاً نافعاً ولكنهم جعلوا اليأس علة عدم العمل وعلة الكسل. فان سألتهم : لم لا تقومون بعمل عمومي نافع للبلاد أجابوك : نحن يائسون من مستقبل الوطن معتقدون بظلمة الايام الآتية فبالله كيف يستطيع طبيب أن يحكم على عليل بعدم الشفاء قبل أن يفحص داءه ويعطيه الدواء . على اننا نرى الكثير من الاطباء لا ييأس أبداً من شفاء المريض حتى في آخر لحظة من حياته . فكيف ييأس رجاله من بني مصر من مستقبل البلاد . وهم وإن كانوا قد خبروا داء مصر فيعلم الله ويعلم الناس أنهم الى اليوم ما قدموا لها الدواء . كيف نياس من المستقبل والمستقبل بيد الله وحده . وكثيراً ما تأتي الحوادث بخلاف المنتظر وبغير حساب . ألم يكن الكثير من المصريين ومن غير المصريين في يأس من مستقبل الدولة العلية ويعتقدون أنها على مقربة من الموت . فيها هي اليوم قد ساعدتها الحوادث التي ساقها الاعداء مؤملين البطش بها فظهرت بمظهر القوة والحياة . وأصبحتم جميعاً فرحين بسلامتها معتقدين حسن مستقبلها

كيف نياس من المستقبل وقد أرانا التاريخ أنما حكمها الاجانب قروناً طويلة ثم قامت بعد ذلك والاسترقاق مطالبة بحقوقها وأخرجت الاعداء من ديارها واستردت حقوقها وحريتها

هي النفوس الصغيرة التي يخلق عندها الأمل بكلمة أو بتلغراف . ثم يستولي عليها اليأس بكلمة أو بتلغراف . أما النفوس العالية الكبيرة فيدوم فيها الامل مادام الدم في العروق وما دامت الحياة وأي حياة ترضاها النفوس الشريفة مع اليأس . أيجمع المرء في جسم

واحد الموت والحياة . اذ اليأس موت حقيقي وأي موت
كيف نياس ونحن جميعاً عالمون بأن ما يظهر طويلاً في حياة الافراد
هو قصير في حياة الشعوب . فعشر من السنوات في حياة الانسان طويلة
حقاً ولكنها في حياة الامة قصيرة جداً . على انه اذا كان اليائسون معتقدين
صحة أفكارهم فعار عليهم أن يقوموا في الامة بوظيفة تثبيط هم الآملين
والآملون في البلاد كثيرون بل الامة كلها مؤهلة خيراً في المستقبل وان لم
تظهر الى الآن أعمال الآملين فستظهر بعد قليل وسترى الامة المصرية
وأهم العالم أجمع أن للوطن المصري أبناء غاصين يقدرون الوطنية قدرها
ويعرفون لمصر حقوقها ولا يخافون الاحتلال وقوته بل يجاهدون في سبل
خلاص البلاد منه أشد الجهاد وأحسنه . ولا غرو فان سبل خدم الوطن
عديدة وان أهمها اعلان الحقيقة في كل بلد وفي كل زمان . فالحرية بنت
الحقيقة وما انتشرت الحقيقة في أمة الا وارتفعت كلمتها وعلا شأنها .
فالحقيقة نور ساطع اذا انتشر اختفى الظلم والظلمة وانتشرت الحرية
والعدل . فكما ان الافراد لا تسلب حقوقهم ولا يعتدي اللصوص على
أمتعتهم الا في ظلام الليل الخالك . فكذلك شأن الامم لا تسلب حقوقها
ولا يعتدي العدو على أملاكها الا اذا كانت الحقيقة مجهولة فيها وكانت
هي عائشة في الجهل والظلام

فيا أيها المصريون المخلصون لمصر . أنشروا الحقيقة في أمتكم والامم
الآخري . قولوا للمصري انه انسان من بني الانسان له حقوق الانسان
تروه رجلاً كرجال الامم الحرة . يحمل لواء الوطن بكل قوة واقدام .
قولوا للفلاح المصري انه خلق انساناً ككل انسان وان الله أعطاه في
الحياة حقوق أكبر الافراد . وإن له صوتاً لورفعه سمع في الملأ الاعلى

وانه ما خلق لان يعمل لغيره بل ليعمل لوطنه ولنفسه تروه عندئذ أشد
الناس دفاعاً عن حقوق الامة والوطن . قولوا للامة المصرية إنها أمة
كسائر الامم من أقدس حقوقها أن تحكم نفسها بنفسها وألا تنفذ
رغائب غيرها وأن تكون في بلادها عالية الكلمة قوية السلطة لا يرد لها
رأي ولا يخالف لها أمر . هنالك تجدون الامة حية والشعب قوياً ولا
ترون أولئك الذين يهزأون برغبة الشعب ورغبة نوابه ويسخرون من
رغائب الامة ومطالبها

انشروا الحقيقة . عن مسألة مصر في كل بلد وفي كل ناد . فليس
المصريون وحدهم هم أصحاب الحقوق في مسألة مصر ضد المحتلين . بل معهم
أمم كثيرة من أمم أوروبا لها في مصر مصالح توافق مصالحهم ولا توافق
مصالح المحتلين . وخير ما يعمل لمصلحة مصر هو ان تنضم الامة الاوربية
الى الامة المصرية ضد الاحتلال الانجليزى ففي ذلك الخلاص وفي ذلك السلام
ولسنا أيها السادة بأنصار دولة دون دولة بل نحن أنصار الوطن
المصري وطن الآباء والاجداد وموطن الابناء والاعقاب . فان ظهرت
دولة من الدول بمظهر المحبة لمصر والميل لمساعدتها كنا أكبر أصدقائها
وأعظم أنصارها . فمصلحة وطننا قبل كل مصلحة . وهي هي المصلحة
الوطنية التي تفرض علينا أن نشكر من صميم فؤادنا الذين رفضوا من
سياسي أوروبا العمل مع الانجليز ضد مصر والذين أوقفوا الانجليز عند
حد الاحتلال في البلاد . وهي هي المصلحة الوطنية التي تفرض علينا أن
نشكر كل رجل من أي أمة كان يدافع عن حقوق وطننا ويساعدنا
على استرداد حريتنا وحقوقنا الشرعية

واذ كان بعض الرجال المخلصين للوطن العزيز يخافون الظهور أمام

قوة الاحتلال بمظهر المجاهدين ضده ولا يستطيعون أن يقوموا أمام
الامم مدافعين عن بلادهم مناضلين عن حقوق شعبهم . فعملهم في مصر
نفسها واجبات وطنية يضيق المقام عن عدها . ولكني أقف
قليلاً وأذكر منها بنوع خاص واجب تربية الامة وتعليمها

نعم ان هذا الواجب أكبر واجب وطني والبلاد مطالبة بالقيام به .
فقد أصبحت المدارس على خلاف رغائب الشعب وآماله . وأصبحت الامة
في حاجة إلى مدارس أهلية ترشدنا الى مصلحة البلاد الحقيقية وتعلمها
ما للامة من الحقوق وما عليها نحو الوطن من الواجبات

لم لا يقوم كبراء مصر ووزرائها السالفون بأمر تأسيس المدارس
الاهلية وتربية الامة . لم لا يعتقدون الشركات لهذه الغاية ويخصصون
أيامهم الاخيرة لهذا العمل الشريف . رأينا عظماء منهم قام بمسألة
الاعانة العسكرية وأجهد نفسه في هذا الأمر وله من الامة والوطن
جزيل الشكر والثناء . فلم لا نزاه يقوم مع الكبراء الآخرين بمسألة
اعانة عمومية لتأسيس مدارس أهلية والبلاد في أشد حاجة اليها .
يا أيها الكبراء ويا أيها العظماء ويا أيها الاغنياء . ما الفخار بالرتب
والالقباب ولا بسكنى القصور العالية والتحدث بما كان وما ربما كان
سيكون . بل الفخار كل الفخار في العمل آتاء الليل وأطراف النهار
لخدمة البلاد واعلاء شأنها . فما الحياة بايام تمر وسنين تكرر بل بالعمل
وبالخدمة الوطنية

وما الحياة بانفاس نردها ان الحياة حياة الفكر والعمل
واذا كان رجل ضعيف الصوت مثلي يسأل السادة الامراء
والسادة الاغنياء والعمل في الشيخوخة والقيام في آخر العمر بشئ

خدمتهم الوطنية. فذلك لأنني أعتقد أن الكثير منهم قضى حياة شريفة وخدم البلاد بصدق وإخلاص. فهي هي البلاد بنفسها تسأل خيرة رجالها على لسان أضعف أبنائها أن يتقوا مثلاً طيباً للشبيبة والناشئين. وأن ينشروا في الأمة نور الترية ونور الحقيقة وأن يبشوا فيها روح الوطنية وروح الرجاء

نرى الكثيرين من الأغنياء يهتمون بامر توظيف أبنائهم ولا يرون الشرف إلا في الوظائف. فتمنى يسمعون أنين الوطن وشكايته من هذا الداء العضال. داء السعي وراء الوظائف

اتركوا الأبناء معشر الآباء في الحياة الحرة. اتركوهم يخدموا الوطن ويخدموا أنفسهم في غير دائرة الوظائف. اتركوهم أحراراً غير مقيدين بقيود الرواتب. ابعثوا بهم إلى الخارج ليدرسوا التجارة والصناعة ويؤسسوا في البلاد المعامل والمصانع تزدادوا بذلك شرفاً وغنى وتزدادوا أمام الله وأمام الوطن مثوبة وأجرأ. والافان أهملت تربية الأمة وبقي الكبراء منعكفين في إدارة شؤونهم الخاصة واستمر الآباء يلقون بالأبناء إلى مهاوي التوظيف في الوظائف وبقيت التجارة والصناعة في كساد ودامت الأمة في حاجة إلى استجلاب لوازمها الضرورية من غير بلادها. دام الانحطاط ودام التأخر ودام الخطر (انتهت باختصار)

سعد زغول باشا

الخطبة التي القاها بالسراوق يوم ١٩ سبتمبر سنة ١٩٢٣

لم أصعد للخطابة فيكم لأنني لا أزال ضعيفاً ولا أقوى على الخطابة ولكنني صعدت إليه اطاعة لأمركم واضطراداً لخطتي التي التزمتها وهي أنني لست أميراً فيكم ولكنني خادم لمبادئكم وأرجو الله سبحانه وتعالى أن يرزق مصر الاستقلال التام (تصفيق)

طلب مني بعض خطبائكم أن ألقى كلمة لتكون برداً وسلاماً على قلوبكم والكلمة التي جاشت في صدري عقب هذه الدعوة هي أن أرجوكم وأرجو كل مصري أن يحافظ على أمر واحد هو نغار نهضتنا الحاضرة ، ذلك الأمر هو الاتحاد المقدس (تصفيق)

لست خالق هذه النهضة كما قال بعض خطبائكم - لا أقول ذلك ولا أدعيه بل لا أتصوره ، إنما نهضتكم قديمة تبتدىء من عهد مؤسس الاسرة المالكة محمد علي ، وللحركة العراية فضل عظيم فيها وكذلك للسيد جمال الدين الافغاني وأتباعه وتلاميذه أثر كبير وللرحوم مصطفى كامل باشا فضل غزير فيها أيضاً وكذلك للرحوم فريد بك

كل هذا حق ويجب علينا أن لا نكتمه لأنه لا يكتم الحق الا الضعيف (تصفيق) . ثم أتت هذه النهضة على أثر تلك النهضات وامتازت على سابقتها بأن أوجدت هذا الاتحاد المقدس بين الصليب والهملال (تصفيق) هذا الاتحاد الذي أرجو مصر جميعها أن لا تهانون فيه فانه نغار هذه النهضة وهو عمادها .. وهو الذي اضطرب له خصومنا

إذ أسقط من أيديهم حجة كانوا يعتمدون عليها كما اردنا تحرير رقابنا من النير الذي وضعوه في اعناقنا

يقول خصومنا انا حماة الاقلية فيكم لأنكم قوم متعصبون فلا بد من أن نبقي بينكم لنحفظ العدل فيكم !!.. هذه الحجة سقطت باتحادكم ولكنهم الآن انتهزوا فرصة الانتخاب ليشوا الانقسام فيكم فاحذروا هذه الدسيسة واعلموا انه ليس هناك أقباط ومسلمون . ليس هناك الامصريون فقط . ومن يسمونهم اقباطا كانوا ولا يزالون انصاراً لهذه النهضة ، وقد ضحوا كما ضحيت و عملوا كما عملتم وبينهم أفضل كثيرين يمكن الاعتماد عليهم فاحشوا التراب في وجوه اولئك الدساسين الذين يفرقون بين مصريين ومصريين انه لا امتياز لواحد على آخر الا بالاخلاص والكفاءة فيهم اجسامنا وفيهم من هو أفضل من كثير منا ، اقول هذا لأنني اقول الحق ويجب على زعيمكم أن يقول الحق (تصفيق حاد)

لقد برهنا في مواطن كثيرة على اخلاص شديد . وكفاءة نادرة وأفتخر (أنا الذي شرفتموني بدعوتي زعيمكم) بأني اعتمد على كثير منهم فكلمتي ووصيتي فيكم ان تحافظوا على هذا الاتحاد المقدس وان تعرفوا ان خصومكم يتميزون غيظاً كما وجدوا هذا الاتحاد متيناً فيكم (تصفيق) . ولولا وطنية في الاقباط واخلاص شديد لتقبلوا دعوة الاجنبي لحمايتهم وكانوا يفوزون بالجاه والمناصب بدل النفي والسجن والاعتقال ولكنهم فضلوا ان يكونوا مصريين معذبين عرومين من المناصب والجاه والمصالح يسامون الحسف ويناقون الموت والظلم على أن يكونوا محيين بأعدائهم وأعدائكم

هذه المزية يجب علينا أن نحفظها وأن نبقيها دائماً في صدورنا واني

أفتخر كل الافتخار كما رأيتم متحدين متساندين حافظوا على اتحادكم
وهناك افتخار آخر لهذه النهضة وهو التفاف الامة حول شخصي الضعيف
تعودتم طاعتي وأنا لم أكن أميراً فيكم ، ولا قريباً لبنت ملك
اعتدتم الخضوع له ولا أنا من بيت كبير بل أنا فلاح ابن فلاح من
بيت صغير يقول عليه خصومنا انه حقير ونعمت الحقارة هذه ، ولم
أكن غنياً ليكون التفافكم حولي طمعاً في مال ، ولا أنا ذو جاه أوزع
الجاه على من يطمع فيه . ولكنكم التففتم حولي فدللتكم بذلك على أنكم
لا تطلبون مالا ولا جاهاً بل السجن في بعض الاوقات (تصفيق حاد)
أتم أمة تلتف حول رجل لا مال عنده ولا جاه ولا جمال ايضاً
(ضحك) حقيقة ان كل ما يستهوي الناس عادة مفقود عندي - أنا مقرر
بذلك وأنا اؤكد لكم وأقسم بالله وبصفاته اني ما تخيلت حتى في منامي
ان شخصي الضعيف موضوع تلك الحفاوة ولكني اعتقد أن في الامة
شعوراً تبعياً ونوراً الاهايا هداها الى شيء في شخصي الضعيف هو اني
متمسك بمبادئها (تصفيق)

قالوا وما أكثر ما قالوا - قالوا انكم قوم تعبدون الاشخاص
(يعني ما شفتوش الا أنا ؟) (ضحك) لم لم تعبدوا غيري . هذا كلام
فارغ لا يستحق مني الرد - وهذا هو الدليل على ان نهضتكم حقيقة
تعبت مع صحيي المخلصين - وهنا اسمحوا لي أن استطرد عن
اولئك الصحب

تعبت ولكن صحبتهم أنستني آلام النبي لانهم كانوا حقيقة ابناء
بررة ، شعرت بحبهم وأنسوني كل ما كان يمكن ان أحس به في سجن
وغربتي ولولا قصر الوقت لشرحت لكم جميل عنايتهم بي - يقيناً كنت

أتقوى في عزيمتي بهم ، واني اشكرهم على هذه التقوية - أنسوني
آلاماً كثيرة ووجدت فيهم عوضاً كبيراً - شكرتهم بسري هناك وهنا
اشكرهم علناً امام الامة جميعاً (تصفيق حاد)

نفينا فماذا حصل ؟ حل علنا آخرون فكان لهم من الامة نفس
الاحترام الذي كان لنا لأنهم حلوا في المكان الذي عهدت فيه الامة
الاخلاص - حلوا فيه ولم يكن امامهم الا السجن والنفي والاثم ودل
ذلك على ان الامة جميعها مستعدة - إذا غاب منها سيد قام سيد (تصفيق)
جاء هؤلاء الخلق ونابوا عنا أحسن نيابة وعذبوا وأهينوا ولكنهم
صبروا حتى حكم عليهم بالاعدام فتقبلوه بوجوه بأشة هاتفين لمصر
وللاستقلال التام (تصفيق حاد وهتاف متواصل) وعند ما أخذوا قام
من خلفهم وسار سيرهم . فكان له ما كان لهم من احترام وسجن
واعتقال ، ثم خلفهم أسياذ آخرون قاموا بعبئهم خير قيام - فتوالى قيام
الابطال مكان الابطال - السجن يفتح ابوابه لكل حر ولكل عامل
للحرية دليل على تأصل النهضة فيكم وانكم حقيقة مستعدون لأن
تضحوا كل شيء في سبيل استقلالكم وان نهضتكم حقيقة وأنكم
تمجدون الاشخاص الذين يتمسكون بمبادئكم مهما كانوا . وكنت
وأنا في منفاي عند ما أرى هذه الوثبات أقول لقد تمت مأموري
واستقلت البلاد (هتاف لحياة الرئيس) فأجاب معاليه هاتفاً (لتحميا
جميع الوفود التي خلفت سعدا في مكان سعد) فردد الجميع هذا الهتاف
نعم انهم عذبوا واهينوا وسجنوا وأخيراً وجد من يعيرهم بالسجن
والنفي !! عابوا عليهم ان يسجنوا . عابوا عليهم ان يهانوا . وقالوا
بطولة كفارغ بندق - بثت هذه الكلمة . لا معنى للبطولة الا أن

يقتحم الشخص الاخطار مع كونه عالماً بأنها اخضرار ويتجملها برباطة
جأش وثبات جنان كما تحملها هؤلاء الذين كانوا معي وأشهد الله اني
كنت آخرم فهم ابطالنا وهم ابطال الامة وهم الذين يجب أن ترفع لهم
الاعلام وأن يشاد بذكركم (تصفيق)

واني أؤكد لكم ان كل ما يظهر مني من عمل صالح فهو باشتراكهم
وربما كان فيهم من هو صاحب الفكرة الصالحة لأنني ضعيف بشيخوختي
في وسط أولئك الشبان القديرين . فصاح صائح (ليحيا التواضع)
فرد الرئيس قائلاً (أنا لا أعرف الكذب ولو في التواضع) اني أقول
الحق حتى لو كان فيه غر لنفسي . اني لا أخشى في الحق لومة لائم .
ولا أخشى الجرائد

اني كنت اقرأ قبل كل الجرائد جرائد المخالفين وأسر كل السرور
بكذبها ، وأحمد الله لأنهم لم يجدوا ضد اخواني حقاً يعيرونهم عليه
لأنه لا أسر للنفس من ان ترى خصمها منغمساً في الكذب والرييلة
لقد فاتني ان أشكر الوفود ولكن هل أتم في حاجة الى شكر
أبديه ؟ - لا نبديه لكم فلسان الحال أفصح من بياني (تصفيق حاد
وهتاف متواصل)

الخاتمة

والآن وقد جزنا معا ايها القارىء هذه المسافات الشاسعة وطوينا عصوراً مختلفة وبلداناً مختلفة وحضارات مختلفة وسمعنا من افواه البشر على تنازع اهوائهم وتضارب مذاهبهم وتباين طباعهم وتناقض حالاتهم أناشيد القلب البشري من احلام وآلام صاعدة كلها نحو مثل اعلى واحد هو العدل هو الحق هو الله . فيحق لنا ان نقول ان الخطابة نعمة روحانية يستطيع بها الانسان ان يرتفع فوق مراتب الانسانية . وان يمضي على رؤوس الحقب تاركا صدى صوته في سمع الاجيال تتعاقب فيه ثم تزول وهو لا يعرف الزوال

واذا لم يسعنا ان نجمع بين دفتي هذا الكتاب الا القليل من تلك الآيات التي يتجلى فيها وحي العبقريّة . ففي هذا القليل ما يكفي ليحبب اليك هذا الفن ويساعدك على الذهاب فيه مدى بعيداً ، بعد الذي مهدناه لك من البيان عن كل ما يتعلق بقواعده وشروطه وأصوله وفروعه وطرقه وانواعه وما يشترك فيه أو يحتاج اليه من شؤون الصحة واسباب التريّة والعناية بالجسم والصوت والاخلاق على ما اجمع عليه ارباب الفن وأيده العلم والاختبار وكان الفراغ من تبليّضه في شهر ابريل سنة ١٩٣٠ ميلادية والحمد لله اولا وآخرآ

الدكتور نقولا فياض

فهرست الكتاب

صفحة

٥

تمهيد

القسم الاول

البلاغة نظرياً وعملياً

١١	تعريف البلاغة
١٩	من هو الخطيب
٢٩	الفطرة ، الاكتتاب ، صناعات الخطيب
٢٩	الانشاء الخطابي
	الكاتب والخطيب ، الكلمات والالفاظ ، الشعور
	والخيال ، الاقتصاد ، كلام بشر بن المعتمر
٤٧	المنبر
	الوقفة ، الصورة ، الصوت ، الاشارة ، الملامح
	خلاصة ما تقدم
٦٣	الخطيب والممثل
	الفرق بينهما علماً ، الفرق بينهما عملاً
٦٩	الخطيب والشاعر
	البداية والخيال ، الشمراء والخطباء
٧٥	الخطيب والخطباء
	الأضداد والمنافسون ، آداب الخطيب
٨١	الخطيب والجمهور
	الصلة بينهما ، المعارضة ، المقاطعة ، المكاء والتصدي
٩١	تهيئة الخطاب
	طرق التحضر ، انتقاء الالفاظ ، المراجعة والاستظهار
٩٩	الارتجال
	حقيقته ، عيوبه ، امكانه
١٠٧	الرنج
	أعراضه ومعالجته ، من ارتنج عليه من العرب
١١٥	نظرة تاريخية
	الخطابة عند الافرنج ، وعند العرب
١٢٥	أنواع الخطابة
	السياسية ، العسكرية ، الدينية ، القضائية ، العلمية

القسم الثاني

أمالى طبية ووصايا صحية

صفحة	
١٤٣	نظرة تشريحية
١٤٥	الصوت
١٤٧	التنفس
١٤٩	الرياضة التنفسية
١٥١	رياضة الصوت
١٥٢	صحة الصوت
١٥٤	قبل الخطابة وبمدها

القسم الثالث

أمثلة من خطب العرب والافرنج

صفحة	
١٥٧	خطب الافرنج
١٥٩	رأى في الترجمة
١٦٣	كيف يجب أن تقرأ هذه الخطب
١٦٥	سوكرات
١٦٦	ديموستين
١٦٩	شيشرون
١٧٠	القديس باسيليوس
١٧٢	يوحنا لم الذهب
١٧٦	بوسويه
١٧٨	لاكوردير
١٨١	ميرابو
١٨٢	نابوليون
١٨٤	لامارتن

صفحة	
١٨٦	هيكو
١٨٨	غامبتا
١٩٠	لاشو
١٩٤	كايما نسو
١٩٧	جوريس
١٩٩	فيقياني
٢٠٠	لنكولن
٢٠١	أرستيد بريان
٢٠٢	موسوليني

خطب العرب

٢٠٧	النبي (ص)
٢٠٨	أبو بكر الصديق
٢٠٩	علي بن أبي طالب
٢١١	معاوية
٢١٢	عتبة بن أبي سفيان
٢١٣	زياد بن أبي سفيان
٢١٦	عمر بن عبد العزيز
٢١٧	أبو حنيفة الخارجي
٢١٨	الاحنف بن قيس
٢١٩	قطري بن الفجاءة
٢٢١	عبد الله بن زياد
٢٢٢	يزيد بن الوليد
٢٢٤	الحجاج
٢٢٧	مصعب بن الزبير
٢٢٨	تأبين طائفة لابي بكر
٢٢٩	تأبين الاحنف بن قيس
٢٣٠	المازار لاديب اسحق
٢٣٢	خطبة مصطفى كامل
٢٤١	خطبة سعد زغلول